رواية

الطبعة الثانية

أربعون عاماً بلا مطر

"خيال من وحي الحقيقة"

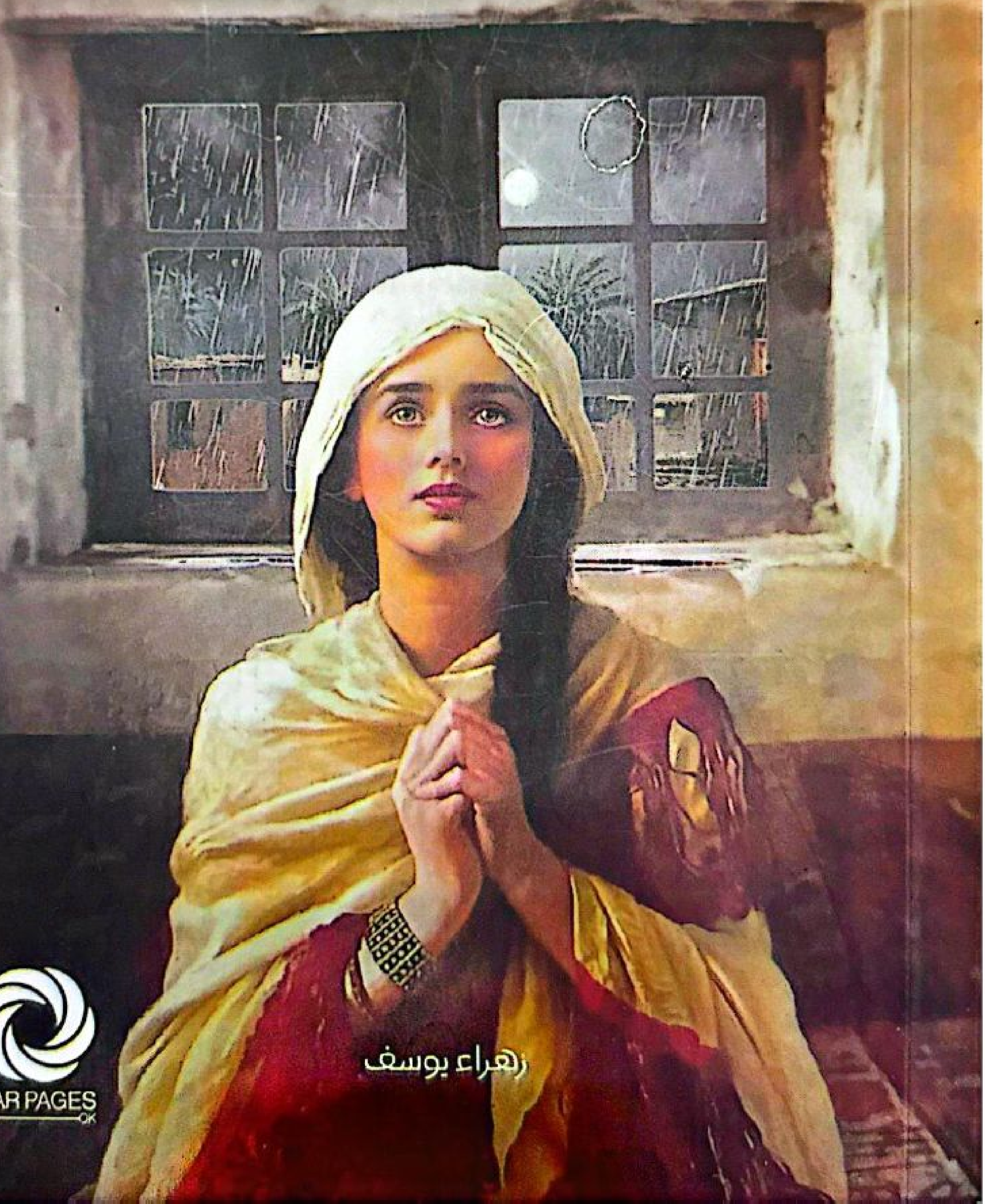

زهراء يوسف

DAR PAGES

أربعونَ عامًا بلا مطَر

ⓒدار صفحات كتاب للنشر والتوزيع ، ١٤٤٥هـ

يوسف ، زهراء
اربعون عام بلا مطر. / زهراء يوسف - ط٢. .- الاحساء ، ١٤٤٥هـ
٤٦٧ ص ؛ ..سم

رقم الإيداع: ١٤٤٥/١٧٤٣٩
ردمك: ٦-٤-٩٢١٦٣-٦٠٣-٩٧٨

دار صفحات كتاب للنشر والتوزيع

للتواصل مع الدار:
رقم الجوال: 0556902621
الايميل: darpagesbook@gmail.com
الموقع الإلكتروني: darpagasbook.com
حسابات التواصل: dar_pages_book

DAR PAGES BOOK

الحقوق محفوظة: لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر.

جميع العبارات و الأفكار الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر.

رقش

@N_BHS2

أربعونَ عامًا بلا مطَر

زهراء يوسف

الطبعة الثانية

2024م - 1445هـ

.

.

إلى المُغيَّب الذي لم يخلُ مِنَّا

إلى النَّازِح الذي ما نزحَ عنَّا

.

.

إلى السيِّد الغائب..

.

.

.

إلى مَن عرَّفني الله بهما نفسه..

إلى مَن أراني طريق الحق وحبَّبهُ إليَّ..

إلى مَن علّمني إمساك القلم وأورثني بلاغةَ الكلام وفصاحةَ اللِّسان..

إلى مَن كان معي بكاملِ قلبه في كلِّ خطوة..

إلى أمي وأبي اللذين بقيا ثابتَين مهما عصفتْ بي الحياة!

.

.

.

.

.

.

ويلكم، ماذا فعلتم؟!

لقد قتلتم سيِّدكم، قتلتم الرجلَ الذي أنقذكم.

.

.

.

(1)

مُحمد – 660 هـ

ما زِلتُ أسمع أصواتهم لكن الأحاديثَ التي أشتاقُها قد غابت مِنها تمامًا..

إنني أتجول في المدينةِ كل يوم؛ لأنتهي بهذا البيت المُهترئ، وأُسندُ ظهري إلى أحد جُدرانه التي تريد أن تنقض.

لا زالت رائحةُ الحريق عالقةً هُنا ولا زال صدى أنّات تِلك الفتاةِ اليتيمة يتردد.

لِمَ لا يسمع أحدهم ذلك...؟

إنهم يتهمونني بالجنون كلما تحدثتُ بما أسمعه وأعرفه!

ولم يكن ذلك القول مجازًا مِنهم أبدًا، بل إنهم يرونه حقيقة. ويتصرفون وَفق ذلك فلا أحد يلتفت لِوجودي أو يقيمُ لي وزنًا، ولا أحد يحمل ما أقوله أبدًا على محمل الجِد.

الصبيان الصغار يدورون ويقفزون حولي يضحكون ويصرخون: (مجنون، مجنون، مُحمد المجنون). حتى أنهم يرمونني بالحجارةِ أو القاذورات أحيانًا.

إنني لا شيء هُنا سِوى مجنون!

مُستضعفٌ مِسكين، فقيرٌ قد يتصدق عليه البعض بكسرةِ خُبز أو قدحٍ من لبن أو زبديّة من أرز!

وإن ما أؤمن به لا يؤمن به أحدٌ هُنا على الإطلاق، لقد أضحيتُ وحيدًا جِدًّا بعد غيابهم، وقد مرَّ على ذلك أربعون عامًا، إنني لم أشعر بهذه الوحدة حتى عِندما قُتل والداي..

حينها كُنت في السادِسة مِن عُمري.

استيقظتُ صباحًا على بكاءِ أمي وصياحِ الرِّجال في بيتنا..

كان أبي يُقادُ مع أولئك الرجال بعنف، هرولت إليه مُسرعًا وتعلقتُ بثوبهِ باكيًا:

- أبي!

لم أُكمل كلِمتي، دفعني ذلك الرجل ورماني أرضًا، وخرجوا بِسرعة البرق، خرجوا وغاب والدي وأشرعَ في غيابه.

كانت عيناي ترمقهُ يغيب منذ أول لحظة فاغرورقتا بالدموع، احتضنتني أُمي ورفعتني من على الأرض، نظرتُ إليها:

- إلى أين ذهب أبي؟ من هُم أولئك الرجال؟!

* * *

البلاءُ العظيم

تِلك الليلة كانت مُظلمة!

رغم أن الفوانيس والشموع كانت تملأ المكان،

وكانت موحِشة!

رغم أن الناس يتوافدون على القرية؛ لِإحياء ليلةٍ من ليالي الطرب التي اعتادوا على إحيائها هُنا..

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

فها هم يملؤون المكان، يتسامرون ويضحكون، الدُّفوف مِن حولهم تُقرع، والمزامير تُعزف بصخَب، والراقصات يَدُرْنَ في أوساطِهم، وها هو زياد يُقدم إليهم كؤوس النّبيذ، وحتى الباعة وأصحابُ الدكاكين قد فتحوا بسطاتهم ونشروا بِضاعتهم وصاروا ينادون عليها كما لو أننا في وضحِ النهار، إنه التوقيتُ المقلوب للقريةِ المنكوسة!

نحَّيْتُ بصري جانبًا وسرحتُ بعيدًا عبر سنواتٍ طِوال..

وكأن هذا المشهد رغم تكرره ما زال يصدِمني ويُدهِشُني، ما زلت غير مُصدق.

إن الحياء لم يعد يجد طريقًا إلى القرية..

إنهم يُجاهِرون، أمام الملأ هكذا، تحت السماءِ مُباشرة دون خوفٍ يجعلهم يختبئون تحت الأسقف البالية؛ ليواروا سوءاتهم على الأقل، أنا لا أعلمُ أساسًا أما زالوا يعتبرون ذلك سيئة أم أن ذلك الميزان قد قُلب أيضًا؟

وعِندما أتكلم، أُصبحُ أنا المجنون الذي يهذي!!!

بينما كُنتُ أقفُ هُناك مشدوهًا، مر رجلان خارج أسوار القرية فاستوقفهما ما كان يجري، قال أحدهما:

- لا حول ولا قوةَ إلا بالله العلي العظيم، نعوذُ باللهِ من هذا البلاء الذي حط كطائرِ نَحسٍ على القرية وأهلها..

أجابهُ صاحِبه بتأسُف:

- لقد كان أتقياءُ الناس يتوافدون على هذه القرية للصلاة خلف الشيخ هادي وسماع خُطبته، وللالتحاق بدروسه العلمية، كانت مركزًا للعلم والتقوى، مَن كان يتوقع أن تنقلب لتكون مَرتعًا لِلَهو الشياطين ولعِبهم.

أكمل الرجلان طريقهما بينما بقيتُ أنا قابعًا في حديثهما ذاك.

لقد تألمتُ على النحو الذي سَعدتُ فيه لوجود أحد يفكر بطريقة سليمة، فأهلُ القرية يعتقدون أنَّ ما هم عليه تطورٌ وحضارةٌ وتقدمٌ!

إنهم يعيشون في الظُلمِ والظُلمات والجهل والفقر والفاقة ويقتاتون من مجالس الباطل التي يُحيونها ليلًا!

فأرضُ هذه القرية لم تعد تنبت بعد ذلك اليوم أبدًا، رمقتُ السماء بطرف عيني فهي أيضًا حبست قطرها ولم تعد تُمطر.

بينما كانت تهطل بغزارة في الليلة التي غادر فيها ليث وابن أخيه!

ولا أعلم أكانت تُشيِّعه أم تبكيه، لكنها قد أفرغت كل ما في قلبها آنذاك حتى أنهُ لم يعد لديها ما تمنحهُ بعدها، مُنذُ ذلك اليوم لم تُمطر أبدًا...

أربعون عامًا بلا ليث وهادي ونور وكوثر، أربعون عامًا بلا مطر!

***

ماريا

ما زال يُجبِرُنِي أبي على تفقُّد تِلك المزرعة الميّتة!

وكأنه لا يكفي أن أزرع وأسقي، رغم علمي أنه لن يُجدي نفعًا، متى يقتنع ألا خير لنا من هذه الأرض؟ متى يكفُّ عن تَعذيبي بعملٍ لا جدوى مِنه؟ فإنني أنصهرُ يوميًا تحت هذه الشمس!

دخلتُ إلى البيت وأنا أحمل على ذِراعي سلّةً مليئة بالأوراق الصفراء اليابسة وبعضها بُنيٌّ ذابل، وضعتها على الأرضِ بحَنَق:

- انظر يا أبي، حتى أن شكلها مُثيرٌ للشفقة! متى تُشفق عليَّ أنتَ وتُعفيني من الركض وراء شيء لن يحدث؟ فهذه الأرض لن تُنبت أبدًا، لا خير فيها يا أبي، لا خير سوى في تلك الشمس الحارقة التي تصهرني كل يوم.

- لا تقولِي هذا، فقد كانت هذه الأرض خضراءَ يانعة، ما الذي قد طرَأ عليها الآن لئلا تنبت؛ لا بد أنكِ لا تعرفين أمور الزراعة، لو لم تخُنّي قوتي لحَرَثْتُها بنفسي ولما اضطررتُ لسماع تذمُّركِ اليومي هذا.

- كانت يا أبي، كانت خضراء يانعة ولم تعد، حتى أنني لم أرَ الخضرة التي تَتحدث عنها مُنذ ولادتي، ثم إنك تتحدث وكأن الأمر يخصّ مزرعتك هذه فقط، إن القرية برُمَّتها ملعونة! هكذا يقولون، فهي لا تنبت زرعًا ولا تمطر قطرًا.

فجأة هاج أبي بغضب جعلني أقفز من مكاني فزَعًا:

- هـذا كلام الكـافر المجنون محمـد إيـاكِ والتّفوُّه بـه مرة أخرى، أسمعتِ؟

ما الذي قد يكون بينهم وبين محمد هذا، أشعر وكأنه عدو لِلقرية بأكملها، رغم أنهُ وحيدٌ ممّن ضُرِبت عليهم الذلّة والمَسكنة ورغم أن الجميع يتجاهلهُ إلا أن حديثهم عنه يُبطَّن بخوف أحيانًا.

أراهُ صامتًا، هادئًا، ولا أعرفُ بالتحديد لِمَ يُنعت بالمجنون؟ طالما راقبتهُ بِفضول ولكنَّ عينيَّ اللتين كانتا تُحيطانه سِرًّا لم ترَيا فيه سِوى الحزن العميق.

خرجتُ ذات يوم للقرية بشيء مِن الأرز واللبن؛ لأقدمه لمحمد الذي كان يجلس على الأعتاب في مثل هذا الوقت عادةً...

كُنتُ أفعل ذلك أحيانًا، أعني تقديم الطعام له، هذه المرة لم أجده فسألتُ صاحب الدُّكان المُجاور، أجابني بتذمُّر:

- وأين سيكون؟! تجدينهُ يبكي في منزلِ الأشباحِ كعادته.

أصابني نوعٌ مِن الفزع، همستُ:

- منزلُ أشباح! مِن أين يُمكنني الذهاب لمنزل الأشباحِ هذا؟

تركتُ الطعام على العتَبة بعد أن دلّني على الطريق وذهبت؛ لأُشبع فضولي وأجمع المزيد من القطع التي يُمكن أن تكمل لي الصورة المجهولة عن مُحمد والقرية وكل ما يجري، لأنني أشعر أن قريتنا مليئة بالأسرار الغامضة!

بينما كُنتُ أجدُّ في السّير توقفتُ فجأة؛ لأنني رأيته يخرج وعيناهُ مُتورّمتان، مَن يعلم كم بكى كثيرًا، مَن يعلم لماذا؟

ما إن ابتعد خطواتٍ حتى تراكض نحوه الصبية يتصايحون حوله: (محمد المجنون، مجنون، مجنون). شكّلوا حوله دائرة فوقف حائرًا كيف يخرج من بينهم وبين جلبتهم، كان وجهه يخلو من أي تعبير جرّاء ما يسمعه ويراه مِنهم.

تقدمتُ نحوهم أُقطّب حاجبيّ بغضب وصحتُ:

- هي، ما الذي تفعلونه؟! أما تستحون؟!

فرّقتُهم وجررتُ أخي ابن الـ13 عامًا وابن عمي ذا الـ10 أعوام وأنا أقرص أذن أحدهما وأضرب الآخر على كتفه:

- تعالا أنتما، أليس عيبًا ما تقومان به؟! أنتما الأكبر سنًّا هُنا أهذا بدل أن تنصحا الصّبية الصغار!؟

سِرت معهما في طريقٍ مُخالف عن الطريق الذي كان يذهب فيه محمد، وما إن تأكدت أنه دخل الزُّقاق الضيّق حتى عُدت أدراجي؛ لأتفقد بيت الأشباح ذاك كما يسمونه أهل القرية!

البيت كبيرٌ جِدًّا من الواضح أنه كان لِعائلة ثرية...

لمستُ جدرانه السوداء الرطبة، كم هي باردة، أكملتُ تجوُّلِي داخله من الواضح جِدًّا أن حريقًا ضخمًا كان قد التهمه فآثاره واضحةٌ جليّة.

راقبتُ تقسيمات الغرف وما إلى ذلك، مَن يعلم كم كان هذا البيت رائعًا قبل أن تلتهمهُ النيران ويهترئ بهجران أهله؟! يوجد جُزء خلفي شبه منفصل عن البيت تقريبًا يبدو كغرف تدريس!

ويبدو أن النيران قد اندلعت مِنه فهو أكثر تأثرًا، حتى أن جُدرانه تريد أن تنقض.

أدرتُ ناظريّ حول المكان، الكثير من المشاعر تحوم هُنا، أساسًا عِندما دخلتُ شعرتُ بأنني خرجتُ من القرية، فحتى هواء هذا البيت مُختلف وله رائحة عبقة، غريبٌ هذا؛ ألم تكن رائحة الحريق آخر ما لَصقَ به؟!

أكان محمدٌ يبكي هُنا؟؟ بيت مَن هذا يا تُرى؟؟ أكان لعائلته؟! أين هم؟ ما الذي حل بِهم؟ ولِمَ لَمْ يُرمّم أحدٌ هذا البيت ويسكنه؟ لم يتم تنظيفه حتى من آثار الحريق وغُباره!

يبدو أنّ مأساةً أليمةً حلّت هُنا...

* * *

محمد

عِندما عُدت لوسط القرية تمتمَ سعيد (صاحب الدكان المُجاور) دون النظر إليّ مُشيرًا إلى الطعام الذي عند العتبة:

- لقد تركوا هذا لك.

بعد أن انتهيتُ من تناول الطعام بِبضع دقائق ارتفع صوت الأذان، بدأ القليل جِدًّا مِنهم يدخل المسجد، دعاني أحدهم للدخول حيث إنني أجلس بالقرب فأطلقتُ ضِحكة ساخرة وقلت:

- الابن يَسقي السّكارى ليلًا، والأب يَؤُمّ المصلين نهارًا...!!

اعتلت وجههُ دهشةٌ غاضبة، كاد ينقضّ عليَّ وهو يقول:

- كيف تجرؤ؟! إنه الشيخ عبد الرحمن.

هدَّأهُ أحدهم:

- الذنب ذنبك ما كان عليك مُخاطبته، هيا إلى المسجد، هيا.

نظر إليَّ كما لو كُنتُ مخبولًا أو ناقِصَ عقل، هز رأسه بأسى ودخل المسجد، بينما نهضت لِأُتِمّ صلاتي في مكان آخر، بعيدٍ عن النفاق والرياء والشك والشُّبهة!

فرغم أن الشيخ عبد الرحمن كان أقرب المُقربين من الشيخ هادي إلا أنني لم أعد أثق بأحد ولا أطمئن لأحد، فإن السكوتَ عما يجري هُنا لهو أمرٌ غريبٌ مُريب وقد سكت الجميع!

* * *

هبط الليل وصار القمرُ يتلألأ في السماء مِن خارج نافذتي، أسدلتُ سِتارها وأرخيتُ رأسي على وسادتي البالية، رغم هذه الذاكِرة المُثقلة إلا أنني لم أشأ يومًا أن أهربَ مِنها ولا أن أُوقِف ذلك العَويل الذي يتردد صداهُ في داخلي..

عِندما تنزلِقُ من يديك يدُ صديقٍ كان في هذه الدُّنيا كل شيء ويضيعُ عنكَ بعيدًا فإنك ستبقى تُطارِدُ روحهُ كالشّبح!

إنني لا أراه لكنه يلتفتُ إليَّ في بعض أحلامي ويُعانِقُني، ثم يُفلِتُ مُجددًا ويضيعُ في غياهب هذه الدُّنيا.

كُنا قد تعاهدنا ألا نفترق أبدًا، وأن ندخلَ الجنةَ معًا.

ما زِلتُ أضع يدي على قلبي كُلما فكرت به، "نور، كم أفتقدك يا صاحِبي".

أغمضتُ عيني ومضيتُ نحو عالمٍ آملُ فيه لِقاء نور كما في كل ليلة!

❋ ❋ ❋

ماريا

كانت ليلةً صافيـة قد زيّن القمرُ فيها صفحـةَ السمـاء، تفقـدتُ الأبواب والنوافذ، أحكمتُ إغلاقها للمرةِ الثالثة فنحنُ نعيش في قرية لا تأمن فيها شرَّ اللصوص والقتلة والسكارى ليلًا، بينما أعيش أنا هُنا مع أخي الصغير ووالدي العجوز الضعيف المُصاب بالخَرَف!

بعد أن أطفأتُ القناديل توجهتُ لغرفتي أخيرًا، ودفنتُ نفسي وسط بطانيتي؛ لأستريح من يومٍ مُتعِب، سرعان ما تناهت إليَّ أصوات العِراك في الخارج؛ ولِأن هذا أمرٌ مُتكرر الحدوث انقلبتُ على جنبي بتضجّرٍ وأنا أدُسّ رأسي تحت الوِسادة مُتمتمةً بشتائِم عِدة؛ لأني أعلمُ أن مُحاولتي لِنوم هانئ هذه الليلةَ أيضًا ستطول!

....

خرجت صباح اليوم التالي وإذ بجميع القرويِّين في حالةٍ يُرثى لها،

لم أستطع التحديد أكان الطاعون مُجددًا أم أنهُ الجوع ونقصٌ من الثمرات،

فكل هذه الأشياء كانت تدور حولنا باستمرار لكنها الآن اجتمعت علينا!

فقد كان الجميع يشكو عدم وجود الخُبز!

فمحاصيلُ القرى المُجاورة بالكاد تكفي أهلها.

وسط أنين الكبار تعالت صيحاتُ الأطفال، الأُمهات لم يعدْنَ يستطعن إسكات بطون أطفالهن الجائعة.

كثيرًا ما مررنا بمِثْل هذه الضوائق وبقينا جائعين لأيام طِوال، فالرزقُ البعيد لا نستطيع نيله حتى لو توفر المال أحيانًا.

الرزق بركةٍ أكثر من كونه قِطعًا نقدية! ما المتوقع حصوله حين تغيب البركة؟!

وبهذا كانت الأمراض تحوم حولنا باستمرار وتتصيد فرائِسَ سهلة..

أيضًا حضر هُنا محمد..

كان يحوم كما لو كان نذير شؤم في أوساط القرية وردد مُجددًا كلماته تلك التي تُفسِّر حالنا:

- جوعكم ليس طبيعيًّا. فقركم ليس طبيعيًّا. أمراضكم وموتكمُ، الكثير ليس طبيعيًّا. إنها لعنة! لعنةٌ تُرافِقكم فأفيقوا وتوبوا إلى الله مِن ذنوبكم، افتحوا عيونكم فإلى متى تبقى هذه الغِشاوة؟!

اعترضه رجل في الستين بغضب، وحيث إنَه كان يحاول إسناد قريب له مِن المُتعبين الذين ألقوا بأجسادهم على الطرقات نهض نحو محمد كالعاصفة وهو يصيح بغضب:

- أنت، إلى متى ستبقى تَهذي؟ اذْهَبْ مِن هنا، فالناس ليسوا بحال يسمح لهم بسماع تُرَهات المجانين.

وعِندما لم يتحرك محمد ولم ينبِس ببنت شفَة، تأفّفَ الرجل بغضب وراح يُشيح بوجهه علّ غضبه تجاه محمد يهدأ، بعد ثوانٍ التفت نحوه بجدية وسأله:

- ما الذي تسعى إليه يا محمد؟ قل ماذا تريد بأذيّتك المُستمرة وتُرَهاتك التي تتزايد كل يوم؟

- إنني أُريدُ حياةً جديرة بالحياة، حياة سوية يستطيع الجميع فيها العيش على الفطرة السلمية، أريد أن ينتهي هذا الفقر وهذه الأمراض

وكل هذه الابتلاءات المُخيفة التي تنذر بشؤم في أعالي السماء ولكن لا تشعرون، بالإيمان وحده نستطيع أن نتخطى كل شيء ونتحدى العقبات ونتجاوز الكوارث، وقبل ذلك يجب أن نُوفق للتوبة وكي نتوب يجب أن نعرف ذنوبنا ونُقرّ بها.

أطرق محمد رأسه بنوعٍ من الأسى واستطرد قائلًا:

- إنني بتِلك التي تسمونها تُرّهات أُحاول مُساعدتكم وإنقاذكم!

تقدم الرجل نحوه بحنَق شديد وقد عضّ على نواجِذه غيظًا، مد يده؛ ليعتصر بها ذقن محمد وهو يقول:

- ما عليكَ سِوى إغلاق فمك؛ لِتُنقذَنا.

***

بعد أحاديث مُحمد المُتكررة وربطه لحالة الناس وما يجري عليهم بما يفعلونه وبالطريقة التي يسترزقون بها، توجه مجموعةٌ مِن الناس إلى الشيخ عبد الرحمن وطلبوا مِنه فتوى صريحة لما يحدث.

الشيخ عبد الرحمن هو أكبر مشايخ القرية يُحبه الجميع ويرونه رجلًا صـالحًا مؤمنًا وتقيًّا، وأيضـًا هو يتفهم أمور الناس الاجتماعية ويهتم بالحضارة.

- لقد أُمر الإنسان بإعمار الحياة من جميع نواحيها ومن أجل هذا قد أتى أساسًا، وها نحن نطورها ونعمرها ولو أطعنا محمدًا لبقينا على عهد

آدم البِدائي، هؤلاء أناسٌ يسترزقون ليطعموا أطفالهم بعملهم هذا، العملُ شيء والدينُ شيءٌ آخر، ما في قلب المرء أهم بكثير مما يجري على جوارحه، فلربما كانت قلوب السكارى أنظف من قلبك أيها العاكفُ في المسجدِ ليلًا ونهارًا...

هذا ما قاله بعدما استفتاه الناس فيما يقول محمد، بعد خروج الجميع ثار زياد غاضبًا وهو الابن الأصغر للشيخ عبد الرحمن.

- المجنون اللعين يُحرّض الناس ويكاد يُقنعهم أيضًا، ألا ترى يا أبي أن بِضع كلماتٍ منه أتت بهم إلى هُنا طالبين فتوى!!!!

نهض الشيخ عبد الرحمن مِن مكانه وهو يقول سارحًا:

- ليست بِضع كلمات منه يا بُني بل عقولهم أتت بهم إلى هُنا.

- أنت تعني أن مجنونًا قد تحكّم بعقولهم؟

- أتصدق أنت كلامك هذا؟!

- أيّ كلام؟

- محمد ليس مجنونًا، إنهُ عاشِقٌ حزين، فاقدٌ حيران! أجل لربّما أبقى فقده لهادي وعائلته بعد فقده لوالديه على نفسه أثرًا كبيرًا، لكنهُ لم يفقد عقله!

- لقد حاولتَ احتواءه يا أبي، أنت لم تقصّر! أخذته وجعلته واحدًا منا لكنه لم يقبل بالبقاء معنا وبقي يتهرب حتى نسيَ طريقه إلى هُنا وتاه

في الطُرقات كالمَخبول! عمومًا فأمرهُ لا يهمني، ماذا سنفعلُ إن نجح في إقناع الناسِ مُجددًا وأثّر فيهم؟!

- لا تخش ذلك، حتى ولو أثّر فمِن أين سيأكلون؟! يُريد الجميع أن يعيش الحياةَ التي يراها ويؤمن بها، لا الحياة التي يراها مُحمد ويدعو مِن أجلها ونحن بِدورِنا مُجبرون على أن نُسهل لهم سُبل الحياة.

ابتسم زياد براحة وهو يهز رأسه ويُثني على والده:

- بارك الله فيك يا أبي!

بعد افتراق زياد عن والده دخل عليه أخوه الأكبر مروان وقال وهو يسرحُ بِخبث:

- أنا لا أعلمُ لِمَ لا تتخلصُ من الكافر الزِّنديق ذاك؟! أنتَ لا عليكَ بما يقولهُ والدي فمحمد هذا حقًّا يُشكِّل خطرًا كبيرًا، عمومًا عليك بِمراقبتِهِ جيّدًا، لا تغفل عنهُ للحظة.

أوصاهُ ذلك جيدًا وبحذر.

* * *

ومِن جانبٍ آخرَ في القرية كانت هناك جماعةٌ مِن الرجال المُتعصّبين يُطلِقون عليهم (جماعة الشيخ هارون) يُعْرَفون بانتمائهم ومحبتهم لشيخ في القرية ثائر ومتعصب للحق لكنه لا يخرج من داره كثيرًا وحركته تقتصر على جماعته فقط، كانوا مجتمعين لِيتوعّدوا ويخططوا، قال أحدهم:

- لقد حان الوقت لنضع حدًّا، فالأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر واجب، علينا إزالة المُنكر كله من الوجود.

أجابهُ آخرُ بِعصبيَّة:

- يجب أن نقتل كل هؤلاء الفسَــقة الفجّار، لن ننتظر أن يُنزل الله غضبه علينا جميعًا.

أبدى الثالث رأيه:

- أجل، لكننا نحتاجُ لِخطة مُحكمة ونحتاج موافقة الشــيخ هارون ورأيه؛ لنبدأ حركتنا.

- هذا مؤكد، سنُرتب لنا لِقاءً خلال هذا الشهر.

***

مُحمد

لا أحدَ هُنا يعرِفُ الله ويتصل معه على النحو الذي كان عليه الشيخ هادي، أهلهُ فقط، كانوا كذلك، لم يُبقوا منهم باقية.

إنني أُحاوِل التّلصُّص على الشيخ عِمران؛ لأنهُ تلقى دراسة مُباشرة مِن الشيخ هادي، ولو لِفترة وجيزة وذلك ريثما يعود نور الذي أثِق بعودته وأثِق أنهُ الشخص الوحيد الذي سيكون هادي زماننا.

يعامِلني الشيخ عِمران بطيبة وتواضع وكنتُ أمرُّ عليه للجلوس معه ومحادثته لم أكن أُريد أن يُقطع الاتصال بيننا فهو عزائي هُنا.

عِند جلوسي على تِلك العتبة مُجددًا في منتصف القرية جاء أحدهم حاملًا الطعام ليتصدق به عليَّ!

لكني رفضته! كغيره الكثير، فأنا أعرف ممن سآخذ صدقتي وعلى مَن سأؤمن لُقمتي، طبعًا لم أكن لأقبل من الجميع؛ فما أكثر أموالهم المحرمة!

صاح سعيد صاحب الدُكان المُجاور:

- دعه وشأنه، لا تُتعِب نفسك...

أكمل وهو يقول بضحكة ساخرة:

- فهو ينتقي الصدقات أيضًا ولا يأخذها من الجميع.

هُناك من بعيد، كانت في الطريق إليَّ فتوقفت عند سماع ذلك ولم أكن قد انتبهت لها.

وكأن الجمود أصابها، تقدمت نحوي ووقفت فوق رأسي، شعرت بالظل الذي يغمرني فرفعت بصري إليها مستغربًا وقوفها المَشدوه هذا؛ فكم كانت تنظر بدهشة وفي يدها طبق الطعام!

قطعت صمتها قائلة:

- أكُنتَ تقبلُ الطعام مِني فقط؟!

- أنتِ والقليل..

- لماذا؟

- أنا لا آكُل شيئًا مُحرّمًا!

- وما يُدريك أنهُ حلال؟!

قالت ذلك وهي تُشير بعينيها إلى الطبق الذي في يديها بتعجب!

أغمضتُ عينيّ ورمشتُ بها مُبتسمًا وأنا أقول:

- أعلم.

تلفّتت حولها في حيرة أو رُبما كانت تود التأكد من أن أحدًا لا يكون شاهدًا على حوارنا، وضعت الطعام أمامي وجلستْ على رُكبتيها، همستْ وهي تنظُر في عيني:

- أريدُ أن أعرِف تاريخ هذه القرية وسِرّها لكنْ، أحتاجُ أن أصدق أنك غير مجنون كما يقولون.

- ماريا، هو اسمكِ أليس كذلك؟

- أجل، أنا ماريا.

- ما هو الجنونُ برأيك؟

أجابت بِحيْرة وهي تُحدق في السماء كما لو أنها تبحثُ عن كلمات:

- شيءٌ، ليس كما أنتَ عليه.

- إذًا تثقين بكوني غير مجنونٍ؟

أجابت في تردد:

- ليسَ تمامًا.

- حينَ تثِقين سأكونُ مُستعدًا لإخبارك بكل شيء، كما كُنت أحدّثُ بِه على الدّوام.

ماريا

بعد أن نهضـتُ مِن أمام مُحمد وتوجهتُ لطريقي سـمِعتُ شـيئًا أدهشـني، حيث كان أحد الرجال يُحدّث ذلك الذي قدم الصـدقة قبل قليل فرفضها محمد:

- إن مُحمدًا هذا خدّاعٌ مكّار؛ إنني أراه يداوم على العمل كل يوم خارج القرية، ومع ذلك يتخبط في الشوارع كالمسكين ويأكلُ الصدقات، أين يذهب بالمال الذي يكسبه يا ترى، هذا عجيب؟!

بقيتُ تِلك الليلة أفكر فيما سمعتُه فقد أخذني مقدار كبير من الفضول؛ لمعرفة السبب الذي يجعل محمدًا يقوم بذلك، لماذا يضطر لأخذ ما يبقى من طعام الناس؟ ولماذا يعمل إذن؟ أتصرُّفه هذا؛ لأنه مجنونٌ فعلًا؟!

....

في اليومِ التالي عِندما ذهبتُ بِرفقة أخي هشام؛ لأجلب الماء مِن الجدول القريب، في طريق عودتنا.

سمعنا صيحةً مُرعبةً كان صداها يأتي مِن كل الاتجاهات في القرية، كان الصوت لرجلٍ باكٍ.

(ويلكم مـاذا فعلتم؟! لقـد قتلتم سـيدكم، قتلتم الرجلَ الـذي أنقذكم).

كُنتُ أمسك بدَلو الماء جيدًا؛ كي لا تَخرّ من بين يديَّ المرتجفتين، كان منظر محمد وهو يقف وسط القرية مُخاطبًا أهلها بِهذا الكلام رهيبًا اقشعرَّ

له بدني، لا زِلتُ أحدق ناحيتهُ بينما استطاع سؤالي أن يتبعث أخيرًا من بين شفتيَّ بعد أن أضحى همسًا:

- ما الذي يجري هُنا يا هشام؟

أجاب أخي وقد بدا مُرتاحًا على نحو غريب بعد أن أطلق ضِحكة هازئة:

- كُنتِ تتساءلين لِمَ يَنعتَوه بالمجنون؟ لأنَّ هذه إحدى طقوسه!

التفت إليَّ مُكملًا حديثه:

- أرجو أن تكوني قد اقتنعتِ الآن.

- أتعني أن هذا عادي جدًا؟ أحقًا يفعل ذلك بِشكلٍ مُكرر؟

عقدتُ حاجبيَّ حين كُنت أدقق النظر في ما يجري من بعيد، عاد مُحمد يكرر صيحته باكيًا: (ويحكم ماذا فعلتم؟!! لقد قتلتم سيِّدكم، قتلتم الرجل الذي أنقذكم، تِلك دِيارهمُ خالية، لم يعد يسكُنها حسيسهم ولم تعد تطلع هُنا شموسهم، لهذا حلَّ الظَّلامُ عليكم).

تقدم أحدُ الرجال الغاضبين؛ لينكزَه بعنف ويرميه أرضًا وهو يصرخ في وجهه بقلة صبر:

- أووه، كُفَّ عن هَذيانك أيها المجنون ألم تكتفِ مِن هذا العويل بعد؟ أي سيد لنا قد قتلنا!!!! هيَّا انصرف ودعنا نُكمل أعمالنا قبل حلول المساء.

مسح محمد الدم عن طرف أنفه وهو يضحك بِسخرية:

- المساء طبعًا، المساء!

عاد لينهض بقوة وهو يصرخ بغضب مُخاطبًا الجميع:

- عملكم ومصدر رزقكم، العفَن الذي تأكلونه وتَقتاتون مِنه دون خوفٍ مِن الله أو خجل، إنكم مساكين لا تملكون كشفَ الضر عنكم، ولا تتفكرون حتى فِي سبب وقوعكم في هذا البلاء، لم تجدوا ما يخرجكم من فقركم سوى الشيطان! فزدتم بلاءكم بلايا ورزايا ثم ضربتم بدين الله وشريعته عرض الحائط، وقلتم إن هذا حضارةٌ مُتقدمة! أهكذا تُبررون؟! أصبحَ كُلّ فاسِق يأتِي لهذه القرية، ومن وراء ذلك كُنتم تأكلون، أربعون سنة أنبتُّم لحومكم على الحرام وما كبّرتم كروشكم إلا بالنيران...

هزَّ رأسهُ بأسى شديد وهو يُتمتم:

- لقد فسقت هذه القرية تمامًا وأنتم فِي غمرةٍ تلعبون..

لم يكن حديثهُ يُشبهُ حديثَ المجانين، فأنا لي عقل أستطيعُ التميز، وقد تأثرتُ حقًا بكلامه فقد كان هُناك يقفُ حزينًا كما لو كان الوحيد الذي يُبصر الحريق بين مجموعة من العُميان أو كما لو كان البشري الوحيد بين مجموعة وحوش وحيوانات، في عينيه دمعة حمراء تشتعلُ كالجمر، مَن هو ذلك السيد الذي قتلوه يا تُرى؟!

قال أحدهم:

- ما الذي تُريد قوله يا مُحمد أي بلاء ذاك الذي أحاط بِنا؟

- أريد أن أقول إن سماءكم المُمتنعة بلاء! وأرضكم الميتة بلاء وفقركم وجهلكم بلاء! وبدل أن تبحثوا عن تِلك الذنوب التي أنزلت البلاء لتستغفروا منها عالجتم الأمر بذنوبٍ أكبر ورحتم في طُغيانكم تعمهون.

عاد يجهشُ باكيًا:

- قتلتم الشيخ هادي وأقصيتم عائلته.

فجأة بدأ البعض يقول ساخرًا:

- وأنت تعني أن كل ذاك البلاء قد حلَّ بنا؛ لأنَّنا نحن مَن قتلنا الشيخ هادي صحيح!!

بدؤوا يضحكون جميعًا ويتفرقون عنه بإهمال.

- أعدكم يا أهل هذه القرية بأنّ (نور) عائِدٌ مُنتقمٌ مِنكم جميعًا، لن يبقى للمجرمين هُنا أثر، سيأتي، سينتقم، لن يتركَكم تنجون بِفعلتِكم.

كلُّ مَن تفرَّق عنه قبل قليل قد عاد وأبرحهُ ضربًا بعد جملتهِ تلك.

لقد اختفى تحت أقدامهم فالكل يضرب ويركل ويسحق ذلك الرجل مِن أجل حُزنٍ بقي في صدره وكلماتٍ أغضبتهم!

وقعت الدلو من يدي وكنتُ أصرخ؛ ليتركوه، تفاجأ أخي وأخذ يجرني قائلًا:

- لا شأن لنا فلنعد أدراجنا.

سحبت ردائي الذي كان يجرني منه وأنا أقول بغضب:

- أيقتلون الرجل ولا شأن لنا...؟

صِحت فيهم بعد ذلك:

- إن كُنتم تقولون أنهُ مجنون ولا تأبهون لِكلامه فلِمَ تضربونه؟! إن كان ما قاله صحيحًا لدرجة أنهُ أخافكم فأخبرونا؛ لنعرف أصل الأمر أيضًا.

حلَّ صمتٌ مُربكٌ على الشارع وللحظة كان حفيفُ الأشجار هو ما يقرعُ السكونَ فقط.

وعِندما تفرقوا عنه لم أعرف أأُمسِكُ بِأذيالِ أحدهم؛ لأسأله عن الأمر وأصلِه وسبب هذا التهجّم الفظيع أم أعود لِأُسند محمدًا وأُعاين جراحاته وأساعده على النهوض؟ لكن الجميع أفلت وهو قد لملم نفسه ونهض يجرُّ وراءهُ أذيال التوجع والألم وفِقدان الناصر وقلة الحيلة.

وبعد كل ذلك فإن فضــولي لمعرفة تِلك الأسرار أضــحى إصرارًا شديدًا.

***

مُحمد

نهضتُ والألم ينهشُ روحي، توجهتُ لداري والنشيجُ يؤلم أضلعي، فالموتُ شيء يُمكن تقبله في النِهاية. قد تبردُ حرارته مع السنين، لكن للقتل جمرةٌ لا تنطفئ أبدًا...

حين تعي أن أحدهم سرق فقيدك مِن حياته ومِنك وقد كان مِن الممكن أن يعيش الآن لو لا ذلك فإنك تفقدهُ مُجددًا وفي كل لحظة ولا تكتفي مِن التّحسُّر والعَويل!

فتحت المصحف لأقرأ سورة يوسف فأنا طالما كُنت أجدُ في حُزن يعقوب وشوقه عزاءً لي ومواساة لِحُزني واشتياقي لصاحب أمري، كثيرًا ما شبّهتُه بِحالي..

صعدت لسطح الدار عِندما أرّقني الألم، فرُحتُ أتأمل في السماء والنجوم في هذا الكون العظيم.

إن نورًا ما زال يتنفّس، أثقُ بذلك، جَذبت آهة عميقة لصـــدري ورحت أحدِّثه في خلدي:

"نور، يا عزيزَ فؤادي.

لا زِلتَ موجودًا في مكانٍ ما مِني، لم تفترق عني!

لكنني أشتاقُ إليك اشتياق يعقوب إلى يوسف، فقد تركتني وحيدًا هُنا وغِبتَ في غياهبِ الدُّنيا طويلًا، تألمتُ كثيرًا وعِشتُ أيامًا سوداء وافتقدتُك روحي وتاهتْ في طُرقاتِها رسائلي إليك وانقطع كُل شيء.

تمنيتُ عودتك كثيرًا لكن الحظ لم يُحالِفني أو أن نفسي خانتني. أُفكرِ أحيانًا أُتراني صادفتك ولم أعرِفك!؟

لكن ذلك مُستحيل؛ أنا لم أنسكَ وأعلم أنك لم تكن ناسيني، إلى الآن وبعد كل تِلك المسافات ما زِلتُ أنتظِركَ".

* * *

بعد عِدّة أيام..

أصبحت القرية على مُعضلة جديدة وليس ذلك بجديد، فقد قامت مُشاجرة عنيفة بين مجموعة صبية شباب أسفرت عن مقتل خمسة منهم، كان الناس في ذُعرٍ وذهول أمام ذلك المنظر المروع المؤلم وبينما هم في حيرتهم أمام الجُثث وكل منهم ينعى واحدًا أو يندُب طالع هذه القرية السيِّئ جِدًّا.

هُنا قال مُحمد بينما كان يدور حولهم:

- سيعود حتمًا، أنا أؤمِن بذلك سيعود إلى هذه القرية؛ لِيُعيد لها الحياة، لِيُنقذكم جميعًا تمامًا كما أنقذكم جده من قبل.

تمتم بعضهم:

- بدأ يهذي مُجدَّدًا..

- إنهُ يهذِي حقًّا لقد جُنَّ تمامًا.

بينما اكتفى آخرٌ بهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال، وصاح آخر بغضب:

- اخرس أيها المجنون إن كان نور ذاك حيًّا حقًّا وسيعود؛ فإنهُ سيعود لِيُفنينا عن بكرةِ أبينا وليس لِيُنقذنا كما تزعمُ أنت.

أطلق مُحمد ضحكته وقال:

- لا تعرفون نورًا، فقلبه يفيض بالحنان كما لا يوجد في قلب أحدكم على الإطلاق.

....

وهكذا كان الجميع يعتقد بأن عقل محمد ليس في مكانه تمامًا، فالكلمات التي يُرددها دومًا وفي كل ظرف أكان مُناسبًا أم لا، وتصرفاتهُ الغريبة وهذيانه المستمر حول الأمور ذاتها كان دليلًا قاطعًا...

وذات ليلةٍ، بعدما هدأت الأصوات ونامت العيون ولم يعد صوتٌ يدوي في الفضاء سِوي نُباح الحيوانات وعُوائها، كانت خطوات مُحمد مُتجهة إلى مكانٍ بعيدٍ شبه مهجور وحيث لم يكن يُدرك كانت خطوات أحدهم تتبعهُ بحذر.

دفع الباب الخشبي بكفه ودخل إلى ذلك المكان الغريب ونزل مِنه لِسرداب عميق وتِلك الخطوات المُتعقِبة لا زالت في إثرِه.

وقف أخيرًا وأشعل قنديلًا؛ لِيُسفِرَ عن مُستودع يحوي كمًا كبيرًا من مُعدات الحرب، سيوف وسِهام ودروع، صار يدور في المكان أوّلًا، ويتحسس المعدات بأطراف أصابعه ويبتسم ومن ثم تعود ملامح الحُزن لتغزو وجهه فيقول:

"إنني أعلم أن ما جرى عليك يفوق كُل أوجاعي، وإنني لأتألمُ والله لما أصابكم!.

وحتى أن دموع حُزني لا تكف إلا أنني أسامُ وأضجرا

فحتى متى وإلى متى ستبقى مُتواريًا؟ أفلا يُمكنك إظهار نفسك لي أنا على الأقل؟!

إنني أغرق هُنا بينهم وأنتهي بينما تقف أنت مكتوف اليدين، ألم يحن ذلك الوعد يا صاحبي؟

إن هذه الليلة مِن أسوأ ليالي الحنين إليك، مَصحوبةٌ بالجزَع!

فالصبر قد ملَّ مني...

أين أنت؟! اخرُج إليَّ هذا يكفي. فلنقلب هذه القرية رأسًا على عقب،

لنثأر لنا. هيًا فقد جهّزتُ كلّ شيء، متى ستأتي؟ متى ستُريني نفسك على الأقل؟".

انهار باكيًا بعد أن تمكنت مِنه تِلك الهواجس التي يكرهها ويخشاها..

"لقد تأخرت كثيرًا فأنا على وشك التصديق بأنك لن تأتي فلو كُنتَ آتيًا لرحمت حالي وأتيت".

خرَّ بعد تِلك الجملة باكيًا مُعتذرًا ولوهلة أحسّ بِذلك الظل يقف فوق رأسه فرفع ناظريه بِحذرٍ شديد..

(2)

البِداية كانت مِن الرّمَقِ الأخير!

620 هـ

كان يا ما كان، في قديمِ الزمان...

كُنتُ في السماء، بعيدًا من بين الغيوم المتراكِمة أرى بُقعةً مِن الأرض تُغطيها الأشجارُ الكثيفة، في وسطها كأني بِقريةٍ بعيدة! بعيدة عن كُل خير!

كانت هذه القريةُ تعيشُ في جهلٍ وضلالٍ، فرغم الخيرات المُحيطة بها إلا أن أهلها كانوا يعيشون فقرًا مُدقعًا؛ لجهلهم وسوء تدبيرهم، كانوا مساكينَ ضُعفاء!

وكم عانوا في سنواتهم من قلّة الخيرات ومن الصراعات المتتالية التي لا تكاد تنتهي حتى الآن،

لم يكن السَّلام يمرُّ أبدًا عليها،

وذات يومٍ هجمت مجموعة كثيفة من عَصائب مجهولة على أراضي تِلك القرية، واشتد الصِراع بينهم وبين أهلها،

أهلها الذين لم يجدوا بُدًّا مِن التكاتُفِ وقتها!

وقفوا لأول مرةٍ رُبما في صفٍّ واحد، ضِد نهب أملاكهم واستِباحة أعراضهم وسفك دمائهم!

كانت تِلك العصابة ذات بأسٍ شديد، كانت وكأنها لن تتركهم أبدًا، ستكون القاضية هذه المرة وبعد ساعات لن يبقى هُناك ما يُسمى بالحياة ولا بقرية التلّة!

ورغم أن النِزاعات كانت بين أهل هذه القرية أصلًا كثيرة إلا أنهم الآن في أشد حالاتِهم سوءًا وضعفًا وخوفًا.

كانت تِلك اللحظات حسرةً في قلوب القلة الذين كانوا يرجون صلاحًا لها، فعلى ما يبدو أنها ستنتهي قبل أن ترى وجهَ النور أبدًا.

فمهما تكاتفوا لم يجِد ذلك نفعًا، أولئِك المساكين قد قُتلوا وقد نُكِّلوا والكثير مِنهم قد أُثخِن بالجِراح.

أيُسعِفُ أحدهم الآخر أم يدافع عن تِلك البيوت المليئة بالنساء والأطفال!

أيُطفِئ ذلك الحريق أم يصد ذلك الهجوم...!

عِندما وقف القليل المُتبقي مُتحيرًا هكذا وينظرُ لِموطنِه وأهلِهِ وكأنها النظرة الأخيرة، خُفِضت أكتافهم وخرت من بين أيديهم أسلحتهمُ تِلك التي كانت تُدافع على الأقل! لقد لاحت لهم الهزيمة وكادوا يستقبلون الرحيل والنهاية...

لا بُد مِن ذلك، فالاستسلام مُقدمًا قد يكون أخف عِبئًا على أُناسٍ مِثلهم!!!

لم يكن بينهم شُجاع يسير نحو الموت قصدًا بمواصلة القتال دِفاعًا عن أرضه، لم يكن بينهم مَن يرى الذل والهوان في الاستسلام ويرفضه!

بينما هُم كذلك يُجاذِبون أطراف الهزيمة أقبَلَ عليهم،

يمتطي صهوةَ جوادِهِ، وقلبه يُرفرفُ بالحُبِ والشوقِ لهذا البلد...!

البلد الذي غادرهُ مُنذ سنين وها قد لحِقهُ الآن، لكنهُ ينهارُ ويذهب كما ترى عيناه لا كما يرى فؤاده أبدًا فقد كان كعادتهِ مُفعمًا بأكبر الآمال الجميلة، مُحياهُ لا زال يبعثُ التفاؤل للنفوس اليائسة المسكينة،

كان بهيّ الوجه طويل القامة عريضُ المَنكبَين، يبدو كحاكِمٍ نبيلٍ لهُ هيبة لا يُستهانُ بِها وحضور قوي يجعل الكل مشدوهًا أمامه.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

وفي الرمقِ الأخير كانت لهمُ بِدايةٌ معه.

العيون كانت تُراقِبُ تفاصيلهُ الهادئة بكثيرٍ من التأمل وما خاب أملُها..

فقد ألقت نظرتُه تِلك السكينة والشجاعة في قلوبهم وعادت السيوف إلى أيديهم وكأنها كانت تحملهم لم يحملوها!

قد قاتلوا بمَعيّته، بزعامته وبقيادته حتى الانتصار،

وانجلَت تِلك الغُمَّةُ عن هذا البلد وتوقفَ كُل شيء، النِزاعُ والصِراعُ...!

توقف كُل شيء، إلا الغيوم تزاحمت وتراكمت وتعانقت فأمطرت!

ومُنذ متى لم يمرّ ها هُنا المطر...!

كل العيون تُراقِبهُ، كل العيون تبتسم له وتُرحّب به! كلُّ القلوب تهافتت عليه وهوت إليه،

جميلٌ هو كالمطر...!

بل أجملُ بِكثير وكانت تِلك الأكفّ التي تُربّت على كتفه وتِلك الصدور التي تُعانِقهُ تحمدُ الله على نِعمة قدومه،

وكأن تِلك الأرض التي تتراقصُ عليها قطراتُ المطر النقية تحمد الله على عودته الكفيلةِ بإسعادها أعوامًا وأعوامًا.

كان عُمرها الجميل وحظُّها الوفير وسيدُها الذي انتشلها مِن عُمق الألم؛ لِتضحكَ مِن جديد،

فكانت تِلك دعواهم أنْ يا رب أمطِرهُ سعادةً ورِضا مِنك لا ينتهي..

.

.

.

"الشيخ هــادي"

أقبل كالغيث.

الرجل المهيب الذي كان قد غادر مُنذ زمن إلى مكانٍ بعيد ليَنهلَ مِنهُ عِلمًا وحِكمة ويَتتلمَذ على أيدي كِبار العُلماء!

ها قد عاد في وقتِهِ تمامًا، وأنقذ مدينته وأهلها من الهلاك، تقدم إليه صاحبه:

- عُدتَ أخيرًا!

يبتســمُ بِملء فمه وهو يتخطى الزِّحام حوله ويمســح بكفه على أكتافهم:

- عُـدت، عُـدتُ ولـديَّ الكثير من الآمـال بخصــوص القريـة، بخصوصكم جميعًا، أعدكم سيتغير كل شيء إلى الأفضل يا أصحابي.

....

بعد ساعات وحين اقترب وقت صلاة المغرب طلب الشيخ هادي من صاحبه عُثمان وهو عُمدة البلد أن يُرافِقه إلى المسجد فبدا الارتباك على مُحياهُ لكنه امتثَلَ بِمرافقتِه...

عِندما وصلا بدت علامات التعجب على وجهِ الشيخ هادي وهو يرمق جُدران المسجد من الأعلى إلى الأسفل فالتفت إلى صاحبه:

- كم يبدو المكان مهجورًا، ألم تعودوا تصلون هُنا؟ أين هو المسجد الجديد إذن؟!

بينما كان العُمدة يُحاول إيجاد الكلمات بخجل وإذا ببعض الأفراد يدخلون إلى المسجد! فيلتفتُ هادي ناحيتهم باستغرابٍ ثم يعود مُخاطبًا لصاحبه:

- لكن، لِمَ هو مُتهالِكٌ هكذا؟ حتى القنديلُ مُطفأ؟

أشار ناحية الأرض وهو يَستأنفُ حديثه:

- المكانُ مليءٌ بالقاذورات هُنا.

هز رأسهُ أسًى وبادرَ مُسرعًا بإشعال القنديل أمام المسجدِ على الأقل ومن ثم انحنى يرفع الأوساخ من الأرض فحاول العمدة عُثمان ومن كان هُناك من الرجال تداركَ الأمر قائلين:

- ماذا تفعل يا شيخ هادي، اترك، ولْيَقُمْ بعض الصّبية بذلك.

نظر إليهم وعاد يُكمل ما يفعله وهو يقول:

- لو كان أحدهم سيفعلُ شيئًا لفعل قبل الآن بوقتٍ طويل، لا بأسَ أنا أقومُ بِذلك.

انحناءُ رجلٍ كالشيخ هادي؛ لالتقاط الأوساخ وإزالتها أوقف الجميع مُتفرجًا لوهلةٍ من الدهشة!

فِعل هذا مِن قبل رجلٍ بهيبتِهِ ومكانتِه الاجتماعية السامية كان سهمًا أصابهم بالخجل الشديد، فوق أنهم لم يكونوا يملكون مُبررًا لترك مسجدهم بهذا المظهر، ثوانٍ قليلة وإذ بالجميع يهرول نحوه ويُشاركه فِعله.

اشتغل الكُل بتنظيف المكان حتى أحدث ذلك فرقًا كبيرًا في واجهةِ المكان، ارتفع صوتُ الأذان فأسرع الشيخ هادي؛ ليتوضأ، وعِندما فرغ طلب منه الرجال أن يتقدمهم فيُصلي...

كبّر وارتقى بِقلبه إلى الملكوتِ الأعلى؛ ليدخل في الصلاة.

وبعدما فرغَ من صلاته وبدأ الناس يُغادرون كان يمر بِكفه على الكُتب والمصاحف التي كانت مصفوفة على الأرفف؛ ليلهو بها الغُبار ليس إلّا،

تناول أحدها فبدأ يمسح الغُبار بيديه، وبعد ساعة حيث بقي وحيدًا في المسجد كان قد انتهى من إزالة التُّراب عن جميعها، تَمتمَ وعلى ثغرهِ ابتسامةٌ: "سأُحْيِيكُم جميعًا، لن يمر الغُبار عليكم مُجدَّدًا".

تقدَّم وعلَّق القناديل على كُلِّ حائط، ثم أخذ يصب الماء أمام بوابة المسجد ويغسل المكان، كان الجميع قد آووا إلى بيوتهم بينما لم يُغادر هو المكان هذا حتى جعله كالجنة!

....

كان ذلك قبل أربعينَ عامًا، حينها كُنت في السادسة من عمري، كُنتُ أعيش مع والديَّ، استيقظتُ ذات صباحٍ على بكاءِ أمي وصياحِ الرِّجال في بيتنا، كان أبي يُقادُ من أولئك الرجال بعنف، هرولت إليه مُسرعًا وتعلقتُ بثوبهِ باكيًا:

- أبي!

لم أُكمل كلِمتي، دفعني ذلك الرجل أرضًا وخرجوا بِسرعة البرق، خرجوا وغاب والدي وأشرع في غيابه.

كانت عيناي ترمقهُ يغيب منذ أول لحظة فاغرورقَت عينايَ بالدموع، احتضنتني أُمي ورفعتني من على الأرض، نظرتُ إليها:

- إلى أين ذهب أبي؟ من هُم أولئك الرجال؟!

ازدادت دموعها وأطبقت جفنَيها وكأنها تعلم بالمصير المُحتم لأبي ولها ولي، لعائِلتنا التي كانت سعيدة، رفعت رأسها إلى السماء وقالت بابتسامة أليمة:

- أتمنى أن أرى فيكَ شخص والدك عِندما تكبر.

بتعجب وبراءة ابتسمتُ حيث إني لم أفهم ما كانت ترمي إليه.

دقائِقُ معدودة وإذا بِصاحبي "نور" يطرقُ الباب أخبرتهُ فورًا:

- نور! لقد فقدتُ أبي، هاجمتنا. عصابة واقتادتْه بعيدًا.

- مَن هم؟ ولماذا؟!

- إنَّ أمي تبكي كثيرًا وأنا أعتقد أني سأصبحُ يتيمًا مثلك.

- لكني لست يتيمًا فوالدي موجود ويُحِبُّني كثيرًا.

- لكنه جدك وليس والدك!

- المهم أنه والد أمي، جدي يعني والدي كما أنه يهتم بي كثيرًا وأنا أُحِبهُ وهو يحضر لي كل ما أريد ولن يرد لي طلبًا؛ لهذا سأخبره عن والدك لعله يستطيع أن يعيدهُ إليكم فهو قوي جدًّا، إنه أقوى رجل في الكون.

* * *

غطّت القرية في سُبات عميق، وكان الشيخ هادي للتوِّ قد عاد إلى بيته، استقبلتهُ ابنته، قبّلتْ جبينَه ويمينَه وهَمست بلهفة:

- أين كُنتَ حتى هذه الساعة؟ أرهقني القلق عليك.

- لا داعي للقلق يا بُنيّتي فنحن في أوطاننا الآن، لقد كان إصلاح بعض الأمور في الخارج هو سبب تأخُّري.

تقدم للداخل وهو يُكمل حديثه بينما تلحقه هي:

- الكثير من الأمور تنتظر إصلاحًا وتغييرًا، هناك الكثير من العمل بانتظاري بعد.

- ليكن الله في عونك يا والدي! ظننتُ أن خبرًا عن عمي قد أتاك.

- إنَّهُ في الطريق، سيصل إلى القرية خلال اليومين القادمين.

- هذا جيد فكم اشتقنا له.

- تعالي واجلسي؛ لِتُخبريني عمّا فعلته اليوم...

تُجيب بحماسة:

- التقيتُ بصديقات طفولتي وبعض نسوة القرية، الجميع كان سعيدًا بعودتنا.

- الحمد لله.

عِندما خلدَ لنومه وأنهت هي صلاةَ الليل راحت تطمئن عليه، جلست قليلًا عند رأسهُ تتلو بعض التسبيحات بينما تستمع لإيقاع تنفسه وقلبها يكتظّ بالدعوات له، لحفظه ودوام صحّته وطول عمره.

كانت العلاقة بينهما أكبر من أن تُحكى وأقرب من أن توصف فِعندما آوت إلى فِراشها واحتضنت ابنها نور، لم تكن إلا ساعاتٍ قليلة نهض بعدها الشيخ هادي؛ ليتوضأ ويُصلِّي وِتره ويؤدي وِردَه ثم يُطل عليهما اطمئنانًا ويملأ الفضاء بدعواته لهما ومن ثم يخرج للمسجد استعدادًا لصلاة الفجر.

***

1

بعد أيامٍ بدأ الناسُ في القرية يفقدون والدي، لا أحد يعلم أين هو، وشوقي إليه كان يكبر، وخوفي كان يتلاشى.

مشكلة متمردي القرية الذين أخذوا والدي؛ هي أن والدي شخصيةٌ مَرموقة رغم فقره وبساطة حاله؛ فالكل يعرفه واعتاد على وجوده، ازداد قلق الناس فلجؤوا إلى "الشيخ هادي" جد صديقي نور، وعِندما اقترح عبد الرحمن اللجوء في هذا الأمر إلى "العمدة عُثمان" رفض الشيخ هادي ووعد بِأن يتولى هو كامل الأمر بِنفسه.

* * *

سألتْ كوثر والدها فور ما عاد إليها:

- ما كان وراء أهل القرية يا والدي؟

- أبا محمد، ذلك الرجل الطيب اختفى منذ خمسة أيام ولا يعرف أحدٌ عنه شيئًا إلى الآن.

بينما كان نور يلعب أتى مسرعًا إلى حضن جده، قال بِبراءةٍ وعفوية:

- إن صديقي محمدًا قد قال لي إن رجالًا أخذوا والده وأمه تبكي كثيرًا.

سأل الشيخ هادي بدهشة:

- متى حصل هذا؟

تنحني كوثر؛ لتمسح على رأسِ طِفلها وتقول:

- نور، بني! أمُتأكّدٌ أنت بِما تقول؟

يُجيبها:

- ذهبتُ إلى بيتهم منذ فترة ولكن لا أذكر متى، ولكني أخبرته يا جدي أنك قوي جدًا وستعيد والدهم إليهم.

حمل الشيخ هادي نور على عجل:

- هيا، هيا يا بني، فلنذهب لِبيت رفيقك.

- ولكن يا جدي، ذهبت إليهم اليوم ولم يكن في البيت أحد!

نظر لهُ بدهشةٍ لكنه أسرع بالخروج إلى بيت أبي محمد.

***

بقي الشيخ هادي يطرق الباب طويلًا، يتلفت حوله، إلى أن أتاهُ رجل فأخبرهُ بأنهم خرجوا فجر هذا اليوم.

- ألا تعلم إلى أين؟

- لا والله يا شيخ لا أعلم.

ذهب الرجل وبقي الشيخ هادي محتارًا، فكر قليلًا ثم أطرق برأسه وابتسم ثم قال لنور:

- أتعتقد أنهم سافروا بِرفقةِ والدهم إلى مكانٍ غير هذه القرية يا بُني؟

- لقد قلت لك يا جدي إن والدهم سيقتلونه.

عقد الشيخ هادي حاجبيه فأنزل نور من على كتفهِ إلى الأرض:

- أنت تصعقني بكلماتك وأخبارك هذه، نور بُني من أين تأتي بهذا الكلام؟؟

- محمد قال هذا.

أطرق هادي:

- حسنًا ولدي...! الوقت متأخر الآن يجب أن نذهب لأمك كي تنام يا حبيبي.

وسار هادي مع ابنه نور إلى منزله ولم يكن يعلم بالقدر الذي تحتم على محمد وأمه فجر هذا اليوم.

......

كانت ابنته تنتظر، ناولها طِفلها أولًا حيثُ نام على كتفهِ في الطريق، وبعد أن أخذتهُ لِفراشهِ عادت تسأل والدها:

- أخبرني ما الذي حدث؟

- كلام ابنك كله صحيح يا كوثر، لم يكن في المنزل أحد، بقيت على بابهم إلى أن أخبرني أحد جيرانهم أنهم غادروا صباحًا، إلى أين؟! لا أعلم!

كوثر بِتعجب:

- لكن كيف لأم محمد أن تسافر وهي في شهورها الأخيرة من الحمل؟!

- لا أعلم إنْ كانت قد سافرت أم لا، لكن كلامك صحيح، لا بد أن شيئًا أجبرهم على الخروج. أسـأل الله ربي أن يعطيني القـدرة على مساعدتهم وتفريج كربتهم.

......

بعد نوم الجميع كان كعادته يبدأ رحلته، فيخرجُ أولًا لِبيوت الفُقراء حاملًا الطعام واللباس،

ويعود بعدها لِمكانهِ المُفضَّل، لِجنّته التي يترك على أعتابها الدُّنيا غافيةً بما فيها، إلى المَسجد وتِلك الزاوية الصغيرة جِدًّا كانت مِحرابًا يعرجُ بِقلبه ويجمعهُ بمحبوبه..

(كان يُصلي ولهُ خشوع وخضوعٌ عجيبٌ في أثناءِ تِلك الصلاة).

كان أحدهم يُراقِبهُ مِن عِند باب المسجد، ويُحدثُ نفسهُ بتعجبٍ.

بقي ذلك الشخصُ يُراقب حالات الشيخ هادي، عينَيه الكحيلتين، دموعهُ التي تجري خالصة في مُناجاة ربه فتنحدِرُ على لحيته الكثيفة التي يُخالِطهُا بعضُ الشيب، أتى صوتهُ وكم كان يحمل في أوتارِه أحوالًا كثيرة..

وقارًا، راحةً ورجاءً، خشوعًا وحُبًّا كبيرًا، كان صوتهُ الرجولي هادئًا وهو يتلو تِلك المُناجاة.

(اللّهم إني أسألك يا من لا تراهُ العيون، ولا تُحيط بِه الظنون، ولا يصِفهُ الواصِفون، ولا تغيِّره الحوادث ولا تُفنيه الدهور، أن تجعل خير أمري آخرهُ وخير أعمالي خواتيمها وخير أيامي يوم ألقاك...!).

***

في الصباحِ انطلق الشيخ هادي للبحث عن أم محمد وابنها، وبعد تعب طويل نجح في الوصول أخيرًا إلى مكانٍ بعيد خارج القرية، بدأ يقرعُ باب منزلٍ غريب لتفتح له امرأةٌ عجوز...

يُسلم بِوجهِ بَشوش فتُجيبُه بصوتٍ أجشّ ونَبرَة مُجرّحة:

- ماذا هُناك؟

- عُذرًا، لكني أود مُقابلة أم محمد إذا سَمحتِ لي بذلك.

ردت بتَذمُّر كما لو أنها سُئِلت عن أم محمد كثيرًا:

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم، والآن غادِرْ.

أغلقت الباب في وجهه، ولكن الشيخ أمسك الباب بيده وقال بتعجب:

- ولكنهم أخبروني أنها هنا في هذا المكان بالتحديد، أرجوك دعيني أراهم.

أغلقت الباب في وجهِهِ فبدأ يتلفّت حوله علّه أخطأ العنوان، مرّ به رجل فاستوقفه ليسألهُ عما إذا كان قد رأى في الجوار امرأة مع ابنها ذي

الستـــةِ أعوام، فأجاب بلا، فانصـــرف الشيـــخ هادي؛ للبحث في مكانٍ آخر.

....

كنا مع تلك العجوز كي لا يشكّ أحد بأمرهم، أولئك الرجال يَحتجزوننا في منزلٍ مُريبٍ لامرأة عجوز لها طِباعٌ غريبة تبدو وكأنها من المشعوذين، تعرف كل شيء لكنها تصمت.

وبعد أن أخرجونا من بيتها توسّلت أمي إلى الرجال أن يأخذونا إلى قبر والدي على الأقل، وأثناء ذلك وفي طريقٍ مهجور يغوص في الظلام اشتد تعب أمي وأوشكت على الولادة...

لحقت أمي بأبي بعد ساعات طويلة من صراعها مع الألم، رحلت بعد أن أنجبت أختي.

واحترتُ في أمري ولم تعرف الدنيا عمري الحقيقي منذ تلك اللحظة، لم تعلم الهموم أني ابن ستة أعوام ولم ترحم شقاوة الأيام صِغري، وتكفلتُ بأختٍ رضيعة، وتكفل بنا أفراد العصابة.

أصبحنا نسيرُ مُرغمَين مع القتلة المُجرمين وأصبحنا في عُهدة الخونة الذين قتلوا والدنا ويتّمونا.

أيؤلمُ المرء أن يتكفل أعداؤهُ بِأيتامه حتى بعد موته...؟!

أن يقتل والدي ويتولى بعدها أمري!! ذلك كان يؤلِمُني كثيرًا، كُنت أشعر وكأن صخرةً ضخمة قد رُبِطتْ على قلبي الصغيرِ آنذاك.

كانت تُهِمُّني أُختي، كانت عيناي تتبعانها، فرقوها عني وأخذها ابن تِلك العجوز أما أنا فتكفل بي مروان.

كان سؤالٌ يتردد في داخلي، هل سنعيش معهم؟ هل سيُعذبوننا أم سيرحموننا؟!

لم أكن أعرف من يكون مروان هذا ولا من يكون طارق ابن تِلك العجوز ولا عصابة المجرمين كلهم، من يكونون؟!!

* * *

كان الظلام قد أرخى سُدولَه على القرية فالتجأ كُلٌّ لبيته، وحل عليها صمتٌ ثقيل لم يخترقه سوى وقع خطوات الشيخ هادي فقد عاد للتو حاملًا في جَعبتِه خبر مقتل أبي، توقف أمام بيتِنا وأسند كفّه إلى جِداره بحزن وهو يُكرر: "لا حول ولا قوّةَ إلا بالله العلي العظيم".

وعِندما جمع الرجال صباحًا؛ ليُنبئهم بالخبر أتى أحدهم بخبر وفاة أمي أيضًا إليه.

- إنا لله وإنا إليه راجعون، أيُّها الرجال، إنَّه أخونا وعزيزنا أبو مُحمد قد قُتل وها قد لحقت به زوجته، إن ما يجب علينا الآن هو استعادةُ ابننا محمد، فهو يتيم ليس لهُ سِوانا.

أبدى الجميع حزنهم لهذا الخبر كما أبدوا إعجابهم بموقف الشيخ هادي الذي أعلن تكفُّله بالبحث عني ورعايتي، الجميع بدأ يشكره

ويُثني عليه، الغريب هو أنني عُدت إلى القرية برفقة عبد الرحمن ببساطة وفي وقت قصيرا

تعجب الجميع من شجاعته وشكروه وأثنوا عليه بما فيهم الشيخ هادي.

في بادئ الأمر عِشتُ مع صديقي نور في بيت جده وكان عبد الرحمن يأتي في كل فرصة؛ للاطمئنان عليَّ.

لأنني مُعتادٌ على بيتنا المتواضِع فقد بدا لي بيتهم كقصرٍ أثري رائع، كانت أعشابُ الريحان تُحيط أسوار البيت بكثافة وقد انبعثت رائحتها العَبِقة ممتزجة برائحة التراب المُبلّل بالمطر، وكانت أوراقُ العنب المتسلّقة تمتد من الجُدران في الخارج إلى فوق الباب وحتى الحيطان في الداخل، وكان للبيت فناء واسع فسيح تُحيطه أشجارُ الياسمين وأشجارٌ مُثمِرة تتراقص وريقاتها مع هَبّات النسيم في بعض الزوايا، وتتصفه نافورة تتدفق فيها المياه، كان البيت مُتعدد الغُرف والممرات.

وقد كان واضحًا أن صاحب البيت عالمٌ جليلٌ، فالبيت مليء بمكتبات الحائط المُذهلة المرصوصة بكتب الدين والعلوم المتفرقة والمخطوطات العريقة وأنواع من المنشورات النادرة.

لقيتُ مِن أُسرة الشيخ هادي ترحيبًا ولُطفًا أورثني شعورًا دافئًا ولا يزال في فمي حتى الآن طعم أول حساء قدمته لي كوثر في تِلك الليلة الحالِكة التي أتيتُ فيها وحيدًا.

2

من جانب آخر استمر الشيخ هادي بإعادة الروح إلى القرية، وتطويرها من كل النواحي على الصعيد العام والخاص، ساعد الجميع على ترتيب أمور حياتهم ومِهنهم، فبعد فترة صارت المدينة تنعم في الرخاء والخير الكثير والروحانية التي كان ينشرها مِن خلال تعاليمه وخُطبه ومحاضراته وكلماته، كل شيء كان على ما يُرام وكان ينوي افتتاح مدرسةٍ في القرية لكنه بانتظار عودة أخيه ليث ليبدآ بذلك معًا.

***

ذات يوم بينما كان يمشي رأى امرأة تبكي على قارعةِ الطريق عِند أسوار القرية، نظر إليها ومن ثم اقترب:

- ما بك يا أُخيّتي...؟! أهُناك خطب؟! أستطيع تقديم المساعدة.

قالت في بُكاءٍ مرير:

- لقد أخذ ابنتيّ يا شيخ! رجوته كثيرًا أردتُ رؤية وجهيهما فقط ولو من عند الباب، لم يسمح لي، لن يجعلني أراهما طوال حياتي.

- استهدي بالله يا أختي وقولي لي مَن أخذهما؟ ولماذا؟!

- زوجي، بسبب مشاكلنا طرَدَني والآن حرمني من ابنتيَّ الصغيرتين.

بعدما عرف هادي قصة المرأة وعرف أن زوجها من قرية أُخرى، صبَّرها وأوصلها إلى بيتها.

- اعلمي يا أُخيتي أن الله لا ينسى أحدًا، وهو أرحم بكِ مني ومن أي أحد، تصبَّري الآن واشكي لله أمرك.

***

أتى عبد الرحمن لبيت الشيخ هادي؛ ليسأل عني، فتحت كوثر الباب:

- مرحبًا، أنا عبد الرحمن، أتيتُ للاطمئنان على ابننا محمد، كيف حاله؟

قالت من خلف الباب:

- حمدًا لله، إنَّهُ سعيدٌ مع ابني نور.

بنوعٍ مِن الدهشة تَفوّه بِسؤالٍ خاطف:

- ابنكِ؟

- أجل نور هو ابني.

- على كُلٍّ أتمنى أن تهتمّوا بِمحمد جيدًا، في أمان الله.

ما إن أدار ظهره حتى وجد الشيخ هادي في وجهه، نظر إلى عبد الرحمن بصمت بعدما برّر عبد الرحمن سبب مجيئه، انصرف ودخل الشيخ هادي وأغلق الباب وراءه، ولأن كوثر تحفظ تعابير والدها عن ظهر قلب فهمت استياءه؛ فقدمت اعتذارها فورًا:

- أعتذر لك يا أبي، هذا لن يتكرر.

- أريدك فقط أن تنتبهي لأمور قد تغفلين عنها رغم أهميتها.

بينما هما كذلك إذ بالباب يُطْرَق، همّت كوثر بالتقدم لفتحه، ناداها والدها بتعجب:

- كوثر!! ماذا كُنّا نقول؟ الوقت مُتأخر، كيف تفتحين الباب في مثل هذا الوقت؟

ذهب الشيخ هادي؛ ليرى الطارق وإذا به يتفاجأ بالشاب الوسيم الذي قد عاد من سفره:

- ليث!

يبتسم ليث بِملء فمه وهو يفتح حُضنه لأخيه:

- كيف حالك يا أخي؟!

تعانق الأخوان طويلًا عِند الباب، قال ليث:

- لقد اشتقتُ إليكم يا أخي.

- كم انتظرتُ هذه اللحظة، هيًا، هيًا ادْخُل لتراك ابنة أخيك.

أتت كوثر مُسرعة ما إن سمعت صوت عمها وألقت بنفسها في حضنه قائلة:

- لقد أطلتَ غيابك.

- اشتقتُ لكِ أيتها المشاكِسة.

ضحكت:

- كيف كانت دراستك؟

الحمد لله جيدة جِدًّا، لقد جئتكم وأنا أحمل في جَعبَتي قدرًا ليس بالقليل من علوم الطب والكيمياء والفلك أيضًا، كيف حال الأهل والجيران؟ كم اشتقتُ للقرية، نور! أين نور؟

راح يركض مُفتشًا عن نور، وجده نائمًا فقبّل جَبينَه وكفّيه.

واكتملت عائلة الشيخ هادي بعودة أخيه الأصغر ليث والذي يكبر كوثر بسِتّ سنوات فقط، وكانت تِلك الليلة من أسعد الليالي وأكثرها دفئًا، فهم بالنسبة لبعضهم أهم شيء في الحياة.

....

غطّت خيوط الشمس مدينتنا صباحًا؛ لتجعل كل شيء يبدو أكثر حيوية..

استيقظتُ أنا ونور وبعد أن أفطرنا أخذنا ليثًا؛ لنتجول معًا في القرية، فقد كان مُشتاقًا إليها جِدًّا..

كانت تضجُّ بالحياة، كُنا بين أصوات تغريد العصافير وصياح الدِّيَكَة وأصوات باعة يصيحون بأعلى أصواتهم وهمسات المارة وضحكات الأطفال.

كُنّا كلما التقينا أحدًا في طريقنا سلم عليه ليث بفرح شديد وكأنه غير مصدق أنه في قريته وبين أهله وناسه.

كان كعادته مرحًا يُمازِحُ الجميع ويضحك مع الجميع، وعِندما مررنا ببائع الخضروات وتناول ليث حباتٍ من العنب سأله البائع إن أَعجبته فقال:

- إنها حلوه جدًّا كصاحبها.

يضحك البائع قائلًا:

- كم اشتقنا لك ولتجوّلك في المدينة كالنحلة يا ليث.

عِندما اشترى لنا الحلوى تراكض إلينا بعض الصِّبية الذين مِن عُمرنا أنا ونور وكان ليث يُرحب بهم جميعًا، يُقدم لهم الحلوى أيضًا وهو يمسح على رؤوسهم ويُقبلهم بلطف.

تعرف عليهم واحدًا واحدًا، مازحهم وأضحكهم، أنهُ يُحب الأطفال بشكل ملحوظ ويأنس بهم كما أنه يحبُّني ويعاملني كنور تمامًا.

***

لم ينسَ الشيخ هادي أمر والدي، لا زال يفكر ويسعى؛ ليتحقق من كل شيء ويكشف الرجال المتمردين كي يأخذ لي حقي ويريح العالم من شرِّهم، كما أنه لم ينسَ تلك المرأة التي تبكي على طفلتَيها فأرسل أخاه ليثًا؛ للذهاب إلى وجهة مهمة.

وقف ليث ذات مساء يطرق باب أحزان تلك المرأة؛ ليُدخل إليها فرحتها، ما إن فتحت الباب إلا وابنتاها تَرتميان في حُضنها، تفاجأت وانفجرت بالبكاء.

سألته:

- مَن أنت أيها الشجاع؟؟

- أنا ليث، أخو الشيخ هادي.

- أشكرك جدًّا لـ...

قاطعها مُبتسمًا بِلطف:

- لا أحبُّ أن أُشكَر على عمل قمتُ به تقربًا لوجه ربي تعالى، أتمنى لك ولابنَتيك السعادة دومًا، ليحفظكم الباريْ!

واستدار راحلًا ليُبشّر أخاه.

كان ليث عند حسن ظن أخيه، استطاع التحدث بكل لَباقة مع زوج تلك المرأة ووُفِّق لإقناعه بشأن الطفلتين.

* * *

وقف الشيخ هادي برفقة أخيه ليث في بُستانهما الكبير، شمَّرا عن سواعدهما ورفعا ثيابهما وبدآ بالحرث، ثم الزراعة ثم السقي.

أثناء عملهما أتتهما كوثر وقدّمت لهما اللبن، ارتشفَ كل منهما من إنائه بينما أدارت كوثر ناظريها في المكان بفرح، قال ليث:

- انظري يا كوثر، أنا وأخي تعمدنا أن نحرث أرضنا هذه، ونزرعها نحن الاثنان فقط ويدًا بيد، لنتشارك الأجر نفسه؛ فقد خصصنا ثلث محاصيلها للفقراء والمساكين.

- يا لهذا، لماذا لم تُخبراني بذلك لأُشارِككما؟!

أطلق ليث ضِحكة شامِتة، بينما ضحك الشيخ هادي قائلًا:

- نِيَّتُكِ كافية يا ابنتي.

قطع ليث حديثهما:

- هيا، هيا يا أخي يجب أن ترتاح.

وأضاف مُمازِحًا:

- إنَّ أباكِ يا كوثر أخذ العمل كله على عاتقه وجعلني مُساعدًا فقط.

- لا تصدقيه، لقد أصبحتُ عجوزًا، كان نصيب أخي الشاب البطل من العمل أكثر.

- لا تقل ذلك يا أبي فلست عجوزًا أبدًا.

- أجل يا أخي، لا زِلت شابًا وكُنّا نُخطّطُ لتزويجك.

- لا تسخر من أخيك، بما أنك ذكرت الزواج وجب عليَّ تذكيرك، إنهُ قد حان وقتك يا عريس، يجب أن تؤسّس بيتك وعائلتك لا داعي للانتظار أكثر.

علت ملامح ليث ابتسامة خجولة، وأغشَت نظراته أطيافٌ جميلة، التفت إلى كوثر التي تعرف تِلك الأطياف جيدًا فتبسّمت بِحب، وبعد أن خلا بها أسرَّها بِسؤالٍ شغوف:

- كيف حالها؟

- لقد أضحت عروسًا جميلة يا عمي، لقد كبرت عاتكة.

- أعَلِمت بعودتي؟

- أجل وأتت إلى البيت بالأمس.

أطلق ضحكة خافتة، وأردف يقول:

- أنا أيضًا التقيتُ عِمران واستقبلني بحرارة.

- إن أبي محق، لا داعي للانتظار، فعاتكة وعِمران كبرا معنا وعائلتهما معروفةٌ بالإيمان والتقوى.

***

بعد فترة كان الشيخ هادي قد افتتح مكتبة وبنى جامعًا جديدًا فاخِرًا لهُ مِنبرٌ خشبيٌّ مزخرف وكانت مآذنهُ تلمعُ تحت أشعة الشمس كقطع البلّور، دخلنا وكان الجامع يكتظّ بالمصلين من كل مكان من القرية وخارِجها، فالجميع أصبح يعرف قريتنا ويعرف مساجدنا والشيخ هادي، الجميع يأتي خصيصًا من أجل سماع خطبتِه وحضور حلقات دروسه العلمية، بدأت أحلامهُ تتبسم وترى وجه النور أخيرًا، وأعلن يومها أنهُ وأخوه ليث ابتدآ فعليًا بتجهيز المدرسة، فقد عزلا جزءًا من بيتهما لذلك وجعلا له بوابة خارجية خاصة غير بوابة البيت الأساسية.

......

أما أنا فما زِلتُ سعيدًا، وكانت أيامي معهم أجمل ما سُطر في حياتي.

كُنا نتسامر كل يومٍ على العشاء ويُحدِّثُنا الشيخ هادي كثيرًا، وكم كُنا نستأنس بأحادِيثه، وقبل النوم تقصُّ لنا أُمنا كوثر كل ليلة قصةَ أحد الأنبياء.

وكانت رائحة الخبز الذي يَجلبه ليث صباحًا من الفُرن ساخنًا إحدى ذكرياتي الجميلة التي تلازمني.

بعد إفطارنا كان ليث يصطحِبُنا ويُخرِجنا معه وكان يعشق الأيتام ويهتم بهم ذاك الاهتمام النادر الفريد من نوعه، إنه يقوم بدور الأبوة لهم فبالإضافة إلى إطعامهم وكَسوِهم فهو يلاعبهم ويقص لهم القصص والأحاجي.

كأن يأنس بِنا نحن اليتامى، يُمازِحُنا ويضحك من قلبه حتى أنهُ كان يُخيل إليَّ أن جلساته معنا هي أجمل أوقاته بالنسبة إليه.

......

كنت أشكر الله كل ليلة عندما آوي إلى الفراش أنه أوكلني إلى عائلة كعائلة الشيخ هادي، ولم يُرسلني مع أولئك المجرمين، عِندها تذكرتُ أُختي...

(3)

العهد

مُحمد - 660 هـ

بعدما انتهيتُ من سردِ الحكاية كامِلةً لِماريا التي لحقت بي إلى ذلك القبو المليء بمعدات الحرب، أشارتْ إلى السيوف وسألتني بنبرةٍ غاضبة مُستنكرة:

- وهل تنوي بهذه الانتقام؟

أجبتُها بعد أن ضحكتُ:

- لا، أين أنا من ذلك؟! أنا فقط أعددتُ هذا من أجل المنتقمِ الذي سيأتي.

أطلقتْ تنهيدةً مصحوبة بِخيبة أمل:

- آه، بدأتُ أصدق أن بك جُنةً يا محمد.

عادت تنظرُ إلى المكان بغرابة وأردفت:

- ما تفعلهُ هُنا، وكلامك هذا، كُلهُ جنون.

هزتْ رأسها بأسى وهي تعود خطوات بطيئة للوراء وتُتمتم:

- لقد أخطأتُ، لقد أخطأتُ.

قلتُ بتدارك:

- انتظرِي، انتظرِي، إن المنتقم الذي أعنيه هو صديقي، لم يمت.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

ضربت بكفّيها ضربًا خفيفًا على فخذيها وهي تقول بانفعال:

- أنا لا أعلم إن كان ما رويته عن أهل ذلك البيت حقيقة، ولكن مِن الواضح أن كلهم ماتوا!

بلعتُ غُصّتي، وقلتُ بحزنٍ عميق وفقدان لآخرِ أملٍ لي كان فيها:

- نور لم يمت، واخرجي الآنَ عني.

قالت ببرود قبل أن تخرج:

- إن كان حيًّا فلِمَ لم يعد حتى الآن؟!

بقيتُ مُطرقًا بحزن لم أجد ما أقوله أكثر، بعد كل ما رويتهُ لها اكتفيتُ بالصمتِ حتى غادرت.

* * *

ماريا

خرجتُ مِن ذلك المكان أرتجف، توقفت للحظاتٍ أسترجعُ ما حدث وعلى وجهي علامات الاستغراب بعدما أصبحتُ مُتأكدة من أن محمدًا هذا خَطِرٌ أو مجنون، وخُيِّلَ إليَّ أنهُ سيلحقُني في أيِ لحظة، صِرتُ أجري وأجري، وقلبي يُرفرف خوفًا وصدري يعلو ويهبط، لم أكن قادرة على النظر إلى الوراء حتى وصلتُ أمام باب بيتنا أخيرًا، واستندتُ إلى الحائط؛ كي أستعيد لصدري هدوء أنفاسه قبل الدخول ومواجهةِ أبي أو أخي.

عِندما استقررتُ فِي داري بدأتُ أفكر أيجبُ عليَّ إخبار أحدهم عما رأيتهُ يا ترى؟

رُبما ما وجب عليَّ إنذارهم مُحمدًا وتنبيهُهم لما ينوي.

عُدت أُفكر فِي الحكاية التي سردها عليَّ عن الشيخ هادي وعائلته، لم يُمكنني هضم بعض الأمور، هناك شيءٌ لا يبدو منطقيًا أبدًا.

ما داموا على هذا القدر الذي رواهُ من الحب والعلم والتقوى، فلِم يُفعل بهم كل هذا؟

إن ما جرى لهم كثير، هذا ما يجعل الأمر في عقلي غير قابل للتصديق، ولو فرضت أنه فِعلًا قد جرى ما جرى لماذا سكت الجميع؟ ولماذا رضي الجميع؟ وماذا عن أبي؟

......

فتحتُ عيني والشمس قد صارت في كبد السماء، يا إلهي، إنها المرة الأولى التي أنامُ فيها حتى هذا الوقت، فأنا لا أتذكر متى وكيف وجدتُ سبيلي للنوم ليلةَ البارحة، لقد تولى أخي أمر الإفطار ولم يوقِظوني.

***

في اليوم التالي وبعد تفكير عميق وطويل قررتُ أن أستطلع الأمر وأبحث عن الحقيقة بنفسي، هذا هو السبيل الوحيد، فَطوال اليوم الماضي كانت فِكرةٌ تأخُذني وفِكرةٌ تُعيدني، كُنتُ أُصدق محمدًا تارةً وأُكذبه تارة حتى توصلت لهذا القرار.

يجب عليَّ الوصول لبعض الأطراف الذين كانوا في تِلك الحكاية وما زالوا أحياء يُرزقون.

توجهتُ لبيت عاتكة (حُب ليث الذي وُئِد) رغم علمي بخلوّهِ منها قرعتُ الباب بِتردد لتفتح لي أُختها هاجر وهي امرأةٌ في نهاية الأربعين رُبما:

- ماريا! يا مرحبًا، تفضلي حياكِ.

- أهلًا بكِ، أرجو أن تكوني مُتفرغة فقد جئتُ لأسأل عن أمرٍ مُهم.

- تعالي واجلسي واسألي ما بدا لكِ.

بعدما جلسنا على الحَصير التي في فناء الدار وقدمتْ لي اللبن والتمر، سألتها وأنا لم أكن أعلم كيف ومن أين أبدأ:

- أتعرفين لِمن ذاك البيت المُحترق في القرية...؟

- أي بيت؟

- يُسمَّيه البعض بيت الأشباح؟

لم يكن يخفى عليَّ التغيّر الذي طرأ على ملامحها فور ما فهِمت مقصدي، أجابت بِتحفّظ:

- إنهُ لعائلة ثرية كانت تسكن هنا قديمًا، كُنتُ صغيرةً حينها غادروا القرية.

قُلتُ بلهفة:

- مَن هم؟ ولماذا غادروا؟

قالت بِنبرةٍ ثقيلة:

- إنني مشغولةٌ يا ماريا هلَّا غادرتِ!

شعرتُ بريبَة، عقدتُ حاجبيَّ وقُلت بِحزم:

- أرجوكِ، إن كُنت تعرفين شيئًا أخبريني.

- من الذي أرسلكِ إليَّ، إنني لا أملك أي جواب حيال هذا الأمر، ولا أود التحدُّثَ فيه، أرجوك لا تُسببي ليَ المتاعب، هيَّا غادري الآن.

قمتُ بقلة حيلة وغادرتُ بيتها فقد طردتني! وكأنني بقيتُ مُجددًا لمحمد!

لا أحد هُنا يجرؤ على الحديث في الماضي، وهذا ما جعلني أميل لتصديق ما قاله مرة أُخرى، لا زِلتُ في حيرة...!

لم آيس بل ذهبتُ مُواصلةً إصراري إلى أعتاب بيت الأشباح ذاك، وبقيتُ أنظر إليه من الخارج لثوانٍ حتى مرَّ بي رجلٌ عجوز فاستوقفتهُ؛ لأسأل بِلهفة:

- توقف يا عم أرجوك.

- ماذا هُناك يا ابنتي؟

- ألا تعرف أصحاب هذا البيت؟!

رمقَ البيت ثم رمقَني بِنظرة:

- إنهُ لِأُسرة الشيخ هادي.

هززت رأسي متعطّشة لسماع المزيد وأنا أحدّق في عينَيه وأبحث في تعابيره عن الكلمات قبل أن ينطقها، أردف:

- لقد أفلَ نجمُهم ولم يعد أحدٌ يذكرهم هُنا.

- ماذا حلَّ بهم؟!

- عادوا مِن حيثُ أتوا، لم يطِب لهم المقام بيننا.

- ألم يموتوا؟!

هزَّ رأسه بهدوء نافيًا وانصرف، بينما بقيتُ فاغرة فاهي أُراقبه وهو يبتعد ثم التفتُّ إلى البيت وأنا أُفكر ما الفائدة التي يرجوها مُحمد من كِذبةٍ كهذه!!

***

محمد

بعد تِلك الليلة التي رأتني فيها ماريا وكشفت كل شيء واضطررتُ لإخبارها الحقيقة باكرًا،

خرجتُ في اليوم التالي ولم أكن أهتم لكل ما كان يستوقفُني سَلفًا، فعِندما كُنتُ أمشي نهارًا رأيتُ سكّيرًا يضرب فتاةً صغيرة، وآخرُ يَرمي بصاحبه على الحائط ويطعنه بخنجر! والكثير مِن الفوضى التي تتكرر على القرية كل نهار.

إلا أن وجهي كان يتلفتُ؛ بحثًا عنها فقط، وبعدما طُفت القرية ولم أجدها ألقيتُ بنفسي على أحد الأعتاب خاويًا، تنهدتُ وأنا أُغمض عيني

وأرفع رأسي للسماء وتخرج من بين شفتيَّ هَمهمَة: "ماذا لو فسد كل شيء؟".

وجدتُ نفسي أمام بابها أرمقُ النوافذ ولم أجرؤ على أكثر من ذلك.

بقيتُ مُتوترًا قلقًا حتى أتى اليوم التالي، ورأيتها قرب بيت الشيخ هادي فتقدمت نحوها مُسرعًا، بينما تراجعت هي إلى الوراء، همستُ بعدما تلفّتت حولي؛ لأتأكد من أن أحدًا لا يسمعنا أو يرانا:

- ماريا، هل أخبرتِ أحدًا؟! أرجوكِ لا تفضحيني.

- يجبُ عليَّ التأكد أوّلًا، حتى أُقررَ ذلك.

- إياك، انظري، لا تُلقي بنا جميعًا إلى التهلكة، هذه المسألة لا تخصني وحدي، ألا ترين حال القرية؟؟ ألا تشعرين بالبلاءِ كيف يُطوّقنا؟ والمحن والرزايا تُطبقُ علينا؟ أيُعجبكِ هذا؟

- وما به حالها، يبدو أنك الوحيد الذي بقي يكرر أنها لعنةٌ، رُبما لا يُشاطِرك أحدٌ رأيك هذا، في كُل مكان يوجد الأشرارُ والأخيار، الجيد والسيِّئ.

هزرتُ رأسي:

- كلا، ليست كذلك، إنها هالكة، وتمضي قدمًا نحو الهلاك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:117].

بعدما شُتِّتْ نظراتها وحارت في إجابتها قالت:

- لا أُنكِرُ ذلك، لكن ما رويتهُ لي مستحيل الحدوث.

- عجبًا لابن آدم، يطلبُ الحقيقة دومًا لكنهُ سرعان ما يَرفُضها؛ لأنها لم تناسب دواخلهُ وأفكاره.

رفعتُ صوتي:

- لا يُمكنكِ إنكار الحقيقة لمجرد أن عقلك لا يستوعبها.

ل- ا تصرخ عليَّ!

هدأتُ:

- إنني آسف، لم أقصد ذلك، لكنكِ كُنتِ ليَ الأمل الأخير، لماذا بدوتِ تمامًا مِثلهم؟

- عليك أن تفهم أني لستُ مثلهم، فأنا لم أعِش في ذاك الزمان ولم أرتكب جُرمًا أو أرضى به، لا تُكرر ذلك أرجوك.

- لكنكِ بدأت تُصدقين بأنني مجنون أو كذاب.

نظرتْ في عيني:

- إن لم تكن كذلك فأنتَ شخصٌ مُرعبٌ؛ إذ إنك تجهز لنا نِهايةً عظيمة بينما ظنناك مِسكينًا مجنونًا!

دار الصمتُ بيننا للحظات ثم ألقتْ بنفسها على عتبةٍ وهي تقول بتوجُس:

- البعض، أعني أحدهم قال إنهم غادروا مِن هنا ولم يموتوا!

عقدتُ حاجبي وابتسمتُ ساخرًا فيما أحاول فهم ما تَصبو إليه، وحين أدركتُ قصدها قُلت:

- تعالي معي.

* * *

عِمران

أثناء تجوالي الطويل بين المدن والقرى تقاطعت طُرقاتي اليوم مع طرقات "قرية التلة" قريتي القديمة، التي لم أعد أسكن فيها منذ سنوات، حينما اقتربتُ من أسوارها توقفت وشخصتُ بصري إليها وأنا على صَهوَة جوادي البُني، طافت هُناك ريحٌ ساخنة تحمل معها رائحة الماضي التي حملتني بعيدًا إلى ما قبل أربعين عامًا...

620 هـ

كُنتُ شابًا صغيرًا لا يتجاوز عُمري النيف والعشرين.

كُنتُ أعتني بِأمي وثلاثةِ إخوة يصغرونني سِنًّا، أكبرهم عاتكة التي كانت في الثامنة عشرة من ربيع عُمرها.

وحيثُ تطلّبت أحلامي وآمالي أن أشقى دومًا..

عملتُ في طفولتي في حمل الأمتعة الثقيلة وأجْر ذلك لم يكن إزاءَ مَشقّتي لكنه أفضل من لا شيء.

بعد ذلك عملت كبائعٍ مُتجول لبضائع زهيدة، وتركتُ ذلك سريعًا؛ لأني وقتها رسمتُ طريقًا لأحلامي كان عليَّ سَلكه!

كان عليَّ تأمين مستقبل إخوتي وتعليمهم، كان عليَّ بناؤهم وتربيتهم، لذلك أنا الآن أعمل بجانب العمدة عُثمان وهو تاجر كبير في مدينتنا، كُنت أُريد أن أتعلم منه، كان يعتمد عليَّ في أمورٍ كثيرة ولم أقصر في خدمتِه تطوعًا واحترامًا لهُ مِني.

كان الفجر قد محا ما تبقى من ليلتي ولم أنم، فمُذ أتى الشيخ هادي وهو يشغلني، لم أعد أستطيع دون مُراقبتِه والاستماع إلى تَهجُّده ليلًا في المسجد، كان يخطف فؤادي ويعرج به حيث تعرج روحه كل ليلة.

تناهت إليَّ أصوات صرير الأبواب التي بدأت تفتح وطقطقة نار الموقد التي أشعلتها أمي لاستقبال يومٍ جديد، اضطررتُ للخروج هذا اليوم أيضًا وأنا مُرهق.

......

في منتصف النهار وبعد ساعات طويلة من العمل،

جلسنا أنا والعمدة عثمان نتجاذبُ أطراف الحديث، كان يُثريني ببعض الملاحظات المهمة التي يجب عليَّ مراعاتها أثناء العمل في التجارة:

- غدًا سيحل عليَّ ضيوف من أكبر التجار من المدن القريبة والبعيدة وأريد حضورك بالتأكيد.

- طبعًا، سأحضر، كما أنني أتشرف بالوقوف إلى جانبك دومًا.

– رعاكَ الله يا بُني، أنا أيضًا أعتز بوقوف شاب صالح مُفعم بالحياة إلى جانبي.

سرحتُ هُنيهَة ثم عدتُ أقول:

– إن لي صديقًا، تاجرًا كان في سفرٍ بعيد، وموعد قدومه إلى مدينتنا من المفترض أن يكون في هذه الأيـــام، ألا يمكن أن يكون من بين ضيوفك؟؟

– لا أستبعدُ ذلك، ما كان اسمه؟

– جابر...

هز العمدة رأسه وهو يبتسم قائلًا:

– إنني في شوقٍ للتعرف إلى صديق بُنيّ عِمران، يبدو أنه شابٌ حاذق بما أنه حقق نجاحًا ليكون من أكبر التجار المعروفين وهو في عُمرٍ كهذا، كما أتمنى لك التوفيق أيضًا يا عزيزي، أنت أيضًا شاب ذكي ومُخلصٌ في عملك سيكون لك مستقبلٌ باهر بإذن الله.

......

أحيانًا يجتهدُ الإنسان لعمل لن يناله أبدًا، ويبقى بعد انتهاء جهدهِ خاليَ الوِفاض وأحيانًا يكون نصيب المرء مُختلفًا تمامًا عما خطّط، شيءٌ آخر تمامًا كان الله هو الذي خطط له.

كان في خيالي دومًا أنني سأُصبحُ تاجرًا، وعِندما كانت قدماي تسوقني إلى دُكان العمدة صباحًا، كان قلبي يَقودُني إلى مكتبة الشيخ هادي مساءً، كان قد أنشأها حديثًا، وكم رأيتُ في داخلها الحياة!

حياةٌ وحياةٌ، وأكثر من ذلك بأكثر من شكل، إنني أخلعُ كل ما كُنت أعرفهُ سابقًا عِند عَتبتِها، وأدخل كطفل في شهورهِ الأولى يتلهفُ بقوةٍ لاكتشاف ما حوله، أتفحص كل الكُتب المرصوصة على الأرفُف بعيني وأمرِّر يدي على جميعها وأنا أمشي بين ممراتها.

أتوقف كعادتي عِند كُتب الدين والمنطق والفلسفة أتناولها بِشغف وألمس وريقاتها المُصفرة بِأناملي، ومن ثم أبدأ بالتهام كل ما تحويه من علوم وثقافات.

كُنتُ أغرقُ هُناك وكأن الكتاب الذي بين راحتيَّ بوابةٌ لِعالمٍ خيالي بعيد، أكونُ فيه كما لم أحلم يومًا.

كم أحسن الشيخ هادي إلينا بِإنشائه لهذا الصرح العظيم، وكم أحسن إليَّ أنا بالذات، إنهُ يُعَرِّفني شخصًا بِداخلي لم أكن أعلمُ بوجوده، شخصًا يُشبهُ ما أحبه إلى حدٍّ كبير، شخصًا لم أكن أتوقع أن يقبع مِثلهُ في داخلي.

لم يُوقِظني من كلِّ ذلك سوى صوتِ الشيخ هادي الذي يقفُ خلفي، ويُحدِّثني عن الكتاب الذي بين يدي ومن ثم ينتقل للحديث عن بعض الكُتب الأُخرى، سألته باهتمام:

- أقرأتها كُلها؟

تنهد بعدما أدار طرفه في المكتبة ككل ثم أجابني:

- أجل يا بُني، لقد قرأتُ هذه الكُتب ودرَّستها. أعتقد بأنكم سمعتم عن المدرسة التي أنوي افتتاحها أيضًا.

- لأولِ مرة ستكون في القرية مدرسة!

التفتنا إلى الباب حيث قطع حديثنا دخول جمع من الشُّبَّان في مختلف الأعمار جميعهم يريدون الانضمام لمدرسة الشيخ هادي التي لم تُفتتح بعد، كانوا مُتحمسين جِدًّا، وكان الشيخ هادي سعيدًا لذلك، بعد دقائق معدودة دخل آخرون لذات الهدف أيضًا من المُدن المجاورة.

وكان الأمرُ جليًّا واضحًا من الآن، أنهُ يُؤذن بحدوث ثورة تغيير كبيرة في قريتنا والمنطقة وزماننا، توافد أيضًا بعضُ رجال المدينة، اثنان من أصحاب الشيخ هادي والعمدة عثمان، وغيرهم من الوُجهاء.

كان العمدة عثمان يتمشى شابكًا يديه خلف ظهره وهو يتلفَّت في أرجاء المكتبة يمينًا وشمالًا:

- أووه شيخ هادي.

ثم يتوقف قُبالته رافعًا رأسه بِثقة ويُردِفُ:

- إنك تُغيِّر حال المنطقة جذريًّا مُنذ قدومك، ناهيك عن العمدة، تُريد أن تُصبح الملك غالبًا.

ضحك الشيخ هادي ثم أجاب بِجديَّة:

- أهالي بلدتي يستحقون معروفًا كهذا، كل إنسان يستحق أن يتعلم، وأن يعرف سبب وجوده، والهدف مِنه، وإلى أين الوِجهةُ والمسير، وكيف

يمكنه الاستفادة مما حوله؛ ليعيش هُنا رغيدًا، ويَعْبُر إلى العالم الآخر بسلام، لا يجب أن تبقى حياة أي فرد عشوائية، يقع على عاتق كل متعلم إنقاذ العشوائيين من فوضاهم.

قال أحد الرِجال الواقفين بيننا مُعلقًا:

- لله درك يا شيخ هادي، إن حال القرية سابقًا لم يكن يسرُّ عدوًّا ولا حبيبًا.

شَتّت العمدة نظراته ثم عاد يبتسم وهو يُثبِّت عينيه في عيني الشيخ هادي ويقول:

- عمومًا نحن موجودون دومًا للمُساندة، أنت أخونا وعزيزنا وما تفعلهُ نجاحُنا جميعًا.

بادرتُ الشيخ هادي بِسؤال:

- مَن سيُشارك حضرتكم في إلقاء الدروس؟

- كنتُ قد اتفقت مع مجموعة من معارفي العُلمـــاء، سيأتون لإلقاء حلقات دروســهم العلمية عندنا بعد افتتاح المدرســة إن شــاء الله، بالإضافة إلى أن أخي ليثًا سيُشاركنا أيضًا ويُلقي دروسهُ في الطب وبقية مجالاته.

عقد عُثمان حاجبيه قائلًا:

- أليس ليث شابًا صغيرًا على هذا؟

- إنهُ شاب عالِم، لقد تعلّم أخي مُنذ طفولته بالإضافةِ إلى أنه سيوا صِلُ تحصيله للعلوم الشرعية بينما يُعطي الدروس. إن جُلَّ اعتمادي عليه، فهُو يُشبِهُني في كل شيء، إنه أنا في جسدٍ آخر وعُمرٍ آخر، وزمنٍ آخر إن شاء الله، ستمتدُ المدرسة وتتّسع بِرئاسته مِن بعدي بإذن الله.

* * *

عُدتُ إلى بيتي المشيّدِ بالطين أخيرًا، كُنتُ مُتعبًا، استقبلتني أمي، قبّلت يديها ورافقتها إلى صحن الدار، قدَّمتْ لي أختي العشاء، بعد انتهائي تسامرتُ مع أمي وإخوتي "عاتكة، وهاجر، وبدر".

......

انتهى يومي سريعًا كعادته دون أن يكفيني، فهُناك الكثير من الأمور التي أود القيام بها.

خلوتُ بِنفسي أخيرًا وهَدرَ في أُذني صوت الريح المُتسلل من خِلال شقوق الجُدران.

رفعت طرفي نحو السماء، وقلبي ليس معي، كم وددت مُشاركة المُتهجدين في الأسحار هذه الليلة أيضًا، لكن طاقتي لم تعد تُسعِفُني، تلوتُ شيئًا من القرآن ونِمتُ أخيرًا؛ لأتقوى على إمضاء يومٍ جديد حافل بالأعمال.

* * *

حينما تناهت إليَّ من بعيدٍ أصواتُ الأهالي وهم يطلقون اللعنات والشتائم في نقاشاتهم، انتبهتُ وعُدتُ مِن رحلتي الذهنية نحو الماضي، وكزتُ جوادي وأكملتُ طريقي.

***

بعد عدة أيام

سأل مروان أخاه زيادًا:

- ما أخبارُ محمد؟

- لا جديد، يتسكعُ مُعظم الأوقات مع ابنةِ الزُبير، أظن أننا نرتاحُ مِنهُ أخيرًا.

- لا تكُن غبيًّا يا أخي.

التفتَ زياد إلى أخيه عاقدًا حاجبيه فقال مروان:

- أنسيتَ من هو زُبير؟

أطرق زياد يُفكر بِجدية فيما أوحاه له مروان بينما أدار مروان ظهره وراح يذرع الغرفة وهو يُفكر بِخبث ويقول:

- إن كان هُناك ما يُخطِطان له فيجب علينا معرفته.

***

ماريا

رغم أني كنت أخشى التعامل معه إلا أنني كنتُ شجاعة بالقدر الذي مكّنني مِن مرافقته إلى المقبرة.

أوقفني هُناك والحزن يَغمره ونظرةُ الأسى تغشى عينيه. أمام قبرين قرأتُ شواهدهما، وسَرَت موجة من الفزع في جسدي، تراجعتُ إلى الوراء بخطوات بطيئة ثم هرولتُ مُبتعدة.

على أعتاب صحن الدار جلستُ والقنديل الخافت يضيء في عتمة الليل، كُنت أتذكرهم جميعًا، وأتذكر التفاصيل التي قصَّها عليَّ مُحمد من ذكراهم، وشعرتُ بأنهم يُحدِّثونني مِن الماضي البعيد بأنفسِهم عن حكاياتهم ومشاعرهم حين كُنت أسترجعها كل ليلة قبل أن أنام.

***

مروان - 620 هـ

كنا في احتفال؛ فقد نجحنا بقطع الطريق على عشر قوافل في هذا النهار الحافل بالإنجازات المليء بالغنائم، ها هُم أصحابي يدقون الطبول بِمرحٍ حولي بينما أرقص بينهم بزَهوٍ كوني الأكثر شجاعةً وغَطرسَة رغم أني الأصغر سنًّا بينهم، وفيما كان أصحابي يشربون النّبيذ حتى تَبلّل وجوهم توجب عليَّ الرجوع إلى القرية هذه الليلة.

حيث إنني أسكن مع عِصابتي قُطّاع الطرق في مخبأ بعيد في صحراء خارج القرية.

كانت أمي تسأل عني كثيرًا بالإضافة إلى وجود عمل مهم يجب أن نُتِمَّه هذه الليلة وَفق تخطيط من أبي.

......

قضيتُ وقتًا بِرفقة عائلتي، وتناولت غدائي معهم وحين خرجتُ أتسكّع في القرية قرب بيت الشيخ هادي لمحتني عيناه فاقتربتُ لإلقاء التحية، صافحني وقبلني قائلًا:

- أين أنت؟ افتقدتُك في القرية لم أعد أراك أبدًا يا ولد.

ضحكتُ وأنا أوزع نظراتي في الأرجاء بثقة:

- لم أعد ولدًا يا عمَ، ودليلُ ذلك أن غيابي لأجل العمل.

- وفقك الله يا بُني!

- أشكرك.

- بما أنك عُدت فاجعل عشاءك الليلة عندي.

أصابني الارتباكُ وبدأتُ أُلفّق الحديث من حيثُ لا أعلم:

- أُقسم أنني اشتقتُ إليكم يا عم، وكلّي أملٌ أن ألبّي دعوتك، لكن أمهلني أيامًا فلديَّ عمل...

- اجعل هذه الليلة راحة لك من العمل.

أردف بعتَب:

- أترد دعوتي يا مروان...؟

- كلا، كلا يا شيخ إلا عتبك علينا، وإن أردت أدخل معك من الآن وأتناول العشاء وأنام عندك أيضًا، أخبرني ماذا تُريدُ أكثر؟!

أطلق الشيخ ضحكة حانية وهو يقول:

- تفضَّل، تفضَّل.

ضحكتُ مُستغربًا:

- ماذا، هل صدَّقت؟! سأذهب الآن وآتيك مساءً.

......

عُدت إلى أبي مُحتارًا:

- إنني لا أستطيعُ القيام بما اتفقنا عليه هذه الليلة.

بدا على وجه أبي التساؤل، فهمستُ في أُذنه بما أردتُ توضيحه، لكن المُفاجأة هي أنه التفتَ إليَّ ووجهه مُتهلّل:

- هذه فرصتك يا غبي! الليلة يُنفَّذ كل شيء وستكون في بيت هادي حتى لا يشك أحدٌ بأمرك مهما حصل، كما أنهم سينشغلون بضيفهم بينما يتسنى لرجالك العمل إلا إن كانت ثقتك بهم غير كافية.

- لا أبدًا، الرجال موضع ثقتي أنا من ربيتهم.

سرح أبي وهو يلعب بلحيته ويقول:

- إذن فأنا أنتظر الخبر منك أنت بإنجاز المهمة.

* * *

محمد

سألت كوثر والدها:

- مَن سيأتي إلينا الليلة؟!

تساءل ليث:

- وهل هُناك مَن سيأتي؟!

يُجيب هادي:

- أجل، كُنت أريد ذبح الشاة الصغيرة؛ لتوزيعها أساسًا، تولى أنتَ الأمر واجلب قسمًا منها إلى البيت؛ لتطهوه كوثر، ووزِّع الباقي على الفقراء، كما أريدك أن تملأ البيت من الفواكه.

- بأمرك يا أخي سأجهّز الشاة، والفاكهة فقد اشتريتها عصرًا، لكن فضولي يزداد، مَن سيأتي؟

نظر هادي من زاوية عينيه قائلًا:

- إننا نفعل ذلك مع كل ضيف يأتي إلينا، لماذا يزداد فضولك الآن؟

- لهذا السبب، أنك لم تُفصِح عن اسمه وكأنه سرّ.

ضحك الشيخ هادي:

- إنه مروان يا عزيزي، رأيتهُ في الجوار ودعوته.

لم يعلق ليث أبدًا بينما قالت كوثر بعفوية:

- حيّاه الله.

......

تذمّرَ ليث بينما كان يختار شاةً وتأسّف عليها فهو لا يُطيق مروان ولا يجده مُستحقًا.

وفي المساء بينما كان الشيخ هادي وليث منشغلان بضيفهما كُنتُ أنا ونور نلعب ونتجول في فناء البيت، وبعد لحظات أخذنا اللعب إلى الخارج، ابتعدنا قليلًا وفجأة افتقدتهُ ولم أجده بقربي، واجتمعتْ مشاعر الخوف والقلق والحزن، الحيرة والرغبةُ في البُكاء، كُل هذه المشاعر صارت تُحلّقُ في روحي.

أأَبحثُ عنه أم أرجع إلى البيت لِأُخبِرهم؟ وإن كُنت سأبحث فمن أين وإلى أين؟ بلا شعور، بدأتُ أمشي وأتلفتُ وأنادي.

- نوور! نور، نوور!

شيئًا فشيئًا صارت الدموع تنحدر على وَجنتي مع مناداتي لاسمه، سمِعني بعض الأولاد فأخذوني وأعادوني إلى البيت لإخبار الشيخ هادي.

فزَّ على قدميه وسرعان ما تغيّر لونه من اللحظة الأولى لسماع الخبر، وكان الصمت سيد تلك اللحظة.

تمالك الشيخ هادي نفسه بعد أن أغمض عينيه ووضع يده على صدره ورفع رأسه إلى السماء، تمتم:

- كان قلبي قد شعر بأن هُناك خطبٌ ما.

خرج مُسرعًا للبحث عنه، بينما كان مروان يقف وينظر إليَّ بعينين مصدومتين والدهشة والحيرة قد حلّت عليه، وكأن ما حصل لم يكن في الحُسبان أبدًا، هُنا تذكرّتهُ وتذكرت ما فعلهُ بِوالدي، هممت بإخبار ليث إلا أنه استدعى مروان على عجلٍ وهو يخرج مُسرعًا:

- هيًا، هيًا لنبحث عن الولد.

تحيّر مروان في أمرهِ، فأنا أمامهُ وليث قد دعاه؛ للبحث معه عن نور، اقترب مِني في تردد أراد أن يمسك بيدي لكن ليث عاد مُسرعًا، وحملني وركض وهو يسألني:

- أخبرني أين كنتما حين اختفى نور؟

عضّ مروان على شفتيه غيظًا، وقبض كفيه مُتحسرًا على فُرصةٍ أضاعها، الله أعلمُ عن نواياه وخفاياهُ، ركض وراء ليث وقطعت كوثر عجلة ليث ومروان وسألت من وراء الباب قائلةً:

- أفزعتموني، ما الذي حصل؟

التفت ليُجيبها مروان على عجل:

- نور اختفى، سنذهب للبحث عنه.

رمق ليث مروان شزرًا، بينما نحّاه عن الباب رغم أنه كان على بعد أمتار منه، لكنه انزعج بطبعه الغيور وأوصاها على عجل:

- ابقي هُنا أرجوكِ، سآتيكِ بنور لا تقلقي.

تركها في حيرتها، انحدرت دموعها على وجنتيها وصاحت:

- ما الذي تقولونه؟ أين ابني نور؟!

خرجت غير مُكترثة وراحت تركض في أزقة القرية المُظلمة؛ بحثًا عن نورِها وقلبها كحمامة تُرفرف.

وكان كلٌّ من الشيخ هادي وليث يحمل قنديلًا ويشق طريقهُ أيضًا في البحث عن نور، وينادي بأعلى صوته:

- نوور...! نوورا

- أين أنت يا ولدي؟

أما عن مروان فقد انفصل عنهم وامتطى الفرس الأسود الذي سرقه، وتوجه إلى خارج المدينة وهو في أوج غضبه وخوفه وتوتُّره من عواقبَ هو جاهلها، ضرب الفرس بالعِنان؛ ليزيد في سرعته، وكان يُسابق الريح التي تداعب شعره في كل الاتجاهات.

واستمرت عائلة نور بالبحث عنه كُلٌّ من طريق، وكُنتُ على كتف ليث وأُفكر بيأس: "أين هو نور يا ترى؟ ما الذي حلَّ به؟ هل كانت تِلك آخر لحظاتي معه، ألن أراك مُجددًا يا صديقي؟".

تباطأت خطواتُ الشيخ هادي بعد أن كانت حَثيثَة، كان يُحدث نفسه قائلًا: "لا أُريدُ أن أفقد الأمل، يا ربِّ أنت تعلم إلى أي قدر أُحب ولدي نور، وتعلم جيدًا أنهُ يعيش في قلبي، أسألك برحمتك أن ترأف بحالي وتُعيدهُ إليَّ!".

بدأت حُبيبات المطر بالتساقط ولا زال الشيخ هادي يجوب المنطقة إلى أن التقى بليث، توجه نحوه بتلهُّف وهو يرجو أن يجد لديه خبرًا عن مكان نور، توقف يبحث في عيني أخيه الذي أطرق برأسه مُتمتمًا بأسى:

- لم أجد لهُ أي أثر، بحثتُ في كل مكان.

......

أما كوثر فقد أخذتها أمومتها إلى حيث لا تشعر بأنها ابتعدت كثيرًا خارج القرية، حيث مرت على النهر الذي بين القرى ووصلت إلى مكانٍ غريب، وتسيرُ بحثًا ويزدادُ المطر ليمتزج بدموعها المَريرة، ارتفعت كفّاها بالدعاء وعن بعد لمحت طفلًا يركض مختبئًا، وتوجهت إليه في عُجالة حتى تعثرت في الوحل وبين النخيل قامت مُسرعة وهي تدعو الله أن يجعلهُ نورًا عِندما اقتربت بدأت تعد الخطوات التي صارت بطيئة: "لم أعد أستطيع أن أركض إليك، أخشى أن أصل فتكون سرابًا، وكأنني في كابوسٍ مُزعج أريد أن أركض لكن قدميَّ لا تحملاني".

وازدادت دموعها وصارت تُسابِق قطرات المطر ومدّت ذِراعيها، إنهُ يقترب، وارتمى نور في أحضانها، قبَّلتهُ، ضمته باكية، فجأة سمعا صرخةً قوية تلفَّتت بفزَع لتنظر:

- ما ذلك الصوت، مِن أين الصُّراخ؟!

أجابها نور:

- لقد قال لي: اختبئ هُنا حتى أُبعد الأشرار عنك.

عقدت حاجبيها مُستغربة:

- مَن هو؟ ومَن هم الأشرار؟

يُجيبها في حزن طفولي بريء:

- إنهم يضربونه، لكنهُ قويٌّ وسيُبعدهم ويأتي لأخذنا إلى جدي.

هاجمتها الأفكار دفعةً واحدة وكأنها تتيقّظ للتّو، تلفتت حولها:

- أين نحن؟ إلى أي طريقٍ وصلت؟

صارت تبحث عن أي مَعْلَم تعرفه لكن دون جدوى.

* * *

عدنا أنا وليث برفقة الشيخ هادي إلى البيت؛ للاطمئنان على كوثر وعِندما لم نجدها سأل الشيخ هادي:

- أين هي يا ليث؟

يُجيب بقلق ونوعٍ من الانفعال:

- لقد قُلتُ لها ألا تبرح مكانها.

- هذا لا يمكن، يجب علينا أن نبحث خارج القرية.

امتطى الشيخ هادي جَوادَه ولكزَه؛ لينطلق مُسرعًا بينما أركبني ليث أمامه على الجواد ولكزَه لنلحق به؛ بحثًا عن كوثر ونور..

لا أعتقد أن حوافر الخيل كانت أسرع من دقات قلب الشيخ هادي آنذاك، كُنتُ أُراقِب وجهه الذي خُطفت ألوانه. وهو يُسابق الرياح ثم

يلتفت إلى أخيه الذي قد احتقن وجهه أيضًا، فيرفع صوته مُحاولًا إيصاله من بين صوت الرياح إلى ليث:

- لا تقلقْ كوثر قوية.

يرفع ليث صوتهُ مُجيبًا:

- تُصبِّرني أم تُصبِّر نفسك!؟

- لا أعلم! إن كوثر غير معتادة على الخروج وحدها أبدًا، كما أنها لم تخرج قط في مثل هذه الساعة.

- أتمنى ألا يصيبها مَكروه.

- إنْ شاء الله، ليتهما يكونان معًا على الأقل!

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- أتمنى ذلك.

* * *

يصل مروان إلى مَخبئِه حيث يجتمع قطاع الطرق.

فتح الباب بركلة قوية وعِندما دخل ولم يجد أحدًا، ركلَ الأرض برجله في غضب شديد وصاح:

- أغبيـاء!

وخرج مسرعًا..

بينما كانت كوثر تحمل نورًا على كتفيها، وتتقدم نحو تلك الأصوات التي كانت تسمعها.

توقفت خائفة، ودققت النظر، كانوا رجالًا يضربون أحدهم، هربوا جميعًا وبقي مُمَدّدًا، يبدو منهكًا، تقدمت إليه بخطواتٍ بطيئة ووجدته مغشيًّا عليه، وجهه متورّما، مليئًا بالكدمات والجروح.

بدت مُحتارة، سأل نور ببَراءة:

- هل مات يا أمي؟!

- كلا يا بُني، يبدو أنه غائب عن الوعي فقط.

- أيمكنك إنقاذه...؟!

- طبعًا حبيبي، ليت أحدًا يمرُّ من هنا؛ لنطلب منه المساعدة.

بينما كُنا نسير دخل الشيخ هادي في طريق فرعي وبدأ جواده يدور حول نفسه، توقف ليث:

- ماذا جرى؟

يُجيبه وهو يتلفت في المكان المظلم:

- لا أعلم، يجب علينا سلوك طريق آخر فكوثر مِن هُذه الناحية، شعرتُ بهذا.

تأمل الطريق للحظات ثم انطلق نحوه ونحن من خلفه، اقتربنا بعد عدة دقائق وكوثر كانت تمشي باتجاهنا ونور في حُضنها، ترجل هادي من جواده وركض نحوها، ارتمتْ في حضنه تبكي، وهو يُهدئها ويقبل رأسها، ضمها ونورًا إليه بشدة بينما أمسك ليث بيدي ورحُنا نُشاركهم

ذاك الحضن الجميل، تعانقنا جميعًا نحن الخمسة وكان أدفأ عِناقٍ شَهِدَتْه جوارحي.

......

قال ليث:

- ما الذي أتى بِكما إلى هُنا؟

عِندها التفتتْ كوثر إلى الوراء:

- هُناك جريح، الذي أنقذ نورًا، طريحٌ على الأرضِ هُناك.

ركض ليث والشيخ هادي لكن المُفاجأة أنهما لم يجدا أحدًا:

- كيف هذا؟؟ لقد كان بحالة لا يستطيع فيها رفع يده حتى! أين يمكن أن يكون قد ذهب...؟

رفعتْ رأسها واتسعتْ حدقتا عينيها خوفًا:

- رُبما قتلوه.

بعد حيرة دارت بينهم لثوانٍ قال ليث:

- حسنًا يا أخي خُذ أنت العيال إلى البيت وأنا سأبحث في الجوار وأستطلعُ الأمر.

* * *

عبد الرحمن يقطع صحن داره ذهابًا وإيابًا في توتر، ينتظر قدوم أحد ابنيه، وصل زياد الذي تتضح آثار الجروح على وجهه.

صرخ عبد الرحمن:

- هل أرسلتك إلى بيت هادي؛ لتتعارك أم لتطمئن على محمد؟!

هدأ قليلًا بعد صمت زياد وأخفض صوته بحذر:

- لم للتوّ تأتي و....

قاطعه دخول مروان الذي يستشاطُ غضبًا:

- ليس محمد وإنما اختَطَفَ نور ابن الشيخ هادي.

شهق عبد الرحمن واتّسعت حدقّتاه وصارت تشتعل كأنه شيطانٌ رجيم:

- ماذا قلت؟! ما هذا الهُراء؟!

- لستُ أنا مَن قام باختطافه وإنما رجالك.

شد عبد الرحمن مروان من ثيابه بغضب:

- أهؤلاء هم رجالك؟ لقد أحدثوا ضجّةً بلا فائدة نرجوها وإنما العكس..

صار يُحدِّثُ نفسه: "يا ويلنا إن أدركونا".

ثم عاد؛ ليصبَّ جامَّ غضبه على مروان:

- وأنت، أين كنت؟ لماذا لم تخطف الولد بينما كانوا منشغلين بالبحث عن ذاك الآخر!

يُجيب بانفعال:

- لم يتركوه، اللعنة رغم ما هم فيه من أمر أنفسهم لم يتركوه.

خرج مروان غاضبًا إلى رجاله، دخل عليهم بهدوء، وسأل:

- ما هي الأخبار؟

أجابه أحدُ الرجال:

- أحدهم أفسد علينا كل شيء وأنقذ الولد.

- من هو؟

- لا نعرفه.

صد مروان عنه بوجهه في هدوء وهو يُتمتم:

- لا تعرفه إذن ها!

تغيرت ملامح وجهه فجأة، نهض ليُباغته بلكمةٍ قوية على وجهه، ثم يصيحُ فيهم جميعًا:

- أغبياء، لقد كان الولد بعهدتكم أسبوعًا كاملًا، أبهذه السرعة انمحت صورته من عقولكم؛ لتخطفوا ولدًا غيره!!

حلت عليهم الدهشة، وخيَّم صمتٌ ممزوج بالخجل.

* * *

عِندما عاد نور إلينا وقبل أن ننام تِلك الليلة جلستُ بِقربه، قُلت له بكامل عفويتي وبراءتي:

- أنا أُحِبكَ يا نور، لماذا ابتعدت عني؟ لقد خِفْتُ ألا أراكَ بعد.

- أنا أيضًا خفتُ كثيرًا، لكن الله أنقذني وجمعني بِكم مُجدَّدًا، الحمد لله.

أوشكتُ على البُكاء وقلت بصوتٍ مخنوق:

- أنا أُريدك معي في كل مراحل حياتي يا نور، عاهدني على ألا تُفارقِني أبدًا.

عِندها نهض نور من فِراشه وعانقني ثم نظر في عيني وهو يبتسم ببراءةٍ:

- عاهدتُكَ الله ألا أتركك أبدًا، وأن تبقى صاحبي، حتى وإن تباعدنا سأبقى أذكرك وأبحثُ عنكَ وسأشعر بك في كل أحوالك.

- أنا أيضًا سأبحثُ عنكَ دومًا.

في هذه اللحظة دخل علينا الشيخ هادي مُبتسمًا وهو يقول:

- مَن قال إنكما ستفترقان؟!

نهضنا نتسابق إلى حضنه فصار يُقبِّل كلينا ثم نظر في أعيُنِنا وقال:

- أنتما ولداي وستكونان أملًا كبيرًا لهذه القرية، سأُعلِمكما كل شيء من الطفولة؛ فإني أرى في قلبيكما نورًا مُختلفًا يا عزيزيَّ، كما أنكما ذكيَّان جِدًّا، وستنضمان إلى مدرستنا بالتأكيد، أليس كذلك...؟

أجبناه بحماسةٍ:

- أجل، أجل.

- سنكون أول المنضمّين.

قال بلهجةٍ مرحة:

- إذن، فهذا يحتاج إلى أن تناما باكرًا، هيا لأرى الكل في فراشه.

تسابق كلٌّ مِنا إلى فراشه، وكان ذراع واحد فقط يفصل بين فراشي وفراشه، قرأ كل منا ما يحفظ من القرآن قبل أن نغط في نوم عميق.

......

هبتّ نسائِمُ باردة، إنها بِدايةُ الشتاء.

بعد أن أُطفئت قناديل فناء البيت والممرات وصحن الدار وحل هدوءٌ لطيف ونام الجميع، قرع ليث باب غرفة الشيخ هادي ولما أذن له بالدخول اقترب مِنه حيث يجلس على مُصلّاه ويُشعل قِنديلًا خافتًا يُضيء ما حول مِحرابِهِ فقط، جلس عِنده مُتقلب الأحوال فسأله الشيخ:

- ما وراءك؟

تكلّم ليث بهمس:

- أنا، كنت أظن أن نورًا قد ضاع، لكنه اختُطِفَ كما تبيّن لنا، من يُمكن أن يفعل شيئًا كهذا؟ ولِمَ؟

- إنني أُفكر بالشيء ذاته يا أخي، أأنت مُتأكد من أنك لم تجد شيئًا هُناك...؟

– لقد بحثتُ في كل مكان، لم أرَ رجلًا طريحًا ولا أثرًا!

رفع الشيخ هادي رأسه مُتنهدًا في حيرة:

– هذا غريب!

– نحنُ لا أعداء لنا، ولم تحدث لنا إلى الآن أي مشكلة في القرية.

بعد تركيزٍ قصير تذكّر ليث أمرًا فأردف قائلًا:

– كان مروان موجودًا حين أخبرنا محمد باختفاء نور، كُنا قد خرجنا معًا؛ للبحث عنه، أين اختفى لاحقًا؟!

***

عمران

حينما عُدت إلى أمي مُحطم الوجه تِلك الليلة والدماء تسيل من مناطق متفرقة في جسدي، كادت تزهق روحها، لكني مع كل أوجاعي صبّرتها:

– لا شيء هُناك، لا تقلقي، إني بخير.

شهقَت باكية:

– أيُّ خيرٍ هذا يا بُني، مَن فعل بك هذا...؟

قُلتُ في تعب وأنا أجرُّ خُطاي للداخل بصعوبة:

– أُريد أن أرتاح.

قالت بخوف ولهفة وهي تَلحقُني وتُحيطُني بذراعها وتنظر في عيني:

– يجب أن يراكَ طبيب..

في هذه الأثناء جاءت عاتكة مُسرعة ما إن رأتني توقفَت ووضعَت يديها على فمها واغرورقت عيناها بالدموع:

- أخي ماذا جرى لك؟ أنت لا تتعارك مع أحد في العادة!

أسندتني أمي بمساعدة عاتكة وجعلاني أستريح على فِراشي...

كُنتُ مُتعبًا لم أعرف كيف وصلتُ للبيت وأنا بِتلك الحالة، ومع إصرار أمي بمناداة الحكيم إلا أنني لم أشأ أن أُقلِقَ راحةَ ليث في ليلةٍ كهذه، وبقيتُ أرجو شفاء أوجاعي وتوسّلت أمي أن تنام، وتؤجِّل أمره إلى الغد إن لم أُصبح بخير.

غفوتُ وبقيت أمي عِند رأسي، كانت تستمرُ بتضميد جِراحي وغسلِ دمائي وما عَلِقَ بوجهي من أتربة.

وكانت تُطِل عليَّ أختي بين الفينة والأخرى!

آخر ما رأيتهُ قبل أن تغفو عيناي كانتا شفتي أمي وهي تُتمتم بأشياء لا أفهمها ونظرات خوف وقلق في عينيها، واستيقظتُ بينما كانت كفَّا ليث تُقلّبانني!

فعلى ما يبدو أن حالتي ساءت فاستدعوه ليراني، عِندما فتحتُ جفنيَّ ابتسم لي وكادت نظرتهُ الحانية تِلك أن تُشفيَني، وعندما استعدتُ وعيي تمامًا قال مُمازحًا:

- ما هذا يا عِمران! أرجوك قل لي إنهم كانوا عشرة رجال.

ضحكتُ بِصعوبة:

- كانوا أربعة.

فجأة تغيرت ملامح وجهه للجدّية فقلتُ:

- ماذا؟ أم أنني بدوت في عينيك جبانًا!! يجب عليك أن تراهم أيضًا فأنا لم أقصر في تلقينهم درسًا.

أطبق جفنَيه وكأنما يعود لنفسه ويضحك بخفوت ويقول لي:

- كيف تشعر الآن أخبرني؟

- إنني أفضل.

- لا بأس عليك، تعرضتَ لرُضوض وجروح، ادهُن جروحك بالمرهم هذا كل يوم.

سكت قليلًا ثم استطرد في شك:

- هل لي أن أسأل كيف حصل هذا؟

- دعك منه فهو ليس بالشيء المهم.

- أكنت خارج القرية ليلةَ البارحة؟ حين حصل هذا؟

حين صمتُّ أردف قائلًا:

- لقد ضاع نور ليلة البارحة ووجدناه خارج القرية، قال إن أحدهم أنقذه من بين أيدي الأشرار! وقالت كوثر إنها وجدت الرجل مُلقى على

الأرض جريحًا! كُنت سأقول إنه ضاع لولا ما رواه لي، فإن كان حديثه صحيحًا يجب عليَّ معرفة الفاعل وسبب فعلته.

قاطعته:

- ما راوهُ صحيح، رأيتهم في طريق عودتي يختطفونه!

باهتمام وانفعال:

- مَن هم؟!

أطرقت بأسف:

- صدقني لا أعرفهم، ليسوا من هنا.

قال باستنكارٍ تصحبهُ الدهشة وهو يسرحُ بعيدًا:

- كيف...! من قد يُكنّ لنا العداء هكذا، لماذا؟!

- كيف اختطفوه؟ أعني أين كان؟

- كان يلعب مع محمد أمام البيت.

- لماذا هو وليس مُحمد؟ كيف عرفوا أن نورًا هو ابنكم؛ ليختطفوه؟

صمت يفكر بعُمق ثم التفتَ إليَّ باسمًا:

- عمومًا أنا لا أعرف كيف عليَّ أن أشكرك وأرد لك جميلك.

- لم أفعل إلا واجبي لكن لي طلبٌ صغير.

- اطلُب ما شئت.

- لا أُريد أن يعلم الشيخ هادي بأنني من أنقذتُ حفيده.

قاطعني:

- لكن...

قاطعتهُ:

- أنا لم أفعل ذلك لأحظى بمديح أو عطاء، لذلك أرجوك أن تجعله سِرًّا بيننا، لا أريد لأحد أن يعرف.

كان هُناك نداء في داخلي يُخبرني دومًا أنني أُريد أن أكون قريبًا بشكل ما من الشيخ هادي، رُبما كتلميذٍ مثلًا، لا أعلم، ما أعرفه هو أنني أُريد مُرافقته في العروج إلى السماء بروحي يجب عليَّ أن أُربي نفسي على النحو الذي هو عليه، يجب عليَّ الاقتراب من الله كما يفعل وإنْ أمكن فأقرَب!

إنه السبيل الوحيد هُنا إلى ذلك، يجب أن يُرشِدَني ولا يجب أن يكون ذلك محصورًا بخيرٍ فعلته أو معروفٍ قدمته.

عِندما خرج ليث دخلت أمي مع عاتكة؛ للاطمئنان عليَّ، سألت أمي بلهفة:

- ماذا قال الطبيب يا بُني؟

- إنني بخير لا تخافي، أعطاني هذا المرهم.

جلست بجانبي، تأملت جِراحي قليلًا ثم أزاحت خُصلة شعري المُنسدلة على عيني بلطف:

- ليحفظك الله لنا يا بُني، انتبه لنفسك فمن لنا غيُرك يا عزيزي، أنت أصبحت رب هذه الأسرة بعد والدك رحمه الله، ما الذي سنفعلهُ إن أصابك مكروه!

أخذت يدها فقبلتها:

- أطال الله في عمرك يا أمي، لا تحرميني من دعواتك الحُلوة هذه وأنا سأكون دومًا بخير.

ابتسمت باطمئنان أخيرًا ثم سألت:

- أهذا هو الطبيب أخو العالِم المشهور هادي؟؟

- أجل يا أمي، ليث سيصبح عالِمًا أيضًا كأخيه، فقد تتلَمذَ أيضًا على أيدي العلماء مُنذ طفولته، وسيواصل تحصيله الآن في المدرسة التي يُجهِزونها.

- ما شاء الله، عالِمٌ وطبيب، وفي طلّتهِ كم يبدو بهيًّا ونبيلًا.

أثـار انتباهي في تِلك الأثنـاء احمرارُ وجنتَيْ أختي عاتكة وانسحابُها من الدار بصمت.

......

بعد ساعة نهضتُ لأُصارع حياتِي الكادِحة مُجددًا، بدَّلتُ ثيابي وخرجتُ للعمل رغم توسُّلات أمي لي بالبقاء وأخذ قسطٍ من الراحة، إلا أنني لم أستطع فاليوم سيحضر ضيوف العمدة عثمان من كِبار التجار وقد وعدتهُ بحضوري إلى جانبه..

وقد كانَ كل شيء كما أَمِل العمدة بحمد الله، قرر جابر المكوث في المدينة أيامًا إضافية حيث كان من ضمن الضيوف فعلًا كما خمَّنا، وذات يوم ناداني وطلَبَ مِني أنْ آخذ له ألف ألف درهم من العمدة عثمان على أن يُرجعها جابر إلى العمدة بعد شهرين، ويكون عليها خمسمائة ألف درهم بعنوان الهدية، ذهبتُ إلى العمدةِ عثمان وقلتُ له:

- إن جابرًا يُريد مِنك ألف ألف درهم لمدة شهرين وعليها خمسمائة ألف درهم هدية.

سألني سؤالًا واحدًا فقط:

- أتثِقُ به...؟

أجبتُ:

- نعم.

فقام على الفور وجاءني بنصف المبلغ وقال لي:

- سيُعطيكَ عادل النصفُ الآخر.

وكان عادلٌ أيضًا أحد تجار المدينة الذين نعرفهم، وبالفعل طرق باب بيتي في ليلةٍ شديدةِ البرودة وكان يرتدي بُردةً ثقيلة وأعطاني النصف الآخر للمبلغ وقال مُنبِّهًا:

- هذا المبلغ لي أنا.

حينها تعجبتُ من قوله؛ لأنه كان يتعامل مع العمدةِ عُثمان على أن مالهما واحد، هذا ما كان ظاهرًا، لكزَّ فرسه وانطلق مُبتعِدًا وبقيت أراقبه حتى بدأت المسافةُ بيننا تتّسع، أغلقتُ باب بيتي وأخذتُ المبلغ وحملتُ قنديلًا وتوجهت حيثُ جابر فورًا، وأعطيته الألف ألف درهم.

مُحمد

بعد يوم واحد من حادثة اختطاف نور مرض هادي، وهذا هو اليوم الثالث على التوالي الذي لم يستطع فيه الخروج إلى المدينة، وكان البيت لا يخلو من الزوّار الذين يأتون لعيادته والاطمئنان عليه، كنا أنا ونور ندور حول النافورة في فناء البيت، عِندها دخل مروان برفقة أبيه عبد الرحمن ويا لرهبتي! فقد هاجمتني ذكريات من حيث لم أحتسِب!

توقفتُ، وتوقف نور عِندها فالتفتُّ إليه بعد أن دخلا:

- هذا هو الرجل الذي اقتاد والدي من بيتنا.

كان ليث يقف خلفنا فأسرع نحوي في ذهول، انحنى إليَّ:

- ألنت مُتأكِدٌ مما قلته...؟

- أجل، لقد أخذنا أنا وأمي بعد ذلك إلى بيت امرأةٍ عجوز، وعِندما ماتت أمي بقيت أختي التي أنجبتْها عِند صاحبه.

بدهشه قال:

- مُحمد، ما الذي تقوله! ألك أختٌ لا نعرف أين هي...؟ لماذا لم تُخبرنا من قبل!

- لا أعلم.

نهض ووضع كفّه على وجهه ثم رفع رأسه إلى السماءِ مُتنهدًا، وكان يتذكر حديثه مع أخيه قبل أيام، حين سأله عن قتلة والدي:

- إلى الآن لم أستطع التوصل إلى المجرمين الذين يتَّموا محمدًا رغم أن بحثي مُستمر.

- أنا أُفكر، ماذا لو كان هدف الخاطفين محمدا وليس نورًا؟ فأنا سأفقدُ عقلي ولن أستطيعَ التوصل إلى عدوّ لنا لهُ مصلحة باختطاف نور!

- كلامك صحيح لا احتمال أكثر منطقيةً من هذا، فأيًا كان الفاعل فهو ذاته قاتل أبي محمد.

- وهو يحوم حولنا الآن؟

- يجب علينا إيجادهُ وحماية الولدين.

أسرع ليث إلى الداخل، جلس دون أن يُبدي شيئًا، وكان الشيخ هادي يُجيب الموجودين عن سبب تعبه ومرضه الذي كرره كثيرًا لكل من زاره:

- لم أحتمل توتُّري وقلقي ليلة اختفاء نور، خفت عليه وعلى أمه فمُنذ أن كبرت ابنتي أصبحتْ أمًّا لنا جميعًا، ولم تعد تبكي، وعِندما بكت في تِلك الليلة آذاني بكاؤها وأرهقني.

حينها تعجبتُ من قوله؛ لأنه كان يتعامل مع العمدةِ عُثمان على أن مالهما واحد، هذا ما كان ظاهرًا، لكزَ فرسه وانطلق مُبتعِدًا وبقيت أراقبه حتى بدأت المسافةُ بيننا تتّسع، أغلقتُ باب بيتي وأخذتُ المبلغ وحملتُ قنديلًا وتوجهت حيثُ جابر فورًا، وأعطيته الألف ألف درهم.

مُحمد

بعد يوم واحد من حادثة اختطاف نور مرض هادي، وهذا هو اليوم الثالث على التوالي الذي لم يستطع فيه الخروج إلى المدينة، وكان البيت لا يخلو من الزوّار الذين يأتون لعيادته والاطمئنان عليه، كنا أنا ونور ندور حول النافورة في فناء البيت، عِندها دخل مروان برفقة أبيه عبد الرحمن ويا لرهبتي! فقد هاجمتني ذكريات من حيث لم أحتسِب!

توقفتُ، وتوقف نور عِندها فالتفتُّ إليه بعد أن دخلا:

- هذا هو الرجل الذي اقتاد والدي من بيتنا.

كان ليث يقف خلفنا فأسرع نحوي في ذهول، انحنى إليَّ:

- أأنت مُتأكِدٌ مما قلته...؟

- أجل، لقد أخذنا أنا وأمي بعد ذلك إلى بيت امرأةٍ عجوز، وعِندما ماتت أمي بقيت أختي التي أنجبتّها عِند صاحبه.

بدهشه قال:

- مُحمد، ما الذي تقوله! ألك أختٌ لا نعرف أين هي...؟ لماذا لم تُخبرنا من قبل!

- لا أعلم.

نهض ووضع كفَّه على وجهه ثم رفع رأسه إلى السماءِ مُتنهدًا، وكان يتذكر حديثه مع أخيه قبل أيام، حين سأله عن قتلة والدي:

- إلى الآن لم أستطع التوصل إلى المجرمين الذين يتَّموا محمدًا رغم أن بحثي مُستمر.

- أنا أُفكر، ماذا لو كان هدف الخاطفين محمدا وليس نورًا؟ فأنا سأفقدُ عقلي ولن أستطيعَ التوصل إلى عدوّ لنا لهُ مصلحة باختطاف نور!

- كلامك صحيح لا احتمال أكثر منطقيةً من هذا، فأيًّا كان الفاعل فهو ذاته قاتل أبي محمد.

- وهو يحوم حولنا الآن؟

- يجب علينا إيجادهُ وحماية الولدين.

أسرع ليث إلى الداخل، جلس دون أن يُبدي شيئًا، وكان الشيخ هادي يُجيب الموجودين عن سبب تعبه ومرضه الذي كرره كثيرًا لكل من زاره:

- لم أحتمل توتُّري وقلقي ليلة اختفاء نور، خفت عليه وعلى أمه فمُنذ أن كبرت ابنتي أصبحتْ أمًّا لنا جميعًا، ولم تعد تبكي، وعِندما بكت في تِلك الليلة آذاني بكاؤها وأرهقني.

أثناء حديثِهِ هذا كادت نظرات ليث الثاقبة أن تخترق مروان؛ فالتفت مروان إليه وسرعان ما أشاح ليث بوجهه بعدم ارتياح، ولم يَخْفَ هذا على الشيخ هادي طبعًا.

......

بعد خروج الجميع جاءت كوثر تُمَرِّضُ أباها، وتهتم به، فهي لا تتركه لحظة واحده إلا عند قدوم الزوار، بدأ يسعل فقامت تُسمي عليه وتمسح على ظهره ثم تلتفت؛ لتسكب له الماء من الجرّة التي على المِنضدة يمين السرير، وظلت تتأملُ وجهه بقلقٍ وقلبها يضج بالأدعية حتى هدأ سُعاله، طلب مِنهُ ليث أن يغفو ليرتاح، لكنه أصرّ عليه قائلًا:

- لقد عرفتَ شيئًا مُهمًا، أخبرني به الآن.

- لا شيء جديرٌ بالذكر الآن يا أخي المهم هو راحتك.

- ما كان وراء نظراتك تِلك في محضر عبد الرحمن وابنه مروان؟

* * *

كانت عِصابة مروان تجتمع من دونه في مخبئهم الكائن خارج المدينة، وكان طارق يلمُّ حاجياته بغضب ويستعد للمغادرة فينظر إليه أحد أصحابه مُتعجبًا:

- ماذا تفعل، هل ستترك مروان؟

يُجيبه بانفعال:

- ومَن هو مروان حتى لا أتركه؟! أيُهينني ويضرِبني بعدما تلقيتُ ضربًا مُبرحًا مِن ذلك الشاب بسببه أساسًا.

يحمل أمتعته وهو يردف مُتمتمًا باستياء:

- مُتعجرِفٌ، مُتذمّر لا يُعجبه شيء.

التفت إلى أصحابه قبل خروجه:

- وأنتم...! أتبقون معه رغم كل شيء؟؟ رغم أنه الأصغر سِنًّا بينكم تسمحون له بإهانتكم، ستبقون في عينيه أغبياء دومًا.

في هذه الأثنـــاء دخل للتوّ أحد أصــحابهم فتعجب مما رأى وعقد حاجبيه:

- ما الأمر...؟ هل يُغادِر؟!

أجاب أحدهم بتهكُّم بعدما أخذ طارق الطفلة الصـغيرة "أخت محمد" وهمَّ بالخروج:

- أجل، وسيطلب الطلاق!

انفجروا ضــاحكين، بينما كتم الذي دخل للتوّ ضــحكته، وخرج طارق غضبان وأغلق الباب بقوة وراءه.

***

هبط الليل،

وأمسى البيتُ مكانًا حزينًا، باردًا مُنذ اللحظة التي تذكرتُ فيها ما جرى على عائلتي، ولم يغمض لي جفن، بدأتُ أبكي، فأسرع نحويْ نور خائفًا مُستغربًا:

- لماذا تبكي يا مُحمد، أأنت خائف؟!

كُنت أجهش في بكائي فقط، فخرج نور وأخبر عمه ليثًا على الفور فجاءني مُسرعًا ووراءه كوثر، قالت بنَبَرتها الحانية:

- لا تبكِ يا صغيري، أنت ابني كما هو نور، لستما صديقين أنتما أخوان يا عزيزي.

صِرتُ أُراقبُ عينيها اللطيفتين التي طالما كانت نوافذ شفافة لروحها المُرهفة، ويَعْبُرُ من خلالها دفءٌ كضوء الشمس في الشِتاء، رفعت حاجبيها وابتسمت لي، قُلت بينما ليث يمسح أدمعي:

- إنني حزينٌ جِدًّا حيال ما جرى لعائلتي، كما أنني أُريد أختي.

ربّت ليث على كتفي ثم احتضن وجهي الصغير بين كفيه وأسند جبينه لجبيني ووعدني قائلًا:

- غدًا، عِندما يتحسّن أخي سنُحاسبُ المجرمين ونستعيدُ أختك.

آنذاك كان قد هدأ روعي واستطعتُ أن أنام.

***

أشرق صباح يومٍ جديد، ونهض الشيخ هادي أخيرًا، دخلت كوثر لغرفته مُمسكة بيدها طبق الفطور، ما إن رأته واقفًا على قدميه حتى علتها الدهشة وبسرعة وضعت الطبق على المنضدة الخشبية التي تحت النافذة:

- ولكن يا أبي...

قاطعها مُبتسمًا وهو يلتفت نحوها بكامل جسده ويمسح على رأسها ثم تهبط كفيه لتحتضن وجهها بِلطف:

- أنا بخير يا عزيزتي.

- ليتك صبرت للغد.

- صدقيني أشعرُ بِتحسُّنٍ، ثم إنني مللت السرير والبيت.

- أنا والبيت لم نملّ منك، لا تذهب.

- سأذهب.

تردّ بِعناد:

- لن تذهب.

بإصرار:

- سأذهب.

- لا.

- كوثر! يجب أن أرى أحوال الناس، كما تعلمين فقد عرفنا قاتل أبي محمد.

- أجل أخبرني ليث بذلك، ليتك لا تُبقِ من المجرمين أحدًا على أرض هذه القرية يا أبي.

-﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾. [السجدة:22].

- مع ذلك انْتَبِهْ لنفسك أرجوك.

رمَقها مِن زاوية عينه:

- لا تقلقي عليَّ يا مُشاكِسة.

ضحكت كوثر...

بدأ يلفُّ عمامتهُ أمام المرآة، أتته بِبُردته ووضعتها على كتفيه وصارت تتأملهُ.. كم كان يشعُ بهاءً وثقة.

خرج إلى القرية، استقبله الجميع بشوق، كان الكلُّ سعيدًا مسرورًا بتحسنه، وكلما مرَّ أحدٌ بطريقهِ ألقى السلام وحمد الله على سلامته وعبَّر عن شوقه واختصر أحدهم مشاعر الجميع في جُملةٍ قصيرة قالها للشيخ هادي:

- أيتَمْتَنا بِغيابك...!

......

طَلَبَ الشيخ هادي من وجهاء المدينة التوجه معه إلى العمدة عُثمان في أمرٍ مهم، وهُناك كان الجميع بانتظار ما سيقوله، تكلَّمَ أخيرًا:

- كما تعلمون أننا فقدنا أخانا وعزيزنا أبا محمد على أيدي عصبة مجرمين وقضى نحبهُ مظلومًا، وكان حقًّا علينا نصره وكفالة يتيمه ورعايته، وبينما كُنا جميعًا وراء معرفة هوية القتلة فقد كانوا هم أيضًا وراء الطفلِ مُحمد.

فقد حاولوا اختطافه من بيتي لسبب نجهلهُ؛ هذا ما استطعتُ التوصل إليه بعد تفكير عميق مع أخي، وفي يومٍ تَعَرَّفَ محمد أخيرًا على أعداء والده، وقد صَرَّحَ بأنهُ قد رأى مروان ضِمنَ الذين هاجموا بيتهم وأخرجوا والده مِنهُ عُنوة! ورآهُ في موقفٍ آخر قبل وفاةِ أمه.

كما أننا نعلم جميعًا أن عبد الرحمن هو الذي أحضر محمدًا إلينا بسهولة بينما كُنا نُمزّقُ أنفسنا لمعرفةِ مكانه، ألا يُشَكِّلُ هذا في أذهانِكم أيَّةَ غرابة؟! هذا قولِي أنا فما الذي تقولونه أنتم يا رجال؟!

......

بينما كان الشيخ هادي يتحدث كان أحد المتطفلين بالخارج قد استرق السمع، وما إن أنهى هادي حديثه حتى ركض ذاك المُتطفل؛ لينشر ما سَمِعهُ بين الناس وسط المدينة وفي السوق.

......

ثارت بعض الجلَبة في الاجتماع ذاك لتداخل آراء كُبراء القرية في وقتٍ واحدٍ حيث كان أحدهم يشتم عبد الرحمن ويذكر بعض المواقف التي جعلته لا يستبعد منه فعلًا كهذا، بينما كان يتساءل البعض الآخر كيف تجرَّأ على فعلته؟ وطالب آخرون بالتأكد من الأمر حيث إنه مجرد حديث طفل صغير بينما كان الشيخ هادي يقرع الطاولة التي عن يمينه مُحاولا تهدئتهم دون جدوى، ضرب العمدة عثمان الطاولة بقبضة يده بقوة أكبر، ثم قال بعد أن التزم الجميعُ الصمت:

- يجب علينا التأكد قبل كل شيء لكن أثنــاء ذلك يجب علينا حماية الولد جَيدًا، فأيًا كان القاتل والخاطف فهو مجرم خطير وَضـعَنا في مواجهته.

أجاب الشيخ هادي:

- ليث لم يبرَح البيت، بقيَ لحمايتهم بينما نُقرر ما سـنفعله حيال الموضوع.

* * *

كان عبد الرحمن يذرع دكانه بغضب وتوتُّر بعد أن أحكم إغلاق باب الدكان على نفسه وظل يُحدث ابنه زيادًا وصوته يعلو مع كل كلمة يقولها:

- كُنت أعلم، كُنت أعلم منذ بداية قدومه أنه سيتسببُ بافتضاحي، كان الأمر جليًا فهو لا يتوقف عن إصلاح كل شيء ونَبش كل شيء، لقد أتى إلينا كالصاعقة أو الدمار.

وفي اللحظة التي سأل فيها زياد والده بقلق حيال الضجّة التي أحدثها الناسُ عند باب دكانهم:

- ما الذي سنفعله؟!

التفت الاثنـان بفزع ناحيـة الباب حيث إن النـاس قـد كسَـروه وهجَموا.

* * *

بينما كان العمدة يتحدث مع الرجال، وإذا بضجة كبيرة في الخارج تصل إليهم من قريب فقام هو والشيخ هادي وبقية الرجال مُسرعين؛ ليروا ما الأمر بالخارج.

وإذ بالناس تجتمع عِند الباب بعدما أخذوا عبد الرحمن اقتيادًا من دُكانه وهو في حالةٍ عصبية بين تلقّي الشتائم والضرب بالأحذية، أسرع الشيخ هادي برفعه وإبعاد الناس عنه:

- ما الذي يجري هُنا...؟

بدأت الضجة تزداد علوًا بتداخل كلامهم في الوقت ذاته:

- إنه قاتل أبي محمد.

- لقد كان أبو محمد أخًا وجارًا صالحًا وصديقًا عزيزًا، هذا هو قاتله.

- اقتلوه.

- أجل، الثأر لأبي محمد، الثأر.

بينما هم كذلك دخل مروان راكبًا فوق حصانه فقد عاد للتوِّ من خارج القرية، وبدأ ينظر للهرْج والمرْج الذي يحصل بغرابة ليتفاجأ على الفور بهجوم الناس وإنزاله من فوق الحصان ومن ثم إيقاعه أرضًا و:

- هذا لصّ وقاتلٌ أيضًا، لقد سرق دُكّاني ذات مرَّة، وعندما أخبرتُ الجيران لم يُصدقني أحد.

- أنا أيضًا رأيتهُ يقطع الطريق مع عصابة على قافلة ابن عمي.

بِتلك الأحاديث كانوا يصـرخون ويضـربون وعبثًا حاول الشيخ هادي ومَن معه التدخل؛ لتهدئة الأمر.

بدأ الناس بِمُحاكمة مروان وأبيه دون أن يستطيع أحد إيقافهم:

- مَن منكما قتل أبا محمد؟

- هل قتلتموه حقًّا؟

- لماذا؟ تكلما!

كان الشيخ هادي والعمدة عثمان وبقية مَن معهم ينظرون لبعض بحيْرة وكأن أعينهم وهمساتهم تتساءل عمن سرّب حديثهم!

لم تقطع تِلك الضجة إلا صرخة عبد الرحمن:

- لستُ أنا.

سكت الجميع فعاد يُكرر:

- أنا لم أقتل أبا محمد.

وجه نظرة غاضبة نحو مروان وهو يقول:

- عِصابة مروان الفاعلة، هُم تآمروا على قتله حينما شَهِد على قتل رجل آخر كانوا يسرقون دكانه، كما أنه تعقبهم لفترة من الزمن وشَهِدَ جرائم أخرى، أخبر زوجته بجميعها وكان مُصِرًّا على فضحهم، لذلك أخذوا زوجته بعيدًا بعد قتله كي لا تستطيع لقاء أحدٍ أو إخباره بشيء.

بينما كان مروان ينظر إلى أبيه بعينين غير مصدقتين، كان الناس في ذهول، وأكمل عبد الرحمن سَرْدَ الجرائم التي افتعلها مروان وعصابته إلى أن قال:

- ولكي لا يتوصل الشيخ هادي إليهم ويُفتضح أمرهم أسرعتُ بإعادة محمد إلى هُنا قبله وقبل الجميع.

ولكي يبدو هادي مُهملًا وغير جديرٍ بالثقةِ أمام الناس حاولتُ اختطاف محمد مُجددًا، لكنني لم أنجح، اللعنة فهادي لم يترك ذلك اليتيم حتى بينما كان مشغولًا بنفسه وحفيده الحقيقي.

ثار غضب الناس وعادت الضجة إلى الساحة فصرخ عبد الرحمن مُردفًا:

- أنا شريكٌ لولدي، في كل جرائمه.

أطلق مروان صيحة من بين شفتَيه وهو يطبق على نواجِذه غيظًا:

- ما الذي تقوله!

صرخ بقوة على والده:

- أجُنِنتَ؟؟

كان عبد الرحمن يبتسم بِخبث بينما توالت عليه وعلى مروان هجمات الناس ورجمهم بالحجارة والأحذية، لكن الشيخ هادي أوقفهم بسرعة وركض نحو مروان وشدَّه من ياقته:

- أين الطفلة؟؟ أين أخت محمد؟؟

حلَّ صمتٌ رهيب على الشارعِ بِرمّته فجأة، وللحظة كان حفيف الأشجار هو الصوت الوحيد الذي اخترقه، الجميع ينظر إلى وجه مروان مُنتظرًا مِنه إشارةً تُرشدهم نحو الحقيقة!

......

وحين لم تبقَ له أيةُ حيله أطرق برأسه وقال:

- طارق هو القاتل، والطفلة معه، سآخذكم إليه.

توجه برفقة أبيه والشيخ هادي والعمدة عثمان واثنين من الكبراء وأوقفهم على باب بيت العصابة؛ ليتلقوا حينها الصاعقة ممن فتح لهم الباب وكلمهم، مروان في ذهول:

- هل غادر طارق ومعه الطفلة؟

ودرات نظرات خيبة الأمل الممزوجة بالشك بين الشيخ هادي وبقية الرجال الذين رافقوه.

(4)

شيءٌ مِن اللوعة

عمران

بعد مُضيّ شهرين..

على ضوء النيران المُشتعلة كُنا نجلسُ أنا والعمدةُ وجابر، أخرج جابر كِيسًا مُخمليًا وراح يهزّه في راحة يده؛ ليُري العمدة كم هو ثقيل ومليء بالنقود الذهبية، أخرج بعده عِدةَ أكياسٍ مُماثِلة وارتسمت ابتسامةٌ على وجه العمدةِ رغمًا عنه، قال جابر:

- جميعها تساوي ما أعطيته أنت والتاجر عادل سلفًا، فنِصفُها لك والنصف الآخر لعادل.

قال العمدة:

- هذا رأسُ المال، أين الأرباح والهدية التي وعدت؟!

ابتسم جابر وبنظرةٍ مُفعمة بالرِّضا والثقة أخرج كيسًا آخر وقدَّمه:

- هذا نِصفُ الهدية أيضًا لك، ويبقى النِّصفُ الآخرُ لعادل، سوف أعطيه له لاحقًا.

مد العمدة يده ليأخذ الكيس ويضمّه لبقيَّة الأكياس أمامه على الطاولة وهو في تمام الرضا.

* * *

ليث

فِي يومٍ تتزاحمُ فِي سمائهِ الغيوم، وكُنتُ عائدًا إلى القرية بعد عملٍ لي كان خارجها أقطعُ البساتين والمروج مُمتطيًا فرسي والهواءُ يُبعثر خصلات شعري فِي جميع الاتجاهات وكانت الرياح تحمل إليَّ نفحاتٍ كعبقِ المِسك مِن بعيد...

وصلتُ عِند الجدول القريب من القرية فترجلتُ عن فرسي وأخذت أتخطى الأعشاب وأنا أُمسِك بزِمامه نحو تِلك الفَتاةِ التي كانت طِفلةٍ حين تركتُها قبل سنين طويلة، لم يكنُ لِقاءً مُدبرًا أكثر مِن كونه مُصادفة مُنتظرة، جاءها صوتي من الخلف:

- مرحبًا.

فالتفتتْ فزِعة حيث كانت سارِحة...

إنهُ اللقاءُ الأولُ بعد سنوات، أتذكرها طِفلةً تركضُ بين بساتين المدينة وتجمع الزهور؛ لتنثرها فوقي! كم كُنتُ أنزعج، فِي حين أنني أقرأ بعض الكُتب الخاصة بِدراستي وبطبعي العصبي آنذاك كُنت آخذ قبضة من تِلك الزهور المتناثرة بقربي وأرميها نحوها بغضب وأنا أصيحُ: "لا تُزعجِيني، اذهبي والعبي مع الفتيات".

كم تبدو الآن فتاةً كبيرة، ولا أعلم عن طِباعها شيئًا على عكس تِلك الطفلة التي حفظتُها عن ظهرِ غيب، تمامًا كدروسي، كان في داخلي شوق غريب لِتلك الطفلة وحين كُنت أتخطى العُشبَ مُقتربًا تمنَّيتُ أن أجدها

لكنها سرعان ما بعثرت نظراتها هُنا وهناك، المهم كان ألا تُلاقيها بعيني، ابتسمتُ وأنا أُشيحُ بِبصري جانبًا:

- كيف حالك؟

بعد تأملها الطويل ناحِيتي بينما كُنت مُشيحًا ببصري عنها أجابت:

- بِخير.

وحين طال صمتُنا قليلًا سألتُ:

- وأنت...؟

- الحمدُ لله، لقد عُدت.

رفعت حاجبيها بطريقةٍ تَشي بالدّهشة، وخُيّل إليَّ أن ذلك استهزاء فانزعجتُ، وحين عاد الصمت ليسود المكان ولم أعرف ما أقول وحيث إنني لم أكن أعرف ما تبقى مِن تِلك الفتاة أساسًا قررتُ الانصراف، أدرتُ ظهري بِحزن ومشيتُ وأنا أجر خيباتي مِن خلفي.

فجأة تناثرت من فوقي الزهور، فتوقفتُ ورفعتُ رأسي بعينين مدهوشتين وكأن آمالي عادت؛ لِتُمطر فوقي معها ابتسمتُ ثم نظرتُ إلى الزهور التي هي فِعلًا عِند قدمي فالتفتُّ بِسُرعةٍ ناحيتها وإذ بها تقف مُتخذةً وضعية مُقاتل وتُقطّب حاجبيها وتُخاطِبُني بغضب:

- مضت أشهرٌ طويلة على عودتك، آلآن أتيتَ تُخبِرُني بذلك؟

تأكدتُ حينها أن تِلك الطفلة لا تزالُ قابعةً في داخل المرأة الجميلة التي أراها الآن، وظننتُ أن بريق عيني مع ضحكتي قد فضحا فرحتي واشتياقي.

***

مُحمد

أمست حياة عبد الرحمن مُزرية؛ فالكلُّ يحتقرهُ وينبِذه ويتجنّبه، أعمالهُ الشنيعة التي ذاع صيتها في المدينةِ أقعدتهُ ذليلًا وضيعًا لا مكان لهُ بين الناس، الكل يكرهُ التعامل معه، أمّا مروان -رغم أنه لم يفهم إلى الآن سبب فعلة أبيه التي أودت بِهم إلى هذه الحال- ما زال يُمارسُ أعمال السطو وقطع الطريق ويرأسُ تِلك العِصابة.

ذات يومٍ وحيث كان عبد الرحمن يتحيّن الفرصة لِقدوم مروان إلى البيت، دخل أخيرًا، فاستقبلهُ بِصفعةٍ قوية على وجهه، وبدأ يضربه على أجزاء متفرقة من جسده وهو يصيح فيه بغضب:

- إلى متى يا ملعون؟ إلى متى ستبقى على ما أنت عليه؟!

صرخ مروان:

- ماذا تفعل، أجُنِنتَ يا أبي؟

عبد الرحمن يصيحُ بتهكُّم:

- كُل يومٍ تسمعُ القرية خبرًا يدعو للفخر عنك! يومٌ تقطع فيه الطريق على عشرات القوافل، وليلةٌ تسطو فيها على دكاكين البائعين والتجار، متى سنسمع خبر جريمة القتل التي سترتكبها إن شاء الله؟

ثم يهدأُ قليلًا ويهمهمُ:

- انظر إلى أفعالك بينما يستعد جميع شباب القرية مع ليث وهادي؛ لافتتاح المدرسة.

عاد يلتفتُ إليه ويسأل بانفعال:

- ألم تجد طارقًا ذاك على الأقل؟؟

يُجيب بانفعالٍ وهو يُنحّي والده عن أمامه:

- لا، لم أجده بعد.

أطلق عبد الرحمن تنهيدة مُحرقة بينما كان يهز رأسه ذات اليمين وذات الشمال.

......

وفي يوم جُمعة، كان المسجدُ قد عجَّ بالمصلين من داخل المدينة وخارجها حتى أن البعض لم يجدوا مكانًا داخل المسجد فاصطفوا في البَهو، كان عبد الرحمن منهم وفجأة ثار ضجيج في الخلف يُخبر عن وصول إمام الجامع الذي من أجل سماع خطبتهِ حضر الجميع مُتلهفًا:

- لقد أتى الشيخ هادي.

- إنهُ قادم.

- أفسِحوا المجال.

لقد حَضَرَ في حشدٍ مهيب فخلفهُ أخوه ليث والعمدة عثمان وثُلة من الشباب المؤمنين، كان مُنتصبًا بثقة ووجههُ البشوش الباسم يشعُ نورًا ونُبلًا، كان عبد الرحمن يُراقبه بعينيه الدامعتين.

بعد انتهاء الصلاة استوى الشيخ هادي على المنبر وجلس الجميع ليسمع الخطبة، بدأ خطبته التي تتحدث عن التوبة بعد أن حمد الله وأثنى عليه.

فجأة قطع صياحُ عبد الرحمن ونُواحه انتباه الجميع وتركيزهم، أداروا رؤوسهم إليه وتلفت ناحيتهُ عدد آخر بفضول متسائلين عن سبب بكائه المرير وسط المسجد وأثناء الخطبة، تعالت همساتهم: "ما به، لماذا يبكي؟ مَن هذا؟ لماذا قطع الخطبة؟". صرخ باكيًا:

- إنني نادمٌ أشد الندم على كُل ما فعلته، أُدْعُ الله لي يا شيخ بأن يقبل توبتي، ادْعُ لي من على هذا المنبر أرجوك، أريدُ أن أتوب، أريد أن أتوب قبل أن يأتيِ أجلي، إنني أُعلن توبتي أمام المؤمنين جميعًا، أستغفر الله وأتوب إليه!

......

بعد الخروج من المسـجد كان الشـيخ هادي يربت على كتف عبد الرحمن بسعادةٍ، قال عبد الرحمن مخاطِبًا الشيخ:

- أنا من الآن فصاعدًا أريد ملازمتك، في المسجد، في القرية، في المدرسة، صحيح متى سيتم افتتاحها؟ أُريد أن أكون أول المنضمين والمُتتلمِذين على يديك.

- حسنًا يا عبد الرحمن، على خير إن شاء الله، بعد قليل سنُرتب جزءًا من المدرسة، يُمكنك مُرافقتي.

- لقد خصّصت الجزء الخلفي من بيتك كما سمعنا أليس كذلك؟

- أجل، أجل، إنهُ في بيتي لكنه معزول نوعًا ما، يوجد باب فقط بين البيت والمدرسة.

......

توجه الشيخ هادي وليث برفقة عبد الرحمن والعمدة عثمان وعِمران وبعض الرجال إلى المدرسة؛ لاستكمال تجهيزات الافتتاح، قاموا بِفرشها وصَفِّ الكُتب الخاصة في رفوف الجُدران وما إلى ذلك من ترتيب، وفي نهاية العمل يقوم الشيخ هادي بإكرامهم وتقديم وجبة العشاء لهم، واستمروا على هذه الحال لمدة خمسة أيام حتى انتهوا، الجميع الآن ينتظر الالتحاق بالمدرسة وبدء التعليم فيها.

* * *

كان الشيخ هادي يشتري الهدايا لعائلته بين الفينة والأخرى، وفي ليلةٍ ما وبينما كان ليث يتسامر مع كوثر ويُعاين هداياها التي هي عبارة عن قُماش فاخر وعقد من اللؤلؤ كان يتحسّس جودة القماش رغم أنه لا يفهم في هذه الأمور:

- أتُراني أشتري لعاتكة مثله، هل يُعجِبها...؟

يلتفت بعدها إلى العقد ويفحصه قائلًا:

- أم أنني أشتري لها عِقدًا كهذا؟؟ ماذا تقولين يا كوثر؟ أو أشتري الاثنين لها؟

كتفت كوثر يديها وهي تنظر إليه بتعجب:

- وبأي صِفةٍ ستُهديها حضرتك؟؟

- وهل الصفةُ هذه ضرورية؟! لا تتغابي تعلمين أني أُحِبُها وسأتزوجها.

- طبعًا أعلم، بالإضافةِ إلى أنها أخبرتني أنك قابلتها عِند الجدول قبل أيام.

التفت خلفه بفزَع ليتأكد من عدم وجود أخيه ومن ثم يلتفت إليها وهو يعضّ على شفتيه:

- اسكتي، ما بك ستفضحينني.

قالت باستياء وهي تضع يديها على خصرها:

- لماذا لم تُخبرني؟!

- بم سينفعك الأمر؟!

- لا شيء سوى أنه يتوجب عليَّ أن أعرفه مِنك أنت، أولستَ عمي وأخي وصديقي؟!

- آه يا كوثر، هل عليَّ إخبارك لتذهبي بالخبر إلى أبيك فورًا؟! أعلم أنك لا تخفين عنه شيئًا.

- ولماذا تُخفي أنت؟ أخبره.

- أجل، إن أردتُ توبيخًا سأفعل.

عادت تسأل بفضول:

- ماذا فعلمتا كيف كان اللقاء؟!

رمقها من زاويةِ عينيه وهو يضع ذراعيه خلف رأسه ويُسنده إلى الحائط ويتأمّل بابتسامة ماكرة:

- لا شأن لكِ.

رمتهُ بالوسادة التي عن يمينها فانفجر ضاحكًا وهو يقول:

- قومي عني إلى عملك، أجهَّزتِ العشاء؟!

* * *

عمران

ذات يوم بينما كُنا نجتمع أنا وعائلتي على وَجبة الغداء!

طُرق الباب، توجَّه بدر ليرى، وعاد يُخبرني أن الطارق يُريدُني فخرجتُ له:

- إنني رسول التاجر عادل إليك.

- تفضَّلْ.

- إنه يَطلب أرباح أمواله التي شارك بها في تجارة صاحبك جابر.

فهمت فورًا أنه يطلب الهدية التي بقيت مع جابر وقال إنه سيُعطيه إياها لاحقًا، ذهبتُ مع الرسول إلى جابر في بُستانه الكبير وأخبرتهُ بطلب عادل فأعطاني كيسًا من الذهب وأعطيناهُ لعادل واكتفى حينها بِذلك، وبهذا نكون قد انتهينا من التعامل مع جابر.

***

صباح اليوم التالي لم يكن صباحًا عاديًا على مدينتنا؛ فقد أضحت عَلَمًا للحضارة والثقافة، تم افتتاحُ المدرسة أخيرًا، وبدأ المعلمون يتوافدون لتقديم دروسهم فيها، وقد بدأ الشيخ هادي بذلك أيضًا، المؤمنون صاروا يحضرون من كل مكان للالتحاق بالدروس والاستفادة منها شبابًا وشيوخًا وأطفالًا، لقد أضحت مدينتنا مكانًا معروفًا بالعلم وذاع صيتها وصيت الشيخ هادي الذي يُعد من أكثر العلماء تبحُّرًا.

وقد كان عبد الرحمن من ضمن الذين التحقوا بالدروس وأضحى شخصًا آخر تمامًا، ما زال يُلازِم الشيخ هادي أينما ذهب حتى أنهُ ذات مرة قد أثنى عليه وقال للناس:

- (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) عبد الرحمن أخونا أصبح شخصًا مؤمنًا فاضلًا موضعًا للثقةِ، وإنه لحقٌّ عليكم مراعاته وتقديره، وإن احترامه أمرٌ واجب بعد الآن.

ما كان من الناس إلا أن يفرحوا ويسعدوا فإذا كان سُكان السماوات يفرحون بتوبة العبد فماذا عن سُكان الأرض!!

اغرورقت عينا عبد الرحمن بالدموع، وتقدَّم يُقبِّل جبين الشيخ هادي ويشكره على تشجيعه ووقوفه بجانبه.

إن ملازمة عبد الرحمن والعمدة للشيخ هادي قد أكسبتهُما وجاهةً أكبر.

......

بعد أيام أتاني خبرٌ عن صاحبي جابر، لقد خَسر واتهمه الكثير من التُجار بالنصب وسُجن!

عِندها أتاني عادل بنفسه عِند باب بيتي وقال لي:

– أتذكُر المبلغ الذي أعطيتُك إياه وتسلّمه العمدة فيها بعد؟!

– أجل!

– لم يُعطِني إياه!

نزل عليَّ الخبر كالصاعقة؛ لأنه الآن وبعد هذه المدة جاء يُطالب برأس المال بينما كان يطالب في السابق بالأرباح فقط!

صِرتُ في دوامة، فذهبتُ لِلعُمدةِ في مجلسه وأخبرته بما جرى، قال:

– دعهُ، إن بيني وبينهُ حِسابات.

– لكِنني كُنتُ واسطةً في البين، يجب أن تُعيد له أمواله، أما عن حِساباتكما التي بينكما فهي تختلف عن هذا!!

......

حينما رجعتُ إلى عادل خاليَ الوِفاض انقضَّ عليَّ كالضبع الضاري وشد ياقتي وهو يقول بِحنق:

- اسمعني يا هذا لقد سلّمتُ أموالي إليك أنتَ إن لم تُعِد إليَّ أموالي أُقسمُ بأني سأفضحُكَ بين الناس.

رمقتهُ بنظراتٍ حادة وزممتُ شفتيّ غيظًا، وأمسكتُ بيديه القابضتين عليَّ ورميت بهما في الهواء:

- لا تُقصر فيما يُمكِنكَ فِعلهُ.

***

في صباح اليوم التالي وحين خرجتُ في طريقي للعمل في دُكان العمدة كان الجميع ينظرون إليَّ ويهمسون، تكرر ذلك كُلما مررت على مجموعة من الناس.

انتابني شعورٌ غريب وأزعجني لكني لم أدرِ ما الخبر حتى سمعت إحدى تلك الهمسات عني وعرفتُ أن الرجل صار يُشهّر بي في المجالس وبين الناس فِعلًا، تأذيتُ كثيرًا وتألمتُ من كلامهم ونظراتهم أفلا يعرفونني؟!

إنني عِمران ذاك الشاب الذي ألفه الجميع واعتادوا عليه صادقًا أمينًا مؤمنًا متورِّعًا عن محارم الله، ذاك الذي تربى بينهم صغيرًا ولم يروا منه سوى الابتسامة والكلام الطيب!

دخلتُ دكان العمدة وألقيتُ بجسدي على الكرسي، لاحظني مُثقلًا مهمومًا فسألني باهتمام:

- ما بك؟

اغرورقت عيناي بالدموع، نظرتُ في وجهه وقلت:

- إن عادل يتّهمني بسرقة أمواله ويقول عني محتالًا كذوبًا، كما أنه بدأ يُشهر بِي بين الناس، والجميعُ بالخارجِ يتحدث.

- أتْرُكْهُ، إنه مُطالبٌ بأموالٍ كثيرة من التُّجار، سيُسجن وترتاحُ منه.

***

ليث

في ليلةٍ شديدة البرودة كُنا نجتمعُ أمام الموقد داخل البيت أنا وأخي ونور ومحمد، أتت كوثر تُغطي الطفلين ببطانية ثقيلة كما أنها غطت والدها أيضًا، كُنت أُراقب النار تصطفق في الموقد وأتذكر كلام عاتكة لإحدى صديقاتها التي كانت تسألها عما يّشاع في المدينة عن عِمران:

- لا صحةَ لهذا الحديث أبدًا، أخي لا شأن لهُ بالأمر فالعمدة هو الذي أخذ أموال ذاك التاجر! يستحيل أن يفعلها أخي.

- لماذا يتّهمه إذًا؟

- لقد كان واسطة ليس إلا.

تنهدت بعدها عاتكة وهي تُكتف يديها وتُشيح بِوجهها جانبًا وتُتمتم:

- كيف نكون قد سرقنا تجّارًا وهذا هو حالنا، إننا بالكاد نجد ما يقينا برد الشتاء القارص.

أيقظتني مِن شُرودي أصوات ضحكهم التفتت ناحيتهم مُبتسمًا، قال هادي:

- إنَّ ليثًا ليس معنـا، مِن الواضح أنهُ سافر بعيـدًا، أَخبِرْنا هيًّا، أين كُنت؟

قالت كوثر ضاحكة:

- أخبره هيًّا، أخبره.

ضحكت بنوع من الارتباك ثم قُلتُ بِجدية:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- إنني أُريد الزواجَ بِعاتكةَ أُخت عِمران.

- خير ما اخترت يا عزيزي، إنهُ بيتٌ معروف بالإيمان والتدين، سنرى الوقت المناسب ونذهب لخطبتها مِن أخيها.

نهضتُ مِن مكاني مُتحمسًا، وقبّلت جبين أخي:

- أدامك الله لي!

رمقني بنظرة مِلؤها الفرحة ثم أردف:

- إنني أتوق لرؤيتك عريسًا، لقد وصلتُ لهذا العمر ولم أُصبح عمًّا بعد!

***

في صباح اليوم التالي رافقني صديقي زُبير إلى بُستاننا، وحين شمّرتُ سواعدي وبدأتُ بالعمل قال مُتسائلًا:

- إنك من عائلة ثرية جِدًا ولا زِلتَ تُرهِقُ نفسك في عملٍ كهذا، أرجوك أَخْبِرِ البستاني ليهتم بالأمر ولْنَخْرُج إلى المدينة هيًّا.

هممتُ بعملي وأنا أجيبه:

- إنني أُحِبُّ فِعل ذلك بنفسي؟

- لماذا بالله عليك...؟ ألِتُصيبني بالملل؟

انفجرتُ ضاحكًا:

- أجل يا صديقي، كما تعلم إن حياتي تتمحور حولك.

- دعك مِن السُّخرية الآن وأجبني.

- اسمع يا صديقي، إن السعي في إتقان مهنةٍ وإجهاد النفس فيها والكدْح من أجلها فيه بركاتٌ كثيرة: تشغل بها قِسمًا مِن وقتك، وتُنفق بها على نفسك وعيالك، وتنفع بها مجتمعك، وتستعينُ بها على فعل الخيرات.

قاطعني:

- لكنك طبيبٌ يا ليث.

وأكّد مُردفًا:

- إنك طبيب ولستَ بُستانيًّا.

- إنَّك تعلم أنني لا أتقاضى أجرًا مِن المرضى الذين أُعالِجهم، كما أن هذا البُستان لي لا ضير من أن أعمل فيه بنفسي؛ ليطيب به مالي، فإن المال كلما كان التعب في تحصيله أكثر كان أكثر طيبًا وبركة، كما أن الله تعالى يُحب الإنسان الكادح ويبغض العاطل والمهمل؛ لذا أكره التّسكّع دون منفعةٍ في شوارعِ المدينة.

اكتفى زُبير بتنهيدةٍ أطلقها وهو يتأمل أمامه بنظراتٍ مِلؤها الفراغ فضحكتُ قائلًا:

- اصْبِرْ قليلًا فعِندما أنتهي سنخرجُ؛ لشراء هدية.

التفت نحوي باهتمام:

- لمن؟

- ليست لك، اطمئن.

* * *

عمران

ازدادت عليَّ الضغوط فلم يكن ليلِي ليلًا ولا نهاري نهارًا، بِتُّ في الليالي أتقلبُ، وما بيني وبين النوم سبيل، تأذيتُ كثيرًا ولم أعد أحتمل كلام الناس فذهبتُ إلى العمدة في بيته، شكوت له ما أنا فيه مِن التاجر عادل فقال:

- لا تهتم بكلامه، إنهُ كلبٌ ينبح!

بعد فترة جاءني رسول من العمدة وعرض عليَّ ما لم أتوقعه أبدًا:

- يقول لك العمدة، قل إنَّ المبلغ كان معك، وسيُصالح هو بينك وبين التاجر عادل، وسيدفع جزءًا من المبلغ مِن عنده.

حلت عليَّ الدهشة بقيتُ أنظر مُقطّب الحاجبين:

- ما الذي تقوله؟! جُنِنتَ غالبًا!

- اسْمَعْ...

قاطعته بعلوّ صوتي:

- هذا إقرارٌ بأن المبلغ عِندي وهو ليس كذلك، لا يُمكنني قبول عرضٍ كهذا، لا يُمكنني إسقاطُ سمعتي إلى هذا الحد مهما كان الثمن.

- لقد قال العمدة بأنَّه سوف...

أطبقت جفنيَّ وأنا أُقاطعهُ بِلهجةٍ ثقيلة:

- أنا لا أرضى إلا بالحق، واخْرُجِ الآن عني، لا كلامَ آخر لديَّ.

بعد ساعةٍ من خروجه امتطيتُ فرسي ومررت على عادل وأخذنا العمدة بطريقنا واثنين من رجال القرية الموثوقين وانطلقنا نحو السجن لمقابلة جابر.

وبعد مُفاوضات عديدة مع السجّان أذِن لنا برؤيته، فتقدمنا؛ لنغوص في ظلام نفق مُتهالك، كان المكان مُزريًا تلهو فيه الفئران، وتُحلِقُ

فيه رائحة الرطوبة، وكُنت أسمع الماء يقطر متقطعًا في مكانٍ ما، وقفنا أمام زنزانة جابر، هُناك سألتهُ:

- المبلغ الذي أعطيتهُ للعمدة في تِلك الليلة لأي شيء كان؟؟

- ما عدا الهدية، نِصفها للعمدة والنصف الآخر لعادل!

وهُنا تبيَّنتُ الحقيقة أخيرًا للتاجر عادل وللجميع بإذن الله، كُنت قد أعطيتُ العمدة مُهلة؛ لإعادة المال بنفسه دون أن أضعه في موقفٍ كهذا لكنّهُ أجبرني.

* * *

مُحمد

"حِينَ يعيشُ الإنســان حياةَ الغابةِ كالحيوانات وحين لا يكونُ هناكَ قـانون يردعـهُ عن العـدوان فلا رادع آنـذاك إلا إيمانُ الفرد بـالآخرة والانتقامُ الإلهي!

حينها فقط لن يجرؤ على الاعتداء على أموال الآخرين وأرواحهم وأعراضهم وكرامتهم، بل إن آثار إيمانه ستنعكسُ عليه؛ عِندها سنجدُ الفضيلة وتهذيب النفس ورِعاية حقوق الآخرين وما إلى ذلك...".

بِذلك اختتم هادي درسهُ لهذا اليوم، ووَدّع تلامِذتهُ ودخل بيته؛ ليسرد تفاصيل يومه كُلها لكوثر كما يفعلُ دومًا.

مُنذ افتتاح المدرســة وقد ملأتِ البيت أجواءٌ رائعة مُحمَّلة بالعلم والروحانية والقصص والحكايات وأمور كثيرة.

ما يجدر بي قوله هو أن الحياة في ذلك البيت كانت جديرةً بالحياة، وكل كلمة تُقال فيه كانت جديرةً بالمعرفة!

إنَّهُ لشيءٌ رائع أن تعيش وسط عُلماء...! ويكون مُحدِّثك هو العالم ذاته.

في كل صباح كُنَّا أنا ونور نساعد أمنا كوثر؛ لإعداد وجبة الإفطار، فكُنا نقسم الخبز الساخن والجُبن والزيتون في أطباق ونوزِّعه على التلاميذ، وبعد ذلك ننضم للدروس، ونعود ظهرًا؛ لتناول الغداء، ونلعب عصرًا، وبعد العودة مِن المسجد عِشاءً نتسامرُ ونتحدث مع الشيخ هادي، وقبل النوم نُراجع أنا ونور دروسنا، ونستمع لِقصة أمُنا كوثر التي تخص أحد الأنبياء، ثم نقرأ ما نحفظه من القرآن وننام.

* * *

ليث

في وقتٍ مُتأخر وبينما كُنَّا نيامًا كان أحدهم يطرق الباب بقوة كما لو أنه كان يريد تحطيمه...

أزحتُ الغطاء عني بسرعة ونهضتُ بفزع، وما إن خرجت من داري وجدت أن الجميع قد قام فزِعًا، ركض أخي هادي نحو الباب حاسرًا، لحقت به وإذ أن الطارق كان صبيًّا صغيرًا نحيلًا ذا شعر منفوش غير مُصفَّف، إنه أحد الصبية الأيتام الذين كُنت أُطل عليهم وألاعِبُهم وأرعاهم، جثا أخي على ركبتيه؛ ليكون بمستوى طوله ووضع يديه على كتفي الصبي قائلًا:

- ما الذي يفعلهُ صبي في مثل عمرك هُنا، في هذا الوقت من الليل؟!

- قالت أمي أن آتي بالطبيب؛ لأن أختي مريضة وقد جئت لأخذ أخي ليث.

بدلّتُ ثيابي وأخذتُ ما يلزمني وانتعلتُ سريعًا ما إن سمعتُ ذلك وأمسكتُ بيد الصبي وذهبتُ معه بينما وقف أخي وقال قبل أن يُغلق الباب:

- في أمان الله.

......

في الطريق بدأت أسأل الصبي عن أخته وحينما بدأ يصف لي حالها فهمت فورًا أنها محمومة...

ذهبتُ وعاينتها وفعلتُ اللازم ولم أخرج من هُناك إلا وقلب الأم مطمئن حيالها.

......

في طريق عودتي وحين كُنتُ أمشي في تِلك الساعة المتأخرة سمعت ضجةً خفيفة في الرّواق الذي عن يميني، تقدم لأستطلع الأمر فإذا بمجموعة لصوص يهاجمون فتاةً فركضتُ نحوهم ليَتبيّن لي أنها عاتكة، فتزدادُ نارُ الغضب اشتعالًا في داخلي...

نحّيتهم عنها بعنف، وبدأت أوجه لكماتي وركلاتي بينما أصدُّ ضرباتهم أيضًا.

اشتد العراك ولم يتوقفوا إلا بعد أن أدميتهم.

وبعدما تراجعت خطواتهم إلى الوراء وصار وقع أقدامهم يقل حتى اختفى تمامًا ولم يعد صوت في المكان سوى صوت أنفاسي المتصاعدة وخطواتي التي تتقدم نحو عاتكة كانت ترمقني بإعجابٍ بينما كان بريق عينيَّ يلمع بابتسامة وداخلي يشتعل...

توقفت بقربها، قالت بلهفة:

- هل أنتَ بخير يا ليث؟!

تحسّستُ الجانب الأيسر من رأسي بيدي؛ لأنه يؤلمني، وعندما نظرت ليدي وجدتها ملطخة بالدم، فشهقَت عاتكة.

- يا ويلي لقد جُرح رأسك!

تلفَّتُّ حولي وعُدت أهمس لها:

- اهدئي، إنهُ شيء بسيط.

بخوف وقلق همست:

- لكنه ينزف.

أسندتُ جانبي إلى الحائط وأنا أنظر لعينيها:

- دعك الآن من هذا وأخبريني ما الذي أخرجك في هذا الوقت من الليل؟!

أجابتني بقلق:

- كنتُ أخرج كل ساعة؛ لأستطلع أمر أخي علَّني أجدهُ في الجوار، لم يعد هذه الليلة وقلوبنا مشغولة، إنه لا يفعلها، الغياب ليلًا ليس من عاداته أبدًا.

- رُبما طرأ له عمل، تعرفين المشكلة التي يمر بها حاليًا.

- ولهذا أنا خائفة، ماذا لو فعلوا له شيئًا؟!

- ليس لهذه الدرجة، سيعود بِخير إن شاء الله، اطمئني.

أردفتُ مازِحًا:

- إن كنت ستخرجين كل ليلة يجب عليَّ تعليمك فنون القتال.

ضحكت وهي تقول:

- وركوب الخيل أيضًا.

- وهل صدَّقْتِ؟!

- ولِمَ لا؟! أنتَ بارعٌ جِدًّا في فنون القتال.

رفعتُ حاجبي وأنا أرمقها وأُقيِّدُ ابتسامتي:

- هيا، هيا إلى بيتك.

استدارت لتدخل لكني ناديتُها فورًا:

- تعالي!

التفتت وعادت لمكانها أمامي، تنظر في عيني وتنتظر كلامي، قُلتُ وعيني تحتضن الأرض:

- يجبُ أن تُغطّي وجهك!

......

إنني أُصبحُ شخصًا آخر عِندما أراها أو أتحدث إليها، ويبدأ قلبي بقرْع أبواب صدري، أظنهُ يريد الخروج بإلحاح، فما هذه الضرباتُ التي تؤلِمُ أضلعي!!

وضعتُ كفّي لأردهُ بِقوةٍ عن ذلك وقد بدوت كمن يشكو ألمًا مُميتًا، حاولت تمالك نفسي وحينها عُدت لم يكن بِبالي أن أخي سيتظرني في فِناء الدار ما إن رآني بتلك الحالة، بعضُ الكدمات الخفيفة ودم رأسي وعِمامتي المُنحلّة على كتفي، تقدم نحوي بخوف..

- ماذا جرى؟؟

- لا شيء مهم، في طريق عودتي تعاركتُ مع أحدِ اللصوص، إنهم يتخذون الليل ليعيثوا فيه فسادًا؛ يجب علينا تنظيمُ حِراسةٍ ليليَّة.

لم يكن يأبهُ لِكلامي بمقدار ما كان يهتم بِجرح رأسي، فقد كان يُعاينهُ ويتحسّسه ويسألني:

- هل أنت بخير؟

- أنا بخير يا أخي، أظنُه جرحًا بسيطًا سأراهُ الآن وأعالجه.

- دعني أُساعِدك، لنغسلهُ أوّلًا.

جلسنا عند النافورة التي في فناء الدار، وبدأ يغسل جرحي وينظفه من التُراب العالق، بعدما جلسنا في الداخل وبدأ يجفّف لي جرحي ويعتني به، التفتُّ ناحيته مُبتسمًا، فهو لا يزال يُعامِلني كولدٍ صغير حينما أتعرضُ لأذى، أخذت بيده التي كان بها يضمد جرحي قبلتُها:

- هذا يكفي إنني بخير الآن، أخبرني لم لا زِلتَ مُستيقظًا؟

- كُنتُ بانتظارك.

رمق السماء مِن النافذةِ بطرف عينيه وأردف قائلًا:

- لقد شارفَت الليلة على الانتهاء أساسًا وسأخرج بعد قليل لصلاة الفجر.

بعدما نهض توقف قليلا ثم التفت قائلًا:

- إنني أؤيد رأيك في تنظيم الحراسة الليليَّة، افعَلْ ما تراهُ مُناسبًا لذلك.

***

عاتكة

كُنتُ أُحِبُّهُ كثيرًا وكأن الحُبَّ خُلِقَ فقط ليكونَ في قلبي إليه!

كانت لهُ ابتسامة جميلة، وكأن كُلَّ بهجةِ الدُنيا تجمّعتْ في شفتيه...

عِندما هاجمني أولئك اللصوص ظننتُ ألا مفرّ لي؛ فالشارعُ مُقفِرٌ من أي بشر والوقت مُتأخر...

ظهرت رحمةُ الله أمامي على هيئةِ ليث، عِشقُ طفولتي، أما اللقاءُ الوحيد بيننا عِند الجدول لم يكن كافيًا لأتعرف الشاب الذي غدا عليه، لقد تغيَّر شكله، أصبحَ طويلًا مفتول العضلات واسمرَّت بشرتهُ، حينما كان يقاتِلهم ببراعة انحلّت عمامته وتهدَّل شعرهُ الأسود الحريري على وجهه كالموج بينما يواصل لكماته وركلاته وصدّ هجماتهم، لقد بدا أكثر جاذبيةً ووسامة.

ولمّا اقترب وأسندَ جانبه لباب داري كانت خفقاتُ قلبي مضطربة ولم أكن قد شعرتُ بِمثلِ هذا الشعور مِن قبل.

لا زال مرِحًا ضحوكًا يُضفي بهجةً عجيبة على المكان الذي يحضر فيه، وأظن أن كل بقعة مِن بِقاع الأرض تحتاجُ ليثًا؛ لِتبتهِج.

إنني الآن في قِمة فرحي وابتهاجي وذلك الشعور الذي يزورني لِلمرّة الأولى أخذ يحلق بي عاليًا نحو السماء، عِندما أنظر إليه ويُحدِّثُني أشعر أني فوق الغيوم، ولا أُريد الهبوط بتاتًا.

جُملةٌ واحده كانت مُبهمَة بالنسبة لي، قوله:

"يجبُ أن تُغطي وجهك".

عِندما قال ذلك عقدتُ حاجبي وتوهّجت وجنتَاي، لم أعرف ما أقول في ذلك الوقت، ففي جانبٍ مِني فرحةٌ كبيرة، وفي الجانب الآخر رفضٌ وخوف...!

لم أُجِبه وانسَحبتُ للداخل بصمت وعيناي يغطيهما الحياء فيما غادر هو والابتسامة تعلو وجهه غالبًا.

......

بعد أن آويتُ إلى فِراشي وقبل أن أُغمِض جفني سمعتُ صوت الباب فهرولتُ إليه:

- عِمران عُدتَ أخيرًا، أين كُنت؟

وفي ذات الوقت أتت أمي وهي تفتح ذِراعيها لأخي:

- حمدًا لله، حمدًا لله على رجوعك سالمًا، شغلت قلبي يا بُني وظننتُ أن مكروهًا أصابك.

أدار أخي ناظريه فينا وقال:

- أعتذرُ إليكما، لكن الحقيقة ظهرت أخيرًا.

صِحنا بحماس وفرحة بينما نحنُ نعانقه:

- ماذا تقول؟!

- كيف؟؟

ضحك بهدوء وقال:

- ادخلا هيًّا؛ لأخبركما بالأمر.

أشعلنا قِنديلًا في صحن الدار وجلسنا:

- اضطررت للخروج كما تعلمان، ذهبنا إلى السجن لزيارة جابر.

قاطعته أمي:

- لكن هذا لا يستغرق كل هذا الوقت.

- بعدما تبيَّنت الحقيقة للرجال رفض العمدة تسـليم المبلغ للتاجر عادل.

تبادلنا نظرات الدهشة فأكمل حديثه:

- فتوجه بِنا عادل إلى قاضٍ فِي مدينةٍ على طريقنا أخبرهُ بالأمر وشهِدنا نحنُ على ذلك، فحكم القاضي وألزم العمدة بالدفع.

سألتهُ:

- وهل سيدفع؟

- لا خَيار آخر لهُ.

همهمتْ أمي بعد تأملٍ قصير:

- وأنت الآن شهِدت ضد عُمدة هذا البلد وصاحب الدُكان الذي تعمل فيه!

يُجيب بإصرار:

- طبعًا أمي، تعرفين أنني مع الحق دائمًا، وكُنتُ قد فكرت أساسًا...

- بماذا؟

- سأترك دكان العمدة وأتفرغ للمدرسة، فالعمل مع الدراسة كان شاقًّا، يجب عليَّ التبحّر في كل كلمة يتفوّه بها العلماء هُناك، أحتاج الهدوء والتأمل بعيدًا عن ضجيج العمل وصيحاتِ التُجَّار.

سألت أمي:

- كيف سنعيش، كيف سنأكل؟!

قُلتُ:

- على حد عِلمي فالشيخ هادي يدفع مبالغَ للطلبة في المدرسة كما يدفع للمعلمين، أليس كذلك أخي!؟

- بلى، كما أنهُ يدفع بسخاء، سمعتُ مِن العُلماء أنه يُعطي أضعاف ما يعطونه في المدارس هُناك.

ربّتت أمي على كتفه:

- حسنًا عزيزي، ليوفقك الله ويحفظك.

وقبل أن تنهض لغرفتها التفتت وقالت بابتسامةٍ حانية:

- خيرًا فعلت بشهادتك للحق يا بُني.

ابتسم بِرضا ونهض هو الآخر لينام.

* * *

في صباحِ اليوم التالي طُرق باب بيتنا، لقد حضر التاجر عادل في جماعةٍ من أهله ليعتذر من أخي ولـمّا وقفتُ أسمع حديثهم عِند الباب كان يعِدهُ قائلًا:

- سوف أُخبِر الجميعَ بالحقيقة، ولن أدع عبدًا مِن عباد الله قد سمع الإساءةَ مِني إليك إلا وأخبرهُ خصيصًا ببراءتك.

قال أحدهم لعادل:

- يجب عليك الاعتذار من الشيخ هادي أيضًا.

يُجيبُ بِغطرسَة:

- هذا لن يحصل؛ ما كان على ذلك الرجل التدخل في شؤون الآخرين مهما كانت الأسباب، ما كان عليه أن يتحدث معي بِتلك الطريقة.

- كيف لا يحق له التدخل وهو سيّدُ القرية بِرمتها؟!

- لا سيادة له عِندي، وليته يرجع مِن حيثُ أتى.

ابتعدتُ حينما تحول الموضوع إلى جدال يخص الشيخ هادي، ما عرفتُه وفهمتُه هو أن عادلًا يُكِنُّ الحقد والضّغينة للشيخ هادي الذي يُحبه الجميع! يا له مِن رجلٍ بغيض!

* * *

ليث

بعد بِضعة أيام طبقتُ خطة الحراسة الليليَّة، وبحمد الله صارت المدينة تنعم بالأمان، تناوبت مع بعض الشُبان فكنا نُعرقل خطط اللصوص ونمنع تجوالهم بِراحة في أزقةِ القرية، ولم يخل ذلك من العراك والقتال فكثيرًا ما عُدتُ للبيت بفم دامٍ أو وجنةٍ مشروخة، وكان نصيبُ خصومي من اللكمات والجراح أكثر بالطبع؛ فقد كُنت أبغض الظالمين

والمخربين ولا أتوانى عن تحطيم وجوهِهم إن لَزِمَ الأمرُ رغم كوني حكيمًا يُفترض به أن يعالج لا أن يُحدِث ما يحتاجُ العلاج!!!

......

ها أنا أستعدُّ لبدء درسٍ جديد في الطب، فيما لا أزال واقفًا أمام المرآة كُنت أفركُ يدي لتدفئتهما فقد كان صباحًا مُتجمِّدًا، دخلت علي كوثر تحمل بين كفيها قماشًا سميكًا داكنًا، نظرتُ إليها ثم إلى ما بيديها، مِن ابتسامتها الماكرة عرفتُ أن الأمر يتعلق بعاتكة البَتّة!

قدّمَتْه إليَّ قائلة:

- أثناء سفرِكَ، حاكت لك هذا الوِشاح بيديها.

ارتسمت على مُحياي ابتسامةٌ عميقة وأنا آخذه وأتحسّسه بيدي، وضعته على كتفي ثم لففتهُ حول عُنقي وأردتُ كثيرًا إخبارها بأنني أُخبِئُ أيضًا هديةً في صندوق خلف أغراضي وأرجو منها إيصالها إلا أن شيئًا ما في داخلي حال دون ذلك، شكرتها وخرجتُ إلى الفناء، رنوت السماء بِنظرةٍ وكانت غيومٌ كثيفة تُغطيها، إنَّه الصُبح لكن الشمس لم تشرق بعد فيما لا يزالُ البدر طالِعًا، كان هذا الوقت الأحبّ إليَّ في فصلِ الشتاء حين يكون للكونِ لونٌ نيليّ ساحِر!

دخلتُ للمدرسة مِن خلال الباب الذي يفصل بينها وبين فِنائنا...

كان التلاميذ بانتظاري ما عدا تلميذًا واحدًا، وفور ما دخل وانضم إلينا بدأتُ درسي وحين انتهيتُ أخيرًا انضممتُ إلى درس أخي وكما هي

العادة كُنتُ آخر طالبٍ وكان الجميع بانتظاري، وما إن دخلتُ حتى صوّب الجميع أعينهم عليَّ سلَّمت وردوا السلام، قال أخي وهو يهمُّ بالبدء:

- أهلا يا أخي، تفضل عافاك الله.

تقدمت وتخيَّرتُ لي مكانًا قُربَ عِمران وجلست.

- إن حقيقة الموت هي عِبارةٌ عن انتقالِ الروح، فالروحُ بِمثابة المصباح المضيء والنور الإلهي الذي بِبركتِهِ يَشُعُّ إحساسُ الوجود من منافذ العين والأذن والفم والحواس، يرى، يشم، يسمع، وتصدرُ منه جميع الأعمال، الموت يعني انتقال هذا المصباح.

أخذ أخي يشرح:

- تصوروا غرفة من الطين فيها عِدَّةُ نوافذ، لو وُضِع مِصباحٌ مُضيء في ليلٍ داجٍ وسط هذه الغرفة لتسرَّب نوره من النوافذ فإذا ما غيَّرنا مكان المصباح لساد الظلامُ تِلك النوافذ.

المصباح في هذا المثال بمنزلة الروح للبدن والموت هو انتقال المصباح من مكانٍ لآخر، لا وجود للعدم في كل الأحوال فالعدمُ لا معنى له والموت ليس عدم الحياة بل عدم حياة الجسد!

عِندما رفع عمران كفَّه أومأ له أخي:

- تفضَّل...

- يصِحُّ القول بأن الموت نومٌ عميقٌ وطويل، في النوم يتعطل القسم الأكبر من المشاعر فيما يستلزمُ انتقالُ الروح أيضًا قطع العلاقةِ بالبدن؛ ليُصبح البدن في حكم الجماد لا مشاعر فيه تتحرك. وعِند الغروب يبقى بعض النور لكنه بعد بضع ساعات يصبح الظلام دامسًا، فالنوم بِمثابة غروب الشمس والموت بمثابة الليل.

- أحسنت يا عمران، أحسنت.

......

بعد انتهاء الدرس وعِندما حان وقت انصراف الطلبة لبيوتهم وأعمالهم هطلت أمطارٌ غزيرة، وقف أخي الشيخ هادي يرفعُ لوحًا خشبيًّا بيديه عند الباب؛ ليمروا مِن تحته ويعبروا إلى الشارع الآخر ويحتموا بالأكشاك، فيما كان بعضهم يغطي رأسهُ بعباءته أو ردائه وآخر بِذراعه، كان أخي يودعهم بابتسامة ولطف فيما يُمازح أحدهم ويضحك مع آخر وبعد انصراف الجميع وحين أصبح الشارع مُقفرًا لَمَحَ مِن بعيد هيئة امرأة بعباءةٍ سوداء كُليًّا لا تُظهِرُ مِنها شيئًا، تَقِفُ بِثباتٍ وتُراقِبه، حاول ألا يُطيل النظر فشتّت أنظارهُ قليلًا وفي داخلهِ غَرابة؛ لأنه وقت مُبكر جِدًّا لا تخرج فيه النساء إلى القرية. بالإضافة إلى أن النساء هُنا لا يرتدين مثل هذه العباءة أساسًا، وقبل أن يهم بِدخول البيت صوَّب بصره ناحيتها فلم يجد لها أثرًا، وكأنها لم تكن!!

ولو كان شخصًا آخر غير الشيخ هادي لوقف متسمرًا مِن الخوف وَلَضَاقت أنفاسهُ وتصبَّب عرقًا، لكنه دخل بيته بسَكِينة وهو يُفكر في الأمرِ كلغزٍ غريب!

***

حين ارتفعت الشمس وصارت في كَبِدِ السماء، خرجت لبعض الأمور فِي المدينة هُناك لمِحتُ عاتكة ولم أجرؤ على إطالة النظر وأشحتُ بِبصري فورًا لكنَّ انزعاجًا قد احتل مكانةً في صدري، وحين التقت طُرقاتنا في مُنعطف أحد الأزقة توقفنا ننظر لِبعضنا بِصمت، كانت عيناها تبحث في ملامحي عن ابتسامتي المُعتادة قُلتُ فيها لا أزال مُنحيًا بصري:

- لم تُغطِّي وجهك!

في ذاك الزُقاق الضـيق وعِند الجِدار المُهترئ وقفتُ أنظرُ لعينيها مُنتظرًا إجابة...!

إجابة تُثلج تِلك المشاعر التي تَغلي في صدري، بعد تردّد وخجل وتشتّت لعينيها يمينًا وشمالًا ثبَّتتهما أخيرًا في عيني وقالت:

- لكن الجميع لا يفعل هذا هُنا، هذا ليس الحجاب المعتاد في قريتنا، كوثر فقط مَن تفعل ذلك، وأنا سأشعُر بِغرابةٍ ورُبما أتعرض لِبعض التساؤلات.

- يعني ألن تفعلِي ما قُلتهُ؟

أخذت نفسًا عميقًا وأخفضت نظرها وهزت رأسها ففرَّت مِني جُملةٌ لم أكن أريد قولها:

- أما تستحينَ أساسًا من كشف وجهك لِلرجال!!

تملكتها الدهشةُ وحملتها بعيدًا وجّهتْ بصرها نحوي بسرعة وقالت بنَبرَة غاضبةٍ ثقيلة:

- بل أنتَ الذي لا يستحي مِن مُخاطبةِ بنات العائلات المُحترمة بهذه الطريقة.

أدارت ظهرها وراحت تشق طريقها لبيتها فيما كُنتُ ألحقها مُتداركًا وهي تُهمهمُ قائلة باستنكار:

- غطيتُ وجهي أم لم أفعل، ما شأنك بيْ؟!!

استوقفتها قبل الدخول عِند باب دارها:

- إنني لم أعني ذلك حقًّا.

توقفت تنظر إليَّ كإشارة بالسماح لي لإكمال مبرراتي:

- ألم تقولي إن كوثر فقط هي من تفعل ذلك هُنا!! أنتِ ككوثر يا عاتكة، هي ابنةُ أخي فيما ستُصبحين أنتِ زوجتي، أنتِ مِنّا يعني.

- انسَ ذلك الأمر كما نسيتني ولم أخطر بِبالك طيلةَ تِلك الأعوام، أتمنّى لكَ حياةً سعيدة مع فتاةٍ تُناسِبكُ وتعرِف الحياء، أيُّها المُتعصِّبُ الجاهِل!

جحظَت عيناي اللتان لم ترمِشا ولم أنبِس ببنت شفة لكن الدهشة المريرة لاحت على وجهي وضعتُ يدي على صدري أُعالِجُ وجعًا ألمَّ بِقلبي، استدرتُ لأذهب فيما صفعت هي الباب مِن خلفي.

أنا مُتعصِّبٌ جاهل؟؟ هل أبدو كذلك!!

أكانتَ تظن أنني نسيتُها أو لم تكن شيئًا يُذكر! اشتبه عليها الأمرُ ولكِنها مُحقَّة!

أنا لا يُمكِنُني الاعتراف لِفتاةٍ مُحرَّمة عليَّ بما يتصارع لها في قلبي من أمواج المشاعر.

لم يكن بِوسعي إخبارها أنني ما غادرتُ المدينةَ طِفلًا إلا وهي في أعمَقِ نُقطةٍ مِن قلبي حتى لو أنها سقطت من كل القلوب ما سقطت من قلبي! ولو سقطت من بين الأكُفِّ جميعًا ما سقطت من كفي.

لم يكن بمقدوري إخبارها أنني حملتُها دعاءً أينما ذهبتُ وفي كُل الظروف، حينما أحببتُها لم تكن تعني لِي سِوى طِفلةٍ مُزعجة تُشتت ما أحفظه من دروسي ولم أنسَها آنذاك أو أفعل الآن؟!

***

عاتكة

لقد غدا شابًا مُتعجرفًا،

لو لم يقل تِلك الكلمةُ التي أهانتْني أنا وعائِلتي لكان هُناك مجال لقبولِي الأمر بعد المفاوضات!

طالما جهلتُ نفسي في عينيه وتمنيتُ أن أعرف إن كان يحمل لِي شيئًا مُهمًّا كما أحمل له مُذ عرفتُ نفسي، وفي تِلك السنين كم حاولت جاهدةً

خِداعَ نفسي بأنهُ يهتم بي! وربُما يفتقِدُني في سفرهِ الطويل كما أفتقِدهُ، انتظرتهُ وكُنت أظنُّ أنهُ ينتظِرُني...

لكنه عِندما عاد لم يُكلِّف نفسه لِقائي وترك ذلك للأيام، وظل صامتًا حيْنَ التقاني بينما ودَّت كلماتي أخذه بالأحضان!

عاتبتُه عِتاب حبيب رغم أني في عينيه مجهولة!

لم تكن كلماتهُ هي التي أخذتني على حين غرّة وفي حُبهِ أوقعتني؛ يُمكنني القول بأن ابتسامتهُ هي التي خطفتْ قلبي، وشعورٌ خفيٌّ في داخلي كان يُحدِثُني دومًا بأنه لي!

ويا لحزُني وخيبتي فعلى ما يبدو هو الآن ليس كذلك!

ما زاد حنقي هو أنه يُريد مِني تطبيق قواعده التي يراها صحيحةً؛ ليتنازل بالزواج مِني!

وإن لم أفعل فأنا لا أستحي!! أيُّ منطِقٍ هذا!!

ليته احترم ما أنا عليه وما ربتني عليه عائلتي، ليتهُ كان لَبِقًا ومُراعيًا في الحديث أكثر.

كم هو صعب أن تُحبَّ الفتاةُ رجُلًا مُتدينًا يبخل عليها باعتراف أو خبر يُفيد بأنها تعني لهُ شيئًا لطيفًا!

تذكرتُ حين وضع يدهُ على قلبه قبل أن يستدير ذاهِبًا، أطبقت جفنيَّ بشدة وضاق صدري.

***

عمران

هذه الأيام هادئة، كان الجميع يغدو ويروح بين الجامع والمدرسة ويسعى لكسب لقمة الحلال، وكانت قد انتهت مُشكلة عادل فقد دفع له العمدة جميع مُستحقاته، أما أنا فلا زِلتُ أُكِنُّ احترامًا للعمدة وألتقيه في كثيرٍ من المناسبات وأجالِسهُ بِكل خير وقلبي صافٍ تمامًا.

بعد ثلاثة أشهر ونصف في أول ليلةٍ من شهر رمضان المُبارك طُرق بابي وجاءني رسول يحمل بيديه كتابًا باسم قاضي القرية الذي لم يكن سوى الشيخ هادي!

يستدعيني فيه إلى مُحاكمةٍ بيني وبين العمدة!! جلستُ في صحن الدار أُحدِقُ في الكِتاب واضعًا يديَّ على رأسيْ.

قالت أمي:

– ما الذي بينك وبين العمدة ليُحاكِمك؟

– لو أني أعرفُ، أرهقني التفكير مُنذ ساعة ولم أجد في رأسي أي شيء، لا أتذكر، متى أقرضني كل هذه الأموال الطائلة!! هذا مستحيل لكن لِمَ يفعل هذا الآن؟ لِماذا؟

– اذهب واستطلع الأمر مِنهُ يا بُنيَّ.

– لا أعتقد أنه سيفتح لِي بابه! لو أراد لأتاني مُباشرة ولم يشكني للقاضي.

تساءلت عاتكة:

- صحيح، لِماذا يشكوك مُباشرة قبل أن يطلب ما أقرضَك مِنك لو كان صادِقًا!!

بعدما أرقني التفكير وأصابني وجعُ الرأس قررت الخروج، كانت ليلة حالكة يجلدها البرد بالصقيع، طرقتُ بابه، لم يستقبلني وإنما أوكل خادمه بِمخاطبتي، أطلعني على صندوق خشبي قديم مليء بالمخطوطات التي تُبين أنني استلمتُ مبالغَ كبيرة مِن عِدة تُجار وجب عليَّ تسليمها إليه، بدأ قلبي ينبض بالغيظ ونظرتُ إلى الخادم بصدمة وفهمت حينها ما يصبو العمدة إليه، أردتُ النهوض والعودة لكن الكآبة كبّلت ساقيَّ.

حين خرجتُ إلى الطريق البارد الخالي كُنتُ أسدُ سيلًا من دموع الغضب.

سألت أمي:

- هل كانت حقيقيَّة؟؟

- أجل، تِلك المخطوطات كُلها حقيقيَّةٌ وعليها إمضائي أيضًا، لكن أيًا مِن تِلك الأموال لم تكن لِي.

كُنتُ أتكلم وفي صوتِي حشرجة، أكملتُ بعدما بلعتُ غصتي:

- سلَّمتُ جميعها إليه، لكن لا إثبات لديَّ على ذلك.

أخفضتُ ناظري لئلا تلمحا انكساري.

وانخفضت أكتاف أمي:

- ما الذي سنفعلهُ الآن؟؟

- لا أدري يا أمي، لا يبدو وكأن هنالك مخرجًا إلا عِناية الله.

ربتت على كتفي وهي تقول ما لا أتوقعها تُصدقه:

- سنتجاوز هذا كما تجاوزنا المشكلة السابقة بإذن الله الواحد.

- تِلكَ كانت مع عادل تاجِرٌ عادي في المدينة، أما الآن فمع العمدة، حتى الشيخ هادي من أقرب أصدقائه يا أمي.

اختنقتُ بعَبرتي حين أردفتُ:

- من سيُصدِّقُني؟؟! من سيُنصف الشابَ الفقير ويُدين العمدة الوجيه؟! لا أحد، لقد انتهيتُ هذه المرة سيسحقُني بِظلمه.

جذبتُ نَفَسًا عميقًا إلى صدري فقد ضاق بِما لا يُطاق، وأوكلتُ لِلدموع أمر الحُطام الذي في داخلي، وبكت أمي معي ولم نستطع النوم تِلك الليلة، كُنا نفكر كيف سنواجه القدر الذي ينتظرنُا، إن حكم القاضي لهُ فسيُلزِمني بالدفع وأنا لا أملك شيئًا سوى هذا البيت الذي نعيشُ فيه، وإن لم أدفع فسأواجهُ السجن.

وجالت بِنا الأفكار فتِلك المخطوطات القديمة جِدًا لماذا يحتفظ بها حتى الآن؟؟ أكان ينوي لي الضرر منذ البِداية؟

ما هذا التخطيط المُحكم المُحنَّك الذي قام بِهِ؛ ليظلم شابًا فقيرًا لا حول لهُ ولا قوة.

وبعيدًا عن كل شيء إن في داخلي امتعاضًا مِن العمدة، فكيف يفعل هذا بي أنا الذي كُنت لهُ كالابن، وكُنتُ أُحِبهُ كثيرًا ولم أتوقع مِنه يومًا فِعل هذا، كُنت آمن له؟!

تذكرت قبل سنوات حين لم يكن أحد ليقبل في عمله بشاب قليل الخبرة لم يتجاوز عمرهُ الخامسة عشرة آنذاك، أخذني هو للعمل بِجانبه حين وقفتُ على باب دُكانه بحياء فظهر واستقبلني على الباب.

- هذا أنتَ يا عِمران؟

- تحت أمرك يا سيدي.

فابتسم لي ومد يده للمصافحة، وأخذني للداخل بلطف، وراح يُحدثُني في أمور عديدة دون أن تُمسحَ ابتسامتهُ.

كُنت أنتظره قُبالة الدُكان في كل صباح مُتأهبًا للعمل عشر ساعاتٍ مُتواصلة دون أن يرف لي جفن وما أوكل إليَّ أكثر الطلبات بُعدًا ومشقة إلا وذهبتُ وأنجزتها في اليوم نفسه، كُنت أسلم البضائع إلى دكاكين التُجار في المدن البعيدة والقريبة وأستلم الأموال وأعود بها إليه، كُنتُ أحاول أن أكونَ عاملًا في مُنتهى الكمال، كما أنني أنجزتُ له الكثير من أموره التي لم تكن مُتعلقة بالعمل.

***

مُحمد

في وقتٍ مُتأخِرٍ جِدًّا من الليل خرج الشيخ هادي من المسجد عائدًا لبيته، وفيما كان يتخطى العتبات رافعًا بصره نحو السماء ساورهُ شكٌّ بأن أحدًا ما يُراقبه عن قرب، تجلت لهُ تِلك المرأة ذات العباءة السوداء مُجدَّدًا، جحظت عيناهُ وهو يُطيل التركيز مِن على عتبة المسجد، ولأن الوقت مُتأخرٌ والظلام حالك كاد أن يُسند وجودها إلى الخيال لو لم تتحرك وتُغادر باتجاهٍ لا يُدخِلها نحو البيوت بل يأخذها خلف أسوار القرية، أغمض جفنهُ وأشاحَ بِوجهه وهو يستعيذُ بالله ويدخل الرُّواق شاقًّا طريقه للبيت، كان ضوءٌ خافتٌ يشع من فتحة باب المطبخ تقدم ليُطل على ابنته.

– مرحبًا أبي، تقبل الله، لقد جئت في وقتك فالسحور جاهز.

– عافاكِ الله، سأوقِظُ ليثًا والأولاد.

......

في كُل ليلةِ جُمعة يقوم أهل القرية بتنظيم إفطار جماعي في المسجد بينما تجتمع النساء أيضًا في أكبر البيوت وهو بيت الشيخ هادي لدى كوثر.

وحيثُ كان الشباب يجلسون بجانب بعضهم ويتناول ليث من حساءٍ أعجبه كان صديقهُ زبير قد أتى للتوِّ وجلس:

– أريد البدء بطعامٍ لذيذ، هل هذا الحساء جيدٌ يا ليث؟!

هز رأسهُ وهو يكتم ضحكته:

– أبدًا، أنجُ بنفسك.

وفعلًا صرف زُبير النظر عن الحساء وراح يمد يده لشيء آخر فيما انفجر ليث وبقية الشباب ضاحكين؛ لأن ليثًا لتوِّه كان يمتدح الحساء قبل قدوم زُبير، حينها فهم زُبير الخدعة وقبل أن يمد يده مُجدَّدًا أخذ ليث جميع أواني الحساء الفارغة ووضعها فيما يلي زُبير مُكمّلًا مزحته:

- ما الذي تفعلهُ عزيزي زُبير، لقد أنهيت الحساء كُله!

ضحك الجميع بينما قال زُبير:

- أووه يا ليث إنني جائعٌ الآن أجِّل خفةَ دمك لوقتٍ لاحق!

......

بعد الإفطار وحين أسندَ زُبير ظهرهُ إلى الجدار الذي يستند إليه ليث بعيدًا عن البقية، ظل يُحدق به لدقائق ثم قال:

- أجل أنا أنتظر.

- ماذا؟

- بدْأك بالكلام.

تنهد رافعًا بصره نحو السماء ثم ابتسم قائلًا:

- ما الذي تُريد مِني قوله؟

- لا تحسب أنك نجحت بتَورية مِزاجك المُعكر عني بِمُزاحك وضحكك، لم يكن يُخفي عليَّ شرودك وانشغالك، قُل ما الذي يُخالجُك؟ أفضِ إليَّ هيًا.

- على ما يبدو أنني أُفارِق أحد أحلامي، وأنني في حالةِ وداعٍ يا صديقي، أُحاول جاهدًا محوه مِن رأسيْ وقلبي، أُحاوِل توديعه مِن داخلي و...

التفت إليه وبلع ريقًا وهو يبتسم بخيبة أمل:

- كان ذلك أصعب مما توقعتُ.

- لكن ما الذي تقوله أنا لا أفهم شيئًا من كلامِك المنمّق هذا، تكلم بشكل عادي أستطيعُ فهمه.

- عاتكة التي كانت في داخلي لِسنواتٍ تُغادِرُني الآن يا زُبير.

- لِماذا؟؟

- قالت إنني مُتعصِّبٌ جاهِل!

حلَّت الصدمة على زُبير فلم يعرف ما يقوله، هُنا أتى أحد الشباب مُناديًا:

- ليث، زُبير، أنتما هُنا، إن عِمران يدعوكما، لقد جمعَ الرجال، هُناك ما سيقوله.

تلاقت نظرات ليث وزُبير تعجُّبًا وتساؤلًا مما يريد عِمران قوله لكنهما سرعان ما ذهبا ليعرفا ما الأمر.

وحين اجتمع عدد من شباب المدينة ورجالُها المقرَّبون من عمران كانوا ينتظرون بَدْأه بالكلام، وتكلم أخيرًا:

- كلكم تعرفونني ويشهدُ الله عليَّ أني لم أهتك غيابَ أحدٍ بالنميمة، ولكن كما قال الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾. [النساء:148].

أيها السادة والإخوان الكرام لقد جمعتكم الآن هُنا لأُحدِثكم عن مظلمتي مع العمدة، فقد رأيتُ أنه وجب عليَّ التحدث بعدما بلغ السيل الزُبا.

* * *

عمران

كُنت أصعد إلى سطح الدار في كل ليلة عِندما يؤرِقُني الهم ويَغلِبني القلق، كُنتُ أجلسُ وأُسنِدُ ظهري المُثقل إلى أحد الجُدران وأتأملُ السماء طويلًا وقلبي مُلتاعٌ، أعلم أن لي ربًّا عظيمًا إن دعوته ما ردَّني لكِنني أؤمن بأنَّ البلاء مُعَدٌّ للمؤمنين أيضًا، وبين كل تِلك العواصف التي تمر بي بينما أجلس في زاويةٍ صغيرة مِن سطح داري القديم أنا أعلم فقط أنني أحتاجُ إلى مُعجزةٍ في مُصيبةٍ كهذه، كررتُ كثيرًا الآية: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾. [القمر:10]. وبينما كُنتُ أُتمتمُ بها طويلًا دون انقطاع كُنت أُفكر في أمي وإخوتي إن أُجبِرنا على الخروج من بيتنا أين سنذهب؟ وإن أُجبِرتُ على تركهم ماذا سيحلُّ بِهم مِن بعْدي؟ كيف سيُكمِلون حياتهم؟ فالحياة البسيطة التي أمنتُها لهم، سوف تُعدم! وكُنت أُفكر بالعمدة فرغم الخير الذي ينعم به لماذا يحط على شاب فقير مِثلي هذا الحمل الثقيل الذي بإمكانه أن يهدمه؟!

لماذا بعد كل تِلك المعرفة الطيبة؟؟ أكلّهُ لأنني شهدِتُ ضده لصالح عادل!؟ أوليسَت شهادة حقٍّ!؟ لِماذا يُصر على الإثم والعدوان؟ لماذا يُمعن في الظُّلم إلى هذه الدرجة!؟

ماذا سيحل بِسمعتي إن صدَّقَ أهالي القرية وأصدقائي والناس الذين يعرفونني؟ وجدتُ أنهُ يجب عليَّ إيضاح الأمر لهم مِن جهتي قبل كل شيء علَّني أحظى بِمن يُنصِفُني ويصدِقُني، وقررتُ أن أجمعهم بعد إفطارنا الجماعي ليلة الجُمعة، وبحمدِ الله بعدما قصصتُ لهم ما جرى وجدتُ التصديق والعون والمواساة مِنهم، كما أعرب بعضهم عن رأيه في العمدة بأنه طمّاع وجشع لكنني أعلمُ أن الأمر لم يكن كذلك لكثيرٍ من الناس، فكثيرٌ منهم يحبونه ويصدقونه ويعرفونه بينما ينكرونني، وبعيدًا عن كل هذا تبقى أدلتهُ ضدي كافية لإدانتي.

خمسة أيام مُتبقية على موعد المُحاكمة بيننا، كانت أمي تدعو على العمدة ليل نهار فأنهاها عن ذلك وحين تدخل عاتكة وهي غاضبة فتقول لي:

- إن دعوة المظلوم مُجابة لِمَ لا تدعو عليه؛ ليخسف اللهُ به الأرض ويُريحنا من شره!!

- لن أفعل أبدًا، أنا أدعو الله له بِالهداية والصلاح، ليته يتوب لربه.

- أما أنا فسأدعو عليه ولا شأن لِي بك، وأرجو مِن الله أن يزيدهُ ضلالًا فيموت كافرًا؛ ليلقى جهنم أيضًا.

كان في داخلي امتعاضٌ واستياء فرجلٌ مهم وغير عادي كالعمدة لم يكن من الجدير صدور هذا الفعل مِنه، فليفعل هذا أشخاصٌ عاديون، فليسرِقوا فليظلموا لكنه العمدة وأحد أهم القائمين على أعمال الجامع والمدرسة العلمية كيف له أن يتجرأ على الله هكذا!!

إنَّهُ راعٍ وإذا فسد الراعي فسدت الرعية! هذا ما كان يؤلمني ويَسوؤني.

في هذه الأيام كُنت أبحث لي عن مخرج أو دليل أو شيءٍ يُثبت براءتي قطعتُ الوديان والسهول والبساتين والمُروج وأنا أغدو وأروح بين المدن والقُرى البعيدة والقريبة أبحث عن شاهد، عن أحد يُمكن أن يكون على يده أو لسانه خلاصي!

حتى وقفتُ ذات يومٍ على باب أحدهم وقد كان يترددُ كثيرًا على دُكان العمدة في تِلك الفترة وأخبرني أنه يتذكر كل شيء وبإمكانه أن يشهد لي بتسليمي تِلك الأموال له بيدي وعلى مرأى ومسمع من عينيه لم أتمالك نفسي وبكيت من الفرح إنهُ بصيص أمل، فتحةُ ضوء بعيدة في آخر النفق المُظلم.

(5)

العِشقُ أوحد

ليث

لم أكن أعلم لماذا أصرَّ زُبير على مُرافقتي ودخول درس أخي حتى رفع كفه ليتوجه لأخي بِسؤال جعل وجهي يحمرُّ خجلًا:

- ما رأيك في الحب يا شيخ؟ أو ما هو الحُب بِرأيك؟!

أدار أخي عينيه فينا جميعًا وحين وقع بصرهُ عليَّ أخفضت نظري خشية أن يُفتضح أمري، أجاب بِصوتٍ يغمره اللطف والاطمئنان:

- الحبُّ شيءٌ حقيقي! وضروري جِدًّا ويكادُ يكون فِعلًا هو الهدف مِن وجودِنا هُنا. ولكن يجب علينا أن نفهم أتينا لنعيشَ قِصةَ الحُبِ الحقيقية مع من؟ أأحبابٌ مُتفرِقون خيرٌ أم اللهُ الواحِدُ القهَّار؟!

......

كِدتُ أخنق زُبيرًا حين رأيته بعد الدرس تِلك الليلة:

- تمهل، يا أخي تمهل، أهذا بدل أن تشكرني؟

- كِدت تفضحُني.

- لم يفهم أحد شيئًا، اطمئن.

- كيف ذلك، وقد أثار دخول أبلهٍ مِثلك للدرس تعجب الجميع، وبعد سؤالك هذا...

أطلق زُبير زفيرًا وهو يَتململ بضجر ثم يجلس على الأرض ويُسند ظهره للجدار ويمد قدميه:

- حسنًا أنا آسف لن أدخل درس أخيك مرة أخرى.

تقدمت لأجلس بجانبه على الطريقة ذاتها:

- لم أعنِ ذلك، أظن أن أخي شعر بي.

- هل هذا سيّئ؟

- لا أعلم.

جلسنا في صمت لم يخترقه سوى صوت صرا صير الليل، بعد دقائق قُلتُ:

- كُنتُ أعرف طوال تِلك السنوات أنني أعشقُها أساسًا...

- كيف عرفت؟

- إنني حكيم، لم يكن من الصعب عليَّ تشخيصُ هذا المرض.

التفت بكامل جسده إليَّ وسأل فاغرًا فاهُ بتعجب:

- مرض؟!

- أجل مرض، مرض طالما خشيتُ علاجه؛ لكن الأوان قد حان.

نهضتُ مُسرِعًا، تداركني سؤالهُ:

- توقف، ماذا ستفعل؟ إلى أين أنت ذاهب؟؟

التفتُّ ونظرت ناحيتهُ مِن زاوية عيني:

– إني ذاهبٌ إلى ربِّي ليهديني، سأعتكف في المسجد بدءًا مِن هذه الليلة.

نهض، تقدم نحوي:

– إنني لا أستطيعُ مرافقتك كما تعلم، لكنني سآتي لزيارتك وما دام العشقُ يؤلمك إلى هذا الحد فأتمنى لك الشفاء من كل قلبي!

ربتُّ على كتفه وودعتهُ مُبتسمًا.

......

قد تبدو تلك الكلمة التي قالتها هيّنة لكنها جرحت كبريائي، أما سهمُ نظرتها فقد أصابَ قلبي واستقر في أعماقي، ذهبتُ إلى البيت لِآخذ بعضًا من حاجياتي وأخبرهم أني ذاهبٌ للاعتكاف..

كان أخي يجلس في صحن الدار يُطالع أحد الكُتب بِتمعن ونور ومحمد يلعبان من حوله، أما كوثر فقد كانت مُنشغلة بأعمال المنزل، تأملتُهم لِلحظاتٍ فيما كان البيت بِهم يضجُّ سعادةً وحياة! حمدت الله على وجودهم فرغم كل شيء وبعيدًا عن كل شيء بقاءُ العائلة هو الراحةُ والنعيم وحُبهم هو طمأنينةُ الفؤاد، خجلت من نفسي حِيال كل شعور سيِّءٍ انتابني مِن قبل، إنني بخير ما داموا بخير، غمرت قلبي السعادة حين رأيت وجهَ أخي البَشوش الذي رفع بصره نحوي وابتسم ووضع الكتاب الذي بين يديه جانبًا وهو يُحيِّيني فيما تراكض الولدان إلى أحضاني..

- إنني ذاهبٌ للاعتكاف بدءًا مِن هذه الليلة يا أخي.

- بالتوفيق والقبول يا عزيزي، أنا أيضًا أنوي الاعتكاف لكنني مُتعبٌ قليلًا، رُبما أُوفقُ لذلك بعد أن يخفّ تعبي.

جلستُ عِنده حين رأيت أن سُعالهُ يُخالِط حديثه:

- ممَّ تشكو؟؟

- لا تقلق، تعبٌ بسيط، سيزول إن شاء الله، اذْهَبْ أنتَ، كوثر تهتمُ بي.

- لكن ماذا إن زاد تعبك؟! أنا لن أستطيع مُغادرة المسجد، يجب أن أبقى هُنا؛ لأكون موجودًا بجانبك لو حصل خطب.

- لن يحصل شيء، اذهب هيًا ولا تنساني مِن دُعائك.

......

بينما كُنت أُرتِب ما أحتاجهُ لأخذه معي أتتْني كوثر وبيدها طبقان:

- خُذ هذا معك للسحور، وسنأتي لك بوجباتك كل يومٍ.

- عافاكِ الله، انتبهي لأخي جيدًا.

ضحكت قائلة:

- أتوصيني أنا!! أنا أغمره باهتمامي أصبحتُ أحاول التخفيف عنه لئلا ينزعج.

- إن غاب عن المسجد فسأقلق، أرسلي أحدًا؛ ليُطمئنني عنه كل وقت.

- حسنًا اطمئن أنت.

فتحت لها ذِراعي بعدما صِرتُ جاهِزًا فأتت تضمُّني وقبلتُ وجنتها:

- في أمان الله.

- لا تنسانا مِن دعائك.

انحنيتُ أُقبِّل يمين أخي وعانقته وودعته:

- انْتَبِهْ لنفسك جيِّدًا.

......

اعتكفتُ في المسجد وانقطعتُ إلى الله تمامًا وكانت أجمل أيامي، ففي الحديث مع الله عِوضٌ عن كُل ألم في الحياة..

لا يُمكن لشيء ما إن يجعل حياتك سعيدة لدرجة أن تشعر بأن وجودك فيها حظٌّ عظيم، حُبهُ فقط والقُرب مِنه، سيجعلك تشعر بِذلك وأنتَ بِكامل وَعيك!

بحمد الله كان أخي قادرًا على القدوم إلى المسجد وإقامة صلاة الجماعة كل يوم رغم أنهُ ما زال مُتعبًا، وكان يَجلسُ ويُحدِّثُني عن أخبارهم، أما في وقت السحر فنتهجَّدُ معًا ثم يخرجُ عائدًا إلى البيت.

نور ومحمد كانا موجودَين في المسجد طيلة اليوم تقريبًا، وبعد انقضاء المدة خرجتُ مِن المسجد وقفتُ على أعتابه ورفعت رأسي نحو السماء أُراقِب الفرق بيني الآن وبين ما كُنتُ عليهِ في الليلة التي أتيت فيها!

سألني زُبير الذي رافقني تِلك الليلة:

- ما الذي تغيَّر؟

- بدأتُ أُدرِكُ أن الحبَّ بين الناس مِن العشق أرقى وألطف وأخفُّ وقعًا وأقلُّ عُنفًا، وأراهِن على فهمِكَ ما أقول!

التفتُّ إليه أضحك حيث بدتْ على وجهه الحيرة مِن حديثي، تنهدتُ مُكملًا طريقي إلى البيت بِرفقته وأنا أقول:

- العِشقُ يا صاحِبي أقوى، العِشقُ يا صاحِبي أوحد! وإذ إننا لم نفهم أنهُ للهِ وحده؛ وأنا مِن بعد الآن لا أُشرِكُ بربي أحدًا.

***

محمد

كُنا نلعب أنا ونور، أتت إلينا كوثر تُنَبِهنا بهمسٍ:

- اشش، لا تُصدِرا الضجة جدكما نائِمٌ ومتعب.

أتانا صوته المُتعب مِن الداخل:

- إنني مُستيقظٌ يا كوثر، دعي الأولاد يلعبون بِراحةٍ.

سمعنا صوت الباب في هذه الأثناء تراكضنا نحوه صارخين بحماسة وفرح:

- عمي ليث، عمي ليث، عاد إلينا عمي ليث.

استقبلنا بحماسةٍ، ورفع كلانا على يديه عاليًا كانت هذه من أحب ألعابنا مع ليث، حين دخل يُسلم على أخيه وجد أن تعبهُ قد زاد، وأنه لم يستطع حتى النهوض مِن فِراشه، استمر ذلك لعدةِ ليالٍ، كُنا في كُل ليلةٍ نجتمعُ في دارهِ على وجبة الفطور والسحور، ونبقى هُناك؛ لنتحدث ونتسامر ونضحك، وكان ليث يهتم به ويُمرِّضهُ، ويتناوب هو وكوثر بالسهر على راحته في ليلةٍ حالِكة ازداد سُعاله وضاقت أنفاسه ركضت كوثر لِغرفة ليث الذي كان يغطُّ في نومٍ عميق، نادتهُ بِهلع:

- عمي، ليث.

يُجيبها بهَمهمَة فتهُز كتفه:

- هُنالك خطب، استيقظ أرجوك.

بصوتٍ يملؤه النُّعاس:

- ماذا حصل؟!

- يجب أن ترى أبي، إنني خائفة فهو لا يكاد يستطيعُ التنفس.

في هذه الأثناء كان الشيخ هادي يحاول فتح النافذة لتلقي قليلًا مِن الهواء، فأزاح السِّتار وجحظت عيناهُ بِصدمة حين رأى المرأة ذات السواد مُجدَّدًا تقف أمام نافِذته مُباشرة، أخذ شهيقًا طويلًا وعاد يسعل، في هذه اللحظة هرول ليث نحوه ووراءهُ كوثر.

اهتم به ليث وأعطاهُ دواءً بعدما هدأ سُعاله أخيرًا، قال لليث:

- أُخرُجْ واسْتَطْلِعِ المكان حول البيت.

- لماذا؟ أهناكَ خطب؟!

- اذْهَبْ وانْظُرْ إن كان هُناك أحدٌ غريبٌ في الجوار.

- حسنًا.

حمل ليث في يديه سِراجًا وخرج بحذر، دار حول البيت ومد بصره في الأزقة القريبة لكنهُ لم يجد شيئًا، ومضت تِلك الليلة على خير.

* * *

ليث

مســاء اليوم التــالي وحين كُنت أهتمُّ بأخــي الذي بدا حالُه أفضل بِحمد الله، قال وهو يُشير بكفه إلى جانبٍ من الفراش:

- إنني بخير، اجلس أودُ التحدثُ إليك.

جلستُ حيثُ أشار وحدقتُ بهِ مُنتظرًا كلامه:

- قررتُ إرسالَ عِمران لإكمال تحصيله على يد أُستاذي (الشيخ علي) من أكبر العُلماء وأكثرهم تَبحُّرًا في زماننا، وعِمران شابٌّ فطن وذكي، وإنني أرى في داخله نورًا نادِرًا يشعُّ من عينيه ويجري على لِسانه وكل حركاتهِ وسَكناته؛ لذا أرسلتُ رسالةً إلى الشيخ علي أُخبِرهُ فيها عن عِمران وأطلب منه تعليمه، وهو الآن يستعد للرحيل، وإن كُنتَ تنوي الزواج مِن أخته فيجب علينا الاستعجال في خِطبتها لنعقد قرانكما قبل سفره، ومِنها تكونُ أنتَ مسؤولًا عن عائلته أثناء غيابه.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

أخفضتُ أنظاري فور ما فتح موضوع زواجي مِن عاتكة وبعد هُنيهَةٍ من الصمت قُلت:

- إنني أوافِقكَ الرأي بِشـأن عِمران البتّة، لكنني عزفتُ عن فكرةِ الزواج بِأخته.

أعتقِدُ أن نغمة نبضِي الحزينة عزفت أوتارها على صوتي حين أجبت بذلك، قرأتُ في عينيْ أخي انتظارًا لمبرر أو توضيح عن السبب لكِنِي لم أكن أنوي التحدُّثَ أكثر.

طُرق باب البيت وكان سائلًا مِسكينًا أعطيتهُ صُرَّةً من المال:

- أشكرك سيدي، أشكرك كثيرًا.

- لا داعي لشكرك يا أخي، نحن نسألكُ الدعاء لأخي فقط.

- ليحفظهُ الله ويُطيل عمره.

- آمين، آمين.

حين انصرف وهممتُ بإغلاق الباب لمحتُ عمران آتيًا.

- آه عمران، يا مرحبًا كيف حالك؟؟

- أحمد الله.

قُلتُ مُستدركًا:

- تفضَّل، تفضَّل لا تبقَ عِند الباب.

قال وهو يطأ عتبة الباب:

- أردتُ رؤية الشيخ هادي والاطمئنان عليه وهُناك أمرٌ وددتُ مفاتحته بِه.

......

بينما كانت كوثر تُحضر طبقًا للضيافةِ كُنت أقف أمامها وأرمقها بِابتسامةٍ ماكرة:

- أتعرفين هوية الضيف؟

قالت وهي مُنشغلة بوضع إناء اللبن:

- كيف لي أن أعرف، لم تقل، مَن هو؟!

- إنهُ عِمران!!

- أجل!! ما الأمر؟ أهو مُتعلِّقٌ بِعاتكة؟!

- بل بكِ.

سألت بدهشة:

- بي أنا؟!

- لقد جاء لِخطبتك.

ظلَّتْ تُحدق بي فاغرةً فاها دون أن تَرمش وقبل أن تنبس ببنت شفة أردفتُ:

- كما أنهُ هو الذي أنقذ نور حين أُختُطف وهو الجريحُ الذي كان طريحًا على الأرض الذي رأيتِه أنتِ ولم أجدهُ أنا!!

اقتربتُ مِن وجهها:

- قولي الحقيقة.

قاطعتني بهلع وهي ترفع كفيها:

- أُقسم أنني لا أعرف، أقسم بالله العلي العظيم لا أعرف.

انفجرتُ ضاحكًا:

- حسنًا، حسنًا، أنا أُصدِّقك، هدئي من روعك!

- بم أجابهُ والدي؟!

بِلهجةٍ جدية:

- إن عمران شابٌ رائع قلَّ نظيرهُ يا كوثر، لكنه على وجه السفر بعيدًا لأجل العلم.

- بم أجابهُ والدي؟

- إنهُ موافقٌ بالطبع لكنه يردُّ الأمر إليكِ!

- أنا لن أترك والدي وأرحل.

***

في اليوم الذي سيُسافر فيه عِمران خرجت لتوديعه وعانقته:

- كان بودي مُرافقتك أكثر لكني لا أستطيع بسبب وضع أخي الصحي، يجب أن أذهب للاطمئنان عليه.

- أبلغهُ سلامي وتحياتي، لن أنسى فضله عليَّ أبدًا، ليحفظكم الله.

- في رِعاية الله يا عزيزي، أتمنى لك التوفيق.

غادر عِمران القرية، وكان الناس يتراوحون على بيتنا بين ذاهبٍ وآتٍ وذلك من أجل عيادة أخي، حين عُدت إلى البيت أطللتُ عليه فوجدتهُ نائمًا، لم أدخل بل توجهتُ للمكتبة فورًا وبدأت أقرأ بعض الكتب الطبية، وبعد دقائق تقريبًا جاءتني كوثر تركض هلِعة ما إن رفعت إليها بصري ورأيتها حتى هبط قلبي وشعرتُ لوهلة أن الدم قد جف مِن عروقي، وقفت أمامي بهدوء وهي كالشبَح، جذبَت نفساً عميقًا وأطبقت جفنيها وهي تقول:

- لا أشعرُ أنه يسمعني.

لم أشعر بنفسي إلا وقد وقفتُ على قدمي وتناثرت كُتبي وأوراقي أرضًا هرولنا نحو الغرفة، رأيتهُ نائمًا، جثوتُ عِنده، وضعتُ كفي على جبينه ناديتهُ:

- أخي...! أخي هادي!!

بدأت أفحصه إلى أن خارت يداي وخارت معهما كوثر التي كانت تقف في الخلف مُنتظرةً ما يُطمئنها، خارت وهي تصرخ صرخةً حفرت أعماقي:

- آه، والدي، والدي، افعل شيئًا يا ليث لا تدعه يموت ويتركنا!

لم أكن أستوعب ما حدث فكيف هذا؟! لقد كان أخي بخيرٍ يتحسن ويتماثل للشفاء عُدت إليه فحصتُه مُجدَّدًا ناديتهُ كثيرًا حاولت إيقاظه مُتمنيًا أنه نائم:

- أخي، أخي!! أجبني يا هادي أجبني يا أبي.

أجهشتُ بالبكاء وأنا أضع خدي على كفه فيما تُعانقه كوثر وتشهقُ، كادت روحها تخرجُ مع شهقاتها، أسرعتُ نحوها هلِعًا، حاولتُ انتزاعه مِنها، ولم أستطع فقد كانت مُتشبِّثةً بِصدره:

- كوثر أرجوكِ!

كانت تحنُّ وتئنُّ وكان نشيجها يزيد مِن لَوعتي وألمي وحيرتي:

- لم يرحل والدي، ما زال هُنا، أرجوك استيقظ لا تتركني أبي!

* * *

كوثر

كنتُ أمسحُ الدموع بِهَمجيّة عن عيني؛ لتتسنّى لي رؤيتهُ جيدًا، أنظر إليه أتأملهُ، وجههُ الذي لن أراهُ ثانية بعد هذا اليوم، عينيه اللتين انطفأتا إلى الأبد ولم أودعهما، كنتُ أحاول تذكُّر آخر نظرةٍ وجَّهها إليَّ ولم أكن أُدرِك أنَّها الأخيرة، نظرت إلى يديه المُسبلتَين، هل أصبح أبي ميتًا الآن؟! كم يصعب تصديقُ هذا واستيعابهُ.

لقد كان كُل شيءٍ فِي حياتِي، لقد كان قِصتي، مُهجةُ قلبي، وحبي الذي لم يتبدل كيف سأستطيعُ النظر لحياةٍ تخلو مِنه، وأنا لم أعرف للدُنيا وجهًا من دونه، فقد كان هُنا مُذ أتيتُ، لماذا رحل وتركني ولم يبقَ معي؟! لا أشعرُ أني كبرتُ عن حاجتي إليه، ما زِلتُ طفلةً تستمد من عينيه ضوءًا يمكّنها من الحياة.

غُرفتهُ، سريرهُ، ثيابهُ، عِمامتهُ، مِنبره، وحياتي، غادرنا جميعًا، أبي يخلو من كل هذا الآن.

أطلقتُ عويلًا رفيعًا، وانزويتُ على نفسي، واحتواني عمي بحضنه، ضمني بقوة، وكنتُ أسمع نشيجَه وأنحَب.

بعد لحظاتٍ وحين رأى عمي على جسد أبي ما أثار انتباههُ، راح يفحصهُ مُجدَّدًا، ومن ثمَّ جلس مُنهارًا وهو يضع يديه على رأسه والدموع تنهمر من عينيه، توقفتُ قليلًا عن النحيب سألتُ بجدية:

- ما بِك...؟ ماذا وجدت؟

- أحدهم عمد إلى قتل أخي، إنهُ مسموم.

جحظت عيناي، وشهقتُ واضعة يدي على فمي:

- مَن؟؟؟ مَن قتل أبي؟!

- مَن هو الزائِرُ الأخير؟!

اعتصرتُ عقلي مُحاولةَ الخروج بنتيجة:

- لا أعلم كانوا جمعًا من رِجال المدينة، و...

اتسعت حدَقتاي وقلت بتذكُّر:

– لقد كان أبي نائمًا، ولم نتحدث مُنذ خرجوا، هذا يعني أنه كان ميتًا مُنذ تِلك اللحظة، حتى أنني لم أعلم بخروجهم أساسًا، سألت نورًا عما إذا كان أحدٌ بالداخل، فقال: لا.

......

أسرع ليث بإمساك نور، سأله:

– مَن زارَ جدك الليلة؟؟

– الرجال، مثل كل يوم.

كرر سؤاله بلهجةٍ ثقيلة:

– مَن هم؟ تذكَّرْ.

بتلعثم وارتباك كان يحاول التذكُّر:

– الناس الذين في القرية، المساكين الذين يُساعِدهم، وكان فيهم تاجر، وشيوخٌ، وبعض التلاميذ الذين في المدرسة، ولكن لا أعرفهم جميعًا!

انخفضت أكتاف ليث وتراجع للوراء حين لم يخرج بنتيجة، توجه نحو الباب، استوقفتُه:

– إلى أين؟

– يجب أن نجهّز أخي سأُخبر أهل القرية.

***

مُحمد

علا الصوت مِن أعلى منارة الجامع: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون انتقل إلى جِوار ربه الكريم الشيخ الأُستاذ هادي). واجتمع أهالي المدينة عِند المُغتسل، احتضن نور جدهُ المُمدَّد هُناك وأجهش بالبُكاء، نحَّاهُ ليث ومسح على رأسه وقبَّله وصبَّره، فيما كُنتُ أقفُ في زاويةٍ بعيدة وأبكي، بينما كان ليث مشغولًا بتجهيز أخيه كان الناسُ في الخارج يتهامسون مُتسائلين:

- لقد تأخر أصحاب الشيخ هادي..

- أجل، إن مع ليث صاحبه المتسكع زُبير فقط.

- يا للعار! أين العمدة وكبراء المدينة، لم يحضر أحدٌ بعد!!!

- لقد بدأ بتجهيز أخيه مِن الصَّعب عليه الانتظار، لا يُمكنه تأخير الدفن لأجل أحد!

- لكنهم كانوا مقربين جِدًّا مِن الشيخ هادي، حضورهم أمرٌ ضروري.

- لا تُقحِم نفسك فيما لا يعنيك، ولنقم نحنُ بِواجِبنا، فلو كان أحدٌ منهم سيأتي للتشييع لما تأخر حتى هذا الوقت.

- مع ذلك سأذهب؛ لأخبرهم ببدء التشييع.

- افعل ما يحلو لك.

خرج ليث مِن المغتسل يُشاركُ في المقدمة بحمل طرف من جنازةِ أخيه، وحين وقع بصرهُ على الناس وقف يتأمل وجوههم واحدًا واحدًا

ويتساءلُ في داخله بِحيرة بالغة: "مَن الذي قتل أخي؟ ولماذا؟ مَن يكون الفاعل يا تُرى؟!".

لم يجد مَن يشك به فيما كان يشك بالجميع في آنٍ واحدٍ، الشيء الوحيد الذي استيقنه هو أنَّ أخاه قُتل ولم يمضِ حتف أنفه، وهنالِك عدو خفيّ تحجبُ معرفته، التفت إليه زُبير الذي يحمل الطرف الآخر من مقدمة الجنازة:

- ليث!

انْتَبَهْ إلى نفسه، فتقدَّم يمشي والناس يتبعونه ويُحيطون بِه، الحُزنُ بادٍ على وجوه الجميع، أيديهم التي تُطبطب عليه، كلماتهم، تعازيهم، مواساتهم!

إنهُ يرى الجميع أحبَّاء وأعداءَ في آنٍ واحد، ينظرُ في عيون المواسين حولهُ بِشك؛ ولم يعد يثق بأحد حتى إن ثقته بأقرب أصحابه صارت تنهمر منه انهمار المياه!! من الحبيب ومن العدو، مَن هو القاتل؟ ولِماذا؟!

......

شيّع ليث أخاه في غياب عدد ممن يعتبرونهم كبراء المدينة ووجهائها، رحل الرجلُ الذي أنقذ مدينته مِنها تاركًا عائلة يُحبُّها كثيرًا، كانت كل حياته، أولهُ وآخره، بِدايتهُ ونِهايتهُ.

لقد حملَ ذلك الجسد الذي يُحمل على النعش الآن في صدره حُبًّا كبيرًا، لعائلته وأهلِ قريته.

أمَّ ليث صلاةَ الجنازة وتولى دفنه، بعد ذلك غادر الجميعُ أرض المقبرة وعادوا لاستكمال أعمالهم، بينما بقي ليث متربعًا على التُّراب ينظر أمامهُ بعينين فارغتين، جلس زُبير عِنده، طبطب على ظهره:

- ألن تقوم يا ليث؟

نظر ليث إلى يديه المغبرّتين:

- قلَّبتُه على المغتسل بيدي، دفنتُه بيدي.

رفع بعدها بصره نحو زُبير الذي بلع ريقه مُتأثرًا بحالة صديقة المؤلمة:

- إن أخي مقتول يا زُبير.

جحظَت عيناه:

- ما الذي تقوله؟!

- أحدهم قتل أخي ولن أتركهُ حيًا.

قال مُستنكرًا وغير مُصدق:

- مَن عساه يقتل الشيخ هادي؟!

تجمَّعت في عينَيْ ليث الدموع، وأطلق زفيرًا، والتفت ناحية القبر يُواري وجهه عن صاحِبه، حين فهِم زُبير أنه لا ينوي المغادرة الآن سأله:

- أتُريدُ مِني البقاء؟

هزَّ رأسهُ نفيًا فودعه زُبير قائلًا:

- ألهمك الله الصبر والسلوان!

بقي وحيدًا عِند أخيه يقرأ القرآن، غابت الشمس وما زال هُناك، انتصف الليل وما كان يستطيعُ تركهُ في تِلك الديار الموحِشة، لم ينتزع نفسه إلا لأجل كوثر التي بقيت في البيت وحيدة وقد تقلقُ عليه، حين دخل استقبلتهُ مُسرعة وما إن تلاقت أعينهما المتورمة حتى انهملت دموعهما، قال ليث الذي يبدو مُهدم الكيان مهدود الحيل مُنخفض الأكتاف:

- تركتهُ في قبرهِ وأتيت.

أجهشت كوثر:

- دعنا نَرجِع إليه معًا.

- صدقيني يا ابنة أخي أن لا طاقة لي.

جر خُطاه إلى غُرفته وألقى بِنفسهِ على فِراشه.

* * *

ليث

إنني مُثقل مُنهك كلما لم أكن مِن قبل؛ فقدتُ اليوم أخي الذي لم أتصور حياتي دونه.

كان كأبي.

شعرتُ دومًا بأنني صغيرٌ في وجوده، مُسندٌ بأقوى ما يكون دومًا، لكن ظهري اليوم خالٍ لا شيء يُسنِده وكبرتُ في لحظةٍ وأضحيتُ وحيدًا مُقفرًا من دونه!

إنها الليلةُ الأولى لنا والبيت خالٍ مِنه، كم أصبح باردًا موحِشًا لا يُطاق!

أطبقتُ جفني وهملتْ عيناي بالدموع، وأنا أسمع أنين كوثر لا ينقطع، لا أعلم كيف مضت تلك الليلة فقد كانت أطول ليلةٍ في حياتي.

(6)

جزاءُ الإحسان

ليث

بعد انقضاء ثلاثة أيام وحين خرجتُ لِفناء البيت صباحًا وجدت عاتكة موجودة تواسي كوثر وتطمئن عليها، هممت بالانصراف دون النظر إليها إلا أنها أتت نحوي واستوقفتني بالنظر في عيني بتأثرٍ واهتمام:

- عظَّم الله لك الأجر، يرحمه الله، ويجعل مثواه الجنة!

هززتُ رأسي دون النظر إليها أيضًا، وأنا أُمسِكُ مقبض الباب مُتأهبًا للولوج إلى المدرسة:

- شُكرًا.

إنه أول يوم ندخل فيه المدرسة بعد وفاةِ أخي، قضينا الأيام الثلاثة الماضية في العزاء، كما أنني صرّحتُ لأهالي المدينة بأن أخي قُتل مسمومًا إلا أن أحدًا لم يحملني على محمل الجد غالبًا، لقد ظنوا أن الحُزن نال مِني أو أنني أهذي! لم يكن أحد يُصدق أن يكون لمثل أخي أعداء تجرّؤا على قتله.

دخلتُ الفصـــل لأتفاجأ بعبد الرحمن يجلس مكاني ويُلقي مُحاضرةً دِراسيّة، قُلتُ:

- ما الأمر عبد الرحمن؟!

أضفت بعدما التفتُّ في الجوار:

- أين تَلاميذي؟!

أجابني بِنبرةٍ آسفة:

- اذْهَبْ إلى اللجنة المسؤولة عن المدرسة لتعرف الأمر.

عقدتُ حاجبي:

- لجنةٌ مسؤولة!!!

ولكي يُخفف عن نفسه العبء اختصر قائلًا:

- إنهم بانتظاركَ أساسًا.

......

دخلتُ الفصـــل الذي يقعُ في آخر الممر فوجدتُ فيه خالدًا أحد وجهاء القرية المعروفين، قُلتُ:

- خيرًا! ما الذي يجري هُنا؟

- أرسلك عبد الرحمن إذن.

تنهد عميقًا كمن يستعدُ لِحوارٍ ثقيل:

- هذه المدرسة ذاع صِيتها في كل مكان على أنها مدرسة للعلوم الدينية، ونحنُ لم نجد أن هناك داعيًا لإكمالك دروس الطب التي تُعطيها، لقد صرفنا تلاميذكَ باكرًا وأخبرناهم بـ....

قاطعتُه بِغضب:

- مَن أعطاك الحق لِتُقرر بِنفسك ما سيُعطى في المدرسةِ من دروس؟؟ مَن أنتم؟!

أجاب بهدوءٍ يزيدُ استفزازي:

- أتفهمُ وضعك، اسمع يا ليث، بعد رحيل أخيك وضعنا لجنة ترأس المدرسة وجُل شؤون المدينة التي كان الشيخ هادي يرأسُها سابقًا، كما تعلم فهو رتَّب كل شيء، ولا نريد لما رتَّبه أن يتبعثر من بعده؛ لذا وضعنا اللجنة! بالنسبة للمدرسة فلا يُمكنك إلقاء محاضراتك ودروسك فيها؛ لأننا بِحاجة لكل فصل..

أضاف وحدقَتاه تتّسعان:

- فعددُ التلاميذ في ازدياد! كما تعلم يأتي إليها الكثير من كافّة المُدن والبلدان.

- أنا وأخي أنشأنا هذه المدرسة بعزلِ جزءٍ من بيتنا وأوصلناها إلى ما هي عليه اليوم معًا، لم يكن هناك داعٍ لتنظيم لجنةٍ في وجودي حتى لو رحل! البيت لي وأنا أتولى كامل الالتزامات.

نهض وصار يتجه نحوي، قال بِنبرةٍ مُستعليَة:

- كلا يا ليث، إن هذه المدرسةُ مِلكٌ لنا، مِلك لِطلاب العلم وأساتِذتهم! كما أنك لم تُمهلني؛ لِأُخبِرك بأننا نحتاجُ البيت كُله، سيكون خيرًا لو جهزتهم أنفسكم لمغادرته وتسليمه في أقرب فرصة.

شددتهُ من ياقتِه:

- أنتَ تتمادى.

ثبت عينيه فِي عيني ورمقني بِنظرةٍ هازئة دون أن يلمِسني، تركتُه، جذبتُ نفسًا علِّي أنجحُ في استعادة السلام لصدري، قُلتُ بِهدوء:

- ساعتبرُ أنني لم أسمع شيئًا وسوف أُعطِي مُهلةً قصيرة، بضعةَ أيام فقط؛ ليهدأ الجميع فيها ويُراجع نفسه ثم سأُعاوِد إلقاء دروسي مِن جديد.

قُلت مُتذكرًا قبل أن أنصرف:

- ها! كما أنني بعد المهلةِ لن أسمح لأيٍّ كان أن يُنصِّبَ نفسَه أستاذًا هُنا ما لم يكن أهلًا لذلك.

- مَن تقصدك بِكلامك؟

- عبد الرحمن! كان تلميذًا حتى آخر يومٍ في حياة أخي لا يجدر به تعليم الطلاب الآن في مدرستنا.

كوثر

في مُنتصف النهار أخذني ليث لِقبر والدي، وكم كان من الصعب التصديق بأنِ من كان معي قبل أيام تحجبهُ الآن طوابق عميقة تحت هذه الأرض.

كابوسي الذي وقع، ما أسرع وقوعه!

أنا أشعرُ بأني ما زلتُ تِلك الطفلة التي تستيقظُ فزِعةً؛ لأنها رأت في نومها أنها فقدت أباها.

أبي، أبي (أبي وكأن حياتي كانت أبي والآن فقدتُها) صدقني لقد كان باستطاعتي مواجهة الموت نيابة عنك، فلماذا رحلت على حين غرّة؟!

كان بإمكاني صد كل سهم يدنو منك بِقلبي، كان بإمكاني أن أموت ولا أرى في أنامِلك "يا جُرحي الآن" جُرحًا...

أتعلم؟ كُنت أتوسل إلى الله في كوابيس طفولتي أن يهبَني مُعجِزةَ رجوعك، ليتك بقيت وذهب كل شيء.

......

عِندما عُدت إلى البيت جلست مع نور ومحمد قليلًا، حدثتهما، سكَّنتُ روعَهما، وبينما نحن كذلك طُرق الباب فتوجه ليث ليفتح، وبعد مكوثه لساعة يتحدث مع الرجل عاد إليَّ وطلب أن يحدثني على انفراد، صرفتُ الولدين إلى غرفتهما:

- ما الأمر؟!

- يريدون أخذ محمد.

شهقت:

- إلى أين؟ مَن يريد أخذه؟؟

- يقولون إنهم أعطوه للشيخ هادي، وبما أنه توفي قرروا أن يكفله عبدُ الرحمن بمشاورة الجميع.

- وما شأننا بالجميع، نحن أصبحنا أهله، وقد اعتاد علينا، مَن هم الجميع ليقرروا نيابة عنهُ وعنا؟!

أجاب وقد بدا في حيرة:

- سأنظُر في الأمر وأردُّ لهم جوابًا وعسى ألا يُسبِّبوا لي المتاعب.

استغربتُ حديثه ولمستُ فيه نوعًا من المرارة لكني لم أشأ التعمق أكثر كما أنني ظننتُ الأمر يرجع إلى أنفسنا المكسورة لفقد أبي هذه الفترة.

وضعتُ لهم الطعام وجلسنا جميعًا نأكل صامتين مُطرقين وفي كل وقتٍ من يومنا يكبر حجم الفراغ الذي خلّفهُ والدي فقد كانت ضحكاتهُ تغمرنا، وأحاديثه تجعل موائدنا عامرة، أمّا الآن فكل شيء مِن بعده مكسورٌ ناقِصٌ حزين!

وتُقبلُ إليَّ الليالي مُحمَّلةً بالحنين، تتسلل إلى روحي سِهامُها وسيُوفها، أما أنا ففي جيشي وحيدة، وإن شروق الشمس صباحًا وهبوب النسائم ليلًا ودوران الحياة وآلاف الكلمات وعشرات الأكُفّ التي تربتُ عليَّ مواسيةً لا شيء مِنها يستطيعُ فِعل شيء حيال شوقي إليك...

لا شيء يُعوِّضُ غيابك الذي أبقى فؤادي فارِغًا، وإذ إن لِذلك وخزًا مؤلمًا، الفراغُ الذي يُخلِفهُ اشتياقي يؤلِمني كثيرًا، وكأن أشباح روحي تحتضر في داخله، وكُلما خطر في بالي أن مُجرمًا لعينًا قتلهُ وسرقهُ منا وأخذ المُتبقي مِن عمرهِ خِلسةً كُنتُ أحِنُّ وأئنُّ ولا تستطيعُ دموعي التوقف للحظة، الجميع عدا ليث كان يطلب مني أن أكف عن البكاء ليلًا، أنْ أهدأ وأسكن لكن ذلك لم يكن بيدي.

محمد

بعد موت الشيخ هادي الذي أفجع الجميع من أصحابه وأهل مدينته حصلت أمور كثيرة وتغيرت قرارات مصيرية، وفي ظِل ظروفٍ غامضة أُشيع أن ليثًا يتمنع عن دفع الصدقات التي خصصها الشيخ هادي من بساتينه للفقراء، وأُشيع أيضًا أنهُ يُريد طرد رواد المدرسة؛ ليُغلِقها نهائيًّا ضاربًا بحضارة القرية ونجاحها عرض الحائط، وأنه سيتسبب لهم بالفقر والجوع ما إن أغلق المدرسة وانعدم زوار القرية ومن يرتادها من الناس بسبب النشاطات القائمة.

ونجح مَن يريد تأجيج الأهالي ضده وتِلك الشائعات آتت أكلها سريعًا فقام الفقراء والبُسطاء من الطلبة ممن صدق هذه الشائعات ووقفوا في وجهه إلا القليل ممن وفى لِرعاية الحق فيه. حتى إنه حين صرَّح بأنَّ أخاهُ قُتل مسمومًا لم يصدقه أحدٌ بل قالوا إنه لفَّق تُهمةً كهذه لينتقم ممن يُجبره على وهب المدرسة والبساتين ويتهرب من ذلك.

حاول ليث الدفاع عن نفسه وشرح موقفه بشتى الطرق كان يخرج صباحًا ومساءً ويتحدثُ مع العلماء في المدرسة ومع الوجهاء والتجار في القرية:

- البيت مِنذ البداية كان إرث أبي عن جدي وأصبح لنا وحين أقمنا المدرسة في جُزءٍ مِنهُ أقمناها معًا، إنني سأهتم بِتنظيم أمورها على أكمل وجه لكِن أن تخرجونا من بيتنا هذا أمرٌ لا يُعقل!! كما أن العُلماء الذين

أتى بهم أخي لا يجب أن يتغيروا، لا يجب أن يقوم بالتدريس أي شخص عادي، يجب أن يكون عالمًا مُطّلِعًا على قدر من المعرفة والإلمام.

أجابهُ أحدهم:

- أنت شابٌ صغير قليل الخبرة لا يعترف بِك أحد؛ تُريد أن تُعلِّم في المدرسة بوجود شيوخ كبار!! ماذا نقول للقادمين من خارج البلد؟ ماذا نُبرِّر لهم إن رأوا شابًا صغيرًا يُعلِّمُ شيوخًا كبارًا أو يجلس في عدادِ العلماء بينما يجلسون هم في عداد الطلبة؟! يجب أن تتنحّى لما تقتضيه المصلحة.

أطلق ليث ضِحكة ساخرة:

- ولكن ما شأن هذا بذاك، على هذا سنبقى جُهّالًا!! العلمُ لا عُمر له يجب على الجاهل تلقي العلم من العالم مهما كان عمره!!

- وتتباهى علينا أيها المتغطرِس!

قامت الفوضى بين الموجودين كأنهم همَجٌ رَعاع ضاربين بعرض الحائط حجج ليث وبراهينه القاطعة على أحقيته التامة بينما التزم بعضٌ منهم الصمت ليكبر فيهم بصيص مِن أمل ليث.

في مجلِسٍ آخر، وحين كان يُدافع عن بقية حقوقه:

- هذه البساتينُ كانت إرثًا لنا من والدي وقد زرعناها أنا وأخي يدًا بيد، وتعاهدنا على تخصيص ثُلث محاصيلها للفقراء، وأنا لن أتوانى عن ذلك، ولن أُخلِف عهدي، سأستمر بما بدأتهُ مع أخي وأدفع الصدقات وأُجزِلها لكن ما تقولونه لا يجوز فهذا حقُّنا، حق أيتام أخي.

لم تكن كثرة حُججه مُجدية، وكأن حديثه لا يصل إلى مسامعهم، كان يشعرُ بأنه في كابوسٍ مُزعجٍ مهما صرخ لا يخرج صوته من حنجرته. حتى أنَّه خاطبهم واحدًا واحدًا بأسمائهم ولا يُجيب سوى الصدى.

بعضُ العلماء مِن أصدقاء الشيخ هادي لم يحتمل هذا الاضطراب وغادر القرية والمدرسة، أمَّا البعضُ الآخر فتمنع عن التحيُّز لطرف وفضَّلَ أن يقوم بمهنته وواجبه فقط دون الاهتمام بأمر الإدارة.

كان ليث في السابق هو روح المدينة المرحة، الآن لم يعد يتجولُ مُبتسمًا ضاحكًا فقد أمسى يمشي مُنخفض الأكتاف كسيرًا مخذولًا مُتوجعًا، كان وحيدًا مُنفردًا يخوضُ حربًا نفسية ضد جيشٍ كبير، طاغي الحزن وأُقسِمُ أنَّ عينَيه المخذولتين كانت تُرعِبهم.

......

ليث

في خِلال أيام قلائل تغير حال القرية، أصبح المشي في شوارِعها الخالية كالغوص في قاعٍ عميقٍ مُظلم، وأن جُدران أزقّتها تضغط عليَّ كلما تقدمتُ شِبرًا، وتفوح مِنها رائِحةُ الغدر والخيانة.

هؤلاء الناس لم يعد مِنهم من يعرفني أو يعرف أخي وأصبحتُ في غُربة.

لم أكن أتوقع يومًا أن أمشي في بلدتي وكل جوارحي مُتأهبةٌ لصدّ هجومٍ مُباغت.

وصلتُ إلى البيت وحين دخلت كانت مجموعةٌ مِن نسوة المدينة يخرجن مِن عند كوثر، لم أنتبه جيدًا لنظرات الازدِراء في أعينهن بقدر ما استولى وجه كوثر الشاحب على كُل انتباهي!

أدركتُها حين خرَّت على العتبة، وخرَّت فوق وجنتيها دموعٌ مريرة، وظننتُ أنَّها كما كانت طيلة هذه الفترة لا تتقبل بأي شكلٍ موت والدها جلستُ معها أحطتها بِذراعي، أسندتْ رأسها لصدري وبِصوتها المبحوح قالت:

- إنني غريبةٌ لا مكان لي، وأودُ لو أن الموت يضمُّني إليه.

قبلتُ جبينها وأنا أضمها بِشدة:

- ليحفظك الله يا وحيدتي، كُلنا ماضـون إليه، أتعلمين؟ أنكِ وتور جبرةُ خاطري حين تكسِـرُني الدُّنيـا، أنتِ ألطـفُ خلق الله وأرقهـم إحساسًا.

رفعت بصرها نحوي لِتلحظ الاحمرار في عيني:

- ما بك؟ هناك خطب أنا مُتأكدة، أخبرني.

رمقتها من طرف عيني بابتسامةٍ جريحة وحين شعرت بأني لا أنوي الكلام عادت تُسنِدُ رأسها إليَّ وقالت:

- أنت تظن أن نسوة المدينة كُنّ هُنا لِمواساتي؟!

التفتُّ إليها بدهشة:

- إن لم يكن كذلك، فلِماذا؟؟!

ابتسمت بعدم اكتراث رغم أن بريق عينيها وأوتار صوتها لا تُخفي الغصص المتزاحمة في صدرها:

- أنينَ ليُخبرنني كم أن بُكائي وأنيني يؤذيهم وأن عليَّ المُغادرة.

انتفض قلبي بالغيظ، قطبتُ حاجبي وحينَ تذكرتُ ما أنا فيه وجدتُ ألا فرق أبدًا، لم أجد بُدًّا مِن إخبارِها، حاولتُ سدَّ دموعي دون جدوى فهي كانت تنهمر فيما أشرحُ لها قائلًا:

- أصبح الجميع عدوًّا لي، وبدل مواساتي وتصديقي والبحث معي عنَ قاتل سيِّدهم أخذ كُلٌّ مِنهم لِنفسه منصِبًا مما كان لأخي وأزاحوني.

لا يُريدونني أن أكون مُعلمًا في مدرستِنا، ويُريدون مِنَّا الخروج وتسليم البيت فهو حق للطلبة والمعلمين، وأما البساتين فجميعها من حق الفقراء والمساكين، نحنُ لا حق لنا هكذا يقولون!

- اللعنة عليهم، ألن تستطيع فعل شيء حيال هذا؟!

تنهدتُ بتعب:

- تعبتُ من كثرة الكلام يا كوثر، لم أترك بابًا إلا طرقته، لم أجد جمعًا إلا أخبرتهم، كم مرة حاجتهم، لا أحد يريدني، لا يُريدون سماعي؛ لأنهم يعرفون الحقيقة، لقد جحدوا بِها واستَيقنَتها أنفسهم ظُلمًا، لكِنني لنَ أرضى بالظلم ولن أستسلم له، سأُدافع عن حقِّنا وسأحفظ ما تبقّى مِن أخي، كُل ما تبقى، ما بدأهُ هو سأكملهُ أنا على الوجه الصحيح، لن أسمح لهم بتشويه أحلامه.

فجأة طُرق الباب بقوة كأن الطارق يُريد تحطيمه، أسرعتُ لأفتح ودون مقدمات صرخَ خالد:

- أين الطفل؟! أين مُحمد؟

حاول التهجم والدخول لكني أمسكتهُ بِقوة من عُنقه ورميتهُ للخارج، وتقدمت نحوه وعيناي تقدحان شررًا:

- ماذا تظنُّ نفسك فاعلًا، بيت مَن تدخل بهذه الطريقة!؟ وأخذ مَن تريد مِني؟!

حين كان يُشتت نظراته بارتباك تلعثم قائلًا:

- أُرسلت من زعماء القرية، عليَّ أخذ محمد إلى عبد الرحمن.

- إن كُنتُ سأعطيهم مُحمدًا فسأسلّمه بنفسي.

رفعت صوتي صارخًا:

- اغرب الآن عن وجهي.

***

عِند التلة المُقابلة للمقبرة جلسنا أنا وكوثر ذات نهارٍ وموج الحُزن يغمرنا، قالت:

- كم يُمكن للإنسان أن يعيش بعد والديه؟؟ أيَكون تِلك الفترة بِمثابة حياةٍ كبيرة؟! أيُمكِنُ ذلك؟! ماذا وإن آلمته الأيام وفعلت به الأفاعيل التي لن يستطيع والديه تحملها فيه! أيتألمون ويخافون معه مما قد

يأتي؟ أيعلمون أن ذاك الطفل الصغير الذي خافا عليه من أصغر الأشياء يواجهُ الآن حياةً بِرُمّتها! أيُمكن لوالدي أن يعلم أن الدُّنيا وقريته والناس الذين غطاهم إحسانه يشكلون الآن جيوشًا لمواجهة فتاته الضعيفة اليتيمة الحزينة؟! لماذا؟؟ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسان؟! أوليس المرء يُحفظ في وِلده؟! لِماذا هذا إذًا؟!

- قُلتُ مُتنهدًا بِحرقة:

- لا أملِك جوابًا أقولهُ لكِ يا حبيبة قلبي، إنهم لِئام!

- ماذا قررت أن تفعل؟!

- كما أخبرتكِ، سأُكمل كل شيء على النحو الذي تركهُ أخي، غدًا تنتهي المُهلة، أخبرتُ الجميع أنني سأُعود غدًا لاستكمال محاضراتي الدِراسية، وكلٌّ سيعود لمكانه مَن كان معلمًا ومَن كان تلميذًا.

......

بدأ الضياءُ يمحو ما تبقى من ظُلمة الليل، وصَبغ اللون الأرجواني أطراف السماء، وقفت في الصف بانتظار تلاميذي وبانتظار ضجيج الحياة المدرسية لكن السكون المطبق أطال مكوثه، فانتابني الاستغراب، فحتى الذين كانوا سيستمرون رغم كل الظروف وفي كل الأحوال ولم يعنِهم من الأمر شيئًا لم يأتوا!!

وفي اللحظة ذاتها تهيأتُ أن الجو مُغبرّ استغرَق الأمر ثوان حتى فهمت أن الدُّخان يملأ الفضاء ووصلت لأنفي رائِحةُ حريق، فتحتُ

الباب فرأيتُ أن النيران المُندلعة تلتهمُ كل شيء اعترتني صدمةٌ أليمة وارتعد قلبي خوفًا.

ركضتُ إلى البيت؛ لأتفقد كوثر والأولاد، كانت النيران قد سبقتني إليه حملتُ مُحمدًا فيما أحطتُ بِذراعي كوثر التي تحمل نورًا في حضنها وأسرعتُ بِهم؛ قاصدًا الخروج من هذا الجحيم، كانت الحرارةُ تلسعُنا وقطع الأخشاب تنهار من فوقنا، وحين وصلنا عِند الباب وفتحتهُ أدهشني منظر الناس الواقفين بِصمتٍ؛ ليشهدوا انهيار العالم فوق رؤوسِنا فرغم كل ما حدث إلا أنني ظننت أن الجميع سيهب لِنجدتنا إن علموا بأن النار تلتهِمُنا، أدركتُ بتوجع حين رأيتُ أقباس النيران في أيديهم إنهم مَن أحرقونا!!! همهمتُ:

- تبًا لكم أيتهُا الجماعةُ وترحًا.

انهارت خشبةٌ مُلتهبة فوق وحيدتي كوثر أسقطَتْها على ذِراعي أمام الجميع، أتى أحد لم أستطع رؤيتهُ وسط ذهولي وانتشل مِني مُحمدًا، التقطتُ كوثر التي خرت بين يدي وأنا أنظر لعينيها المغمضتين ودموعي تجري ونور يناديها ويبكي، كُل ما تعرضتُ له من انكسارات لم يكن يعادل في عذابه لحظة عجزي وحيرتي الآن وأمانةُ أخي على ذِراعي وبيتي يحترق والناس أَصَبّت على عداوتي وأكبّت على منابذتي، رفعتُ بصري نحو السماء وأنا ألتجئ إلى ناصري ومُعيني الوحيد، فرأيتها كثيفةً بالسُحب وفي لحظاتٍ أمطرت بغزارة فأخمدت النيران لكنها لم توقظ كوثر، أخذتها إلى بيت الزبير مُرغمًا خجِلًا فقد بدا عليه الارتباك لمجيئنا:

- اعذرني يا زُبير، أنت تعلم بالذي حلَّ بِنا ولم يبقَ لي في هذه المدينة مَن أذهبُ إليه، أعدك أن نخرج في الغد، أمهلنا سواد هذه الليلة فقط!

دون أن ينظر في عيني:

- لا تقل مِثل هذا، أنا والبيت تحت أمرك.

قال هذا لكن عدم الارتياح كان باديًا عليه.

أوينا داخل بيت زُبير الصغير في غُرفةٍ واحدة وكُنت أهتم بكوثر وأمرِّضُها طوال الوقت، وكان نور يُطِل عليَّ بتفقد ويسأل في كل ثانية:

- ستُشفي أمي أليس كذلك يا عمي؟

- أجل يا عزيزي بإذن الله، لا تنسَ أن ترفع كفيك الصـغيرتين وتسأل الله شِفاءها.

- أنا أفعل ذلك في كل لحظة، حتى إن كفي لم تنزل أبدًا.

داعبتُ شعرهُ مُبتسمًا بألم:

- هذا جيِّد، ابقَ قريبًا مِن الله دومًا ولا تجعل هاتين الكفَّين تنزلان أبدًا، كُن في حالةِ استنفارٍ دائمة مِن أجل الدعاء حتى وإن طابت لك كل الأماني والحياة، فالدُعاء هو وسيلة اتصالك بالله.

حين غفت القرية خرجتُ إلى صحن الدار فوجدتُ زُبيرًا يجلس ضامًّا ركبتيه إلى صدره وقد أشعل قنديلًا؛ ليُضيء عتمة الليل الثقيلة، تقدمت نحوه، جلستُ صامتًا أُشارك كل شيءٍ في هذا الليل سكونه، حتى تساءل بحيرة:

- لماذا؟

التفتُّ إليه فوضَّح:

- لِماذا حلَّ بِكم كل هذا؟ ألم تكونوا سادةَ الجميع هُنا!!؟

أجبتُ وكانت غشاوةٌ من الأسى تُغطي ناظريّ:

- الشيطانُ بارعٌ في قلب موازين الحياة، وما الذي سيُجديه وقوف إنسانٍ واحد ضد عُصبة شياطين وحشود حمقى!

التفت إليَّ ببصره أطلق ضِحكة مُرهقة:

- وفي حين جهلِنا بالشياطين، أظنّني من الحمقى.

اكتفيتُ بتنهيدة عميقة وأنا أتذكر وجوه الذين كانوا يُحيطون ببيتي وفي يد كل منهم قبَس من نار، لم أُعلق، سألني بعدها باهتمام صديق حميم:

- بم تشعر؟

- بالغضب، بِاللوعة والضجيج والرغبة في الرحيل بعيدًا، لكنني لن أرتاح قبل أن أجد القاتل والمجرمين الذين أجّجوا الناس ضِدي، أما من أحرقوا بيتي فإن لهم مِني الويلات يا زُبير.

......

في تِلك الغرفة المعتمة الصغيرة في بيت زُبير احتضنتُ بكفي رأس نور وأوصيته:

- احرس أمك جيّدًا، وانتَبِهْ لها أيها البطل، أنا سأذهبُ لأُرتب لنا مكانًا ثم أعود.

- إلى أين سنذهب؟

- نُحن مجبرون على العودة لبيتنا.

قاطعني:

- لكنه احترق!

- لا بأس سأجعلهُ مُمكنًا للعيش، كُل ما علينا التفكير به الآن هو أمك وتأمين شِفائها في أقرب وقت.

* * *

كوثر

بِصعوبة بالغة استطعتُ النهوض ليوصلنا عمي ليث إلى بيتنا، خرجنا إلى الطريق الموحش في القرية الغادرة صباحًا حين وصلنا لبيتنا رأيتُه أشبهُ بالرماد..

العائلة الجميلة والوالدُ الحنون والبيت الكبير، كُل شيء رحل تاركًا سهمًا في قلبي، تذكرت ذلك المشهد المريع حين كانت النار تأكل كل ذكرياتي وكلَّ الكُتب التي سطَّرها والدي بحبٍّ لتنفع الناس، وبالأخص أهل قريته وجيرانه.

كُنتُ زهرةً في عمرٍ لم يتجاوز العشرين، لكنهم أشعلوا النار في الحديقة التي تحتويني، مررتُ على مكتبة الحائط التي كثيرًا ما جلس والدي ليقرأ قُربها، باتت مُتهالكةِ.

عِلمهُ الذي كان قد رتبهُ في هذه الصفوف احترق الآن، فتِلك القرية الظالمة لم تكن تُريدهُ بقدر ما أرادت التسلط والظلم...

لكنهُ باقٍ في قلب أخيه، باقٍ في قلب عمي كيف لهم أن يتخلصوا مِما كتب أبي بينما ليث موجودا!!

......

كُنت أتألمُ كثيرًا، ولا أستطيعُ النهوض، قال عمي إن كسورًا أصابت عِظامي، وإنَّ الأضرار التي لحِقتني متفاقمة، لم يكن يخرج من البيت إلا نادِرًا فقد كان يُعالجني ويهتمُ بي، ورغم إرهاقي إلا أنني كُنت أُحدِّثهُ دومًا، وأُسلي وحدته، وأسألهُ عن حاله وعما فعل مع أهل القرية وهو يرجع في كل يومٍ ليفضي إليَّ بما يختلج في صدره.

أما حبيبي نور فقد كان لا يُريد مُفارقتي للحظة، وصار يهتم بي كثيرًا على صِغَر سنه حتى إنه بدأ يقص عليَّ القصص والحكايات ليلًا.

* * *

ليث

لم أنسَ وجوه الذين كانوا يمسكون أقباس النيران أمام بيتي، أتذكر وجوههم واحدًا واحدًا والغضب يعترك في صدري، لكنني مُنشغل بِكوثر ومرضها لم أستطع فِعل شيء آخر أو حتى التفكير بشيء آخر.

في ليلةٍ حين عُدت للبيت افتقدتُ همهمات نور وكوثر الخافتة، حيث كان يقص القصص عليها في كل ليلة، دخلتُ غرفتها وأنا أناديها بِلطف:

- كوثر...

تفاجأتُ بسكونها الغريب فتجمدت مكاني بِخوفٍ، دارت حدقتايَ فقط حول كوثر، تُراقِبُ تمددها، هدوءها، انطفاءها، بلعتُ ريقي، بعينين مصدومتين تراجعتُ خطواتٍ بطيئة للخلف وكأنني أهرب من استيعاب ما يجري.

اصطدم ظهري بالحائط، ظلت عيناي ترمشان وتزاحمت الغُصص في حلقِي وخَرَّت دموعي معي عِندما خِرْتُ أرضًا..

فجأة فتحت كوثر عينيها المُتعبتين بصعوبة، هاجمتني الآمالُ فهرولت حبوًا نحوها دون شعور، رفعتُ رأسها وضعته في حجري، تأملتُ ملامحها المنطفِئة ودموعي كالنهر، كنت أُحاول مسحها بسرعة لأحظى بنظرةٍ رُبما تكون الأخيرة...!

حركت شفتيها المُبيضّتين من شدة المرض ولم تستطع أن تنطق، بينما خرج صوتٌ مبحوحٌ مِن جوفِي بعد آهةٍ مُحرقة وأنا أتحسَّر عليها قائلًا:

- كوثر!

أجهشتُ في بُكائي وأنا أحتضِنُ وجهها بين كفي فلم تعد لي حيلةٌ أُخرى، اجتذبتْ كوثر صوتها آنذاك بجهد وضعف لتقول:

- لقد اشتقت إلى أبي.

هززتُ رأسي بسرعة بينما أبكي وأُتمتمُ بمرارة:

- كلا، كلا أرجوكِ!

شهقت كوثر شهقتها الأخيرة، وكادت روحُي تزهق..:

- لا تذهبي يا عزيزة عمك، لا ترحلي يا وحيدتي.

بقيتُ أنتحِبُ بهدوء أليم، كان الجرح على الجراح والوجع يأتي على الأوجاع.

لقد أقعدتني كثرة أوجاعي، ولم أعد أُجيدُ سوى التهدُّم بصمت عميق لم يخترقه سوى صرختي التي أطلقتها عاليًا حين رفعت رأسي إلى السماء.

***

محمد

عصفت ريحٌ شديدة واصطفقَت النوافذ وخمدت النيران في المواقد، وكان كل مَن في المدينة قد سَمِع صرخة ليث تِلك الليلة، حتى أنها أصبحت من الأشياء التي لا يُمكن لأهل القرية نسيانُها.

شيعها وحيدًا ودفنها ليلًا، وكم كان يؤنب نفسُه بتوجع ومرارة: "صغيرةٌ وقد كانت في حِمايتي، لم أستطع أن أحميها ولا أن أُشفيها".

***

لحقِت كوثر بأبيها وصارت ترقد بِجانبه وأضحى العالمُ لِليث قاحلًا مجدبًا.

عِندما أرخى الليل ستره على تِلك البيوت وكان كُلٌّ قد آوى إلى بيته،

خرجَ ذلك الرجل الوحيد قاصدًا المقبرة..

توسط قبرين وجلس بينهما ضامًّا ركبتيه إلى صدره، أسدل جفنيه أخيرًا؛ ليسمح للدموع المُحرقة بالتسلُّل من بينهما، قال والعبرة تختنق في صدره بعدما أطلق آهة عميقة: "لم أعد أُطيق البقاء في هذه القرية يا أخي إنَّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني".

أدار طرفه إلى القبر الآخر وهو يُكمل حديثهُ مؤكدًا والجزع يكاد أن يغلبه لكنه ما زال صامدًا: "لا حاجة لي في البقاء يا كوثر".

بعد عودته لبيتهِ المُحترق والذي صار يُشبهُ الرماد في كل تفاصيله وذكرياته الجميلة، جلس عِند فراش ابن أخيه "نور".

مسح على رأسهِ بكفه الحانية التي طالما عشقت المسح على رؤوس الأيتام، كم يؤلمها الآن يُتمُ عزيزها، حبيبها، ورفيقها الصغير!

في مُناجاته الليلة كان يغرق بِدموعه وإذا بالكف الصغيرة تمتد لمسحها، لفّت ذِراعا نور عُنقَ عمِّه ليث وقال بهمس:

- ألن نرى أمي بعد الآن أبدًا يا عمِّ؟!

أجاب وهو يجذب شهيقًا عميقًا:

- سنراها، لكن لا أعلم متى يحِينُ أمر الله بِذلك.

ابتعد نور وصار يحدق في عيني عمه:

- قُلت إنها لحقت بِجدي وجدي مات!

أجلسهُ في حجره وأحنى رأسهُ إليه وقال بعطف:

- أجل، لكن الموت يا عزيزي ليس فِراقًا أبديًا وليس عدمًا محضًا، إنهما موجودان الآن في مكان ما، في نشأةٍ أُخرى.

- هما موجودان؟ أمي وجدي؟!

- أجل، إن وجودنا الآن ووجودهما كالليل والنهار، لا يجتمعان.

هز رأسه بِفطنة بعد أن فكر مليًا:

- فهِمتُ ما تعنيه، لقد سبقانا إلى قُرب الله ورسوله.

- شهق ليث بِخفه لمراتٍ مُتتالية علّه يُعيد الطمأنينة لصدره.

- ألست سعيدًا؟!

ابتسم في عينيه بألم:

- بلى يا صغيري، سعيدٌ بالطبع؛ لأنهما ينعمان الآن بجوارٍ مُقدَّس.

- لا تبكِ إذًا.

- لن أبكي.

......

لم ير أحد ليثًا ونورًا بعد، فقد استيقظ الجميع صبيحة يوم ما وإذا بالقرية تخلو من آل هادي جميعًا، وبقي بيتهم المحروق خاليًا مِنهم تصفّر فيه الريح.

* * *

ليث

كانت مُحاولةً عابثة مِن المطر في غسل عار المدينة حيث هطل بِغزارةٍ فظيعة في تِلك الليلة، كُنت في الإسطبل أُجهز الجواد وأُحمِّلهُ بالأمتعة وفي جُنحِ الليل خرجتُ بِرفقة ابن أخي وأنا أُمسِك بِزمام الجواد، كان الشارع مُقفرًا لا شيء سوى حبيبات المطر التي تتسابقُ لتقرع الأرض بِقوة وعينين تُراقِبني!

ثمّة شخصٌ ما، شخصتُ بصري تراءت لي من بعيد ومن بين المياه التي تغزو وجهي عاتكة وتلاقت عيني بعينيها اللتين طالما طاردتا أحلامي، تقف من عند باب دارها وتُراقب رحيلي بثبات، فقلت: "التزم يا قلبُ صدرك أو فاذهب كذي النون نهب الغمِّ غضبانا.. ".

احتدت نظراتي وأنا أُحيدها عنها وألِج في الطريق القابع في الظُلمات، وأنا أُفكِر فيما حل بي وقد بِتّ في دربي وحيدًا على عكس ما كان يجب، إنني أختنق بغصصي وعبراتي، وأكادُ أفقد صبري فأغرق، أدرت ناظري نحو نور الذي كذبت عليه حين أخبرته أني سعيد في حين أنني أكاد أقع وأموتُ الآنَ مِن قيحٍ ملأ قلبي وغيظٍ شحن صدري ووددتُ لو أننا لم نعد إلى هذه القرية الملعونة أبدًا.

تذكرتُ سيدي الذي طالما أحببته وأردتُ أن أُشبهه، حاولت كثيرًا، وبحثتُ عنهُ في حُبِّ الأيتام وفي حمل الخُبز ليلًا إلى الفُقراء.

أحببتُك يا سيدي، وها أنا أُشبِهكُ الآن بِهذا.

وإذ إن ما قاسيتَهُ كان أكبر بِكثيرٍ مما نتصور، وإذ إن أشد أنواع الظُلم قد أُلحِق بِكَ بينما كُنت عدلًا لِهذه الدُّنيا.

ما أبشع الظُلم يا سيدي! أنا أشعرُ الآن بكسركِ ذاكَ في قلبي وقلة حيلتي، ها أنا أُنحّى عن مكاني، ها أنا أُغصبُ حقي، فقط؛ لأنّهم لا يُريدونني، ها أنا أترك بيتي مُحترقًا وعائلتي قبورًا وأُغادرُ البلدة!

أتذكرك، وأعلم أنك أحببتني كما أحببتُك، وأشعر بِقربك الآن أكثر مِني، أنت حاضرٌ لم تتركني في شِدتي.

أصبحتُ مُعلِمًا يا مُعلِّمي، ولن أترك ما أوكلهُ الله لي كما لم تفعل أنت أبدًا...

انطلقتُ في مواجهة الرياح العاصفة وحين التفتُّ إلى الوراء رأيتُ تِلك البيوت تبتعد وتتلاشى إلى الأبد.

(7)

ماريا

كان محمد يقول في خِتام تِلك الحكاية أنهُ...

- ذات يومٍ وبعد سـنتين أتانا خبرُ مقتل ليث فأُعلِنت الاحتفالات والأهازيجُ وصار عيدًا في القرية.

- لِماذا؟

- عاش الجميع في حالة ترقب وخوف وتتبع لِخطوات ليث مِنذ خروجه، كانـوا يرتعبـون مِن نظراته وصرختـه تِلك التي طاردت كوابيسهم، وحين قُتل ظنوا أنهم تحرروا من قبضته التي كانوا يخشونها ونسوا أن الله بنفسه يتولى أشد الانتقام لأوليائه الصالحين.

- هذا عن المجرمين، ماذا عن البقية؟؟

- لقد أقنعوا الجميع بأنهُ عدو مُرعِب؛ ولأنه يتهمهم بقتل عائلته فسيأتي في أي لحظةٍ للانتقام وجَعْلِ عالي هذه القرية سافِلها، يعني أنه ببساطة إذا أردت خلق أعداءٍ لأحدٍ، ما عليك سوى أن تجعل مِنهُ وحشًا أمام الخِراف الذين أردت خِداعهم!

***

ما زال ينتابني الشك،

وفي محاولةٍ أخرى مِن محمد لإقناعي بتصديقه وعدم إخبار أحد بما رأينه في ذلك القبو، وفي تخبط مِني لأجد الحقيقةَ واليقين بُحت بما يخالجني بعدما تنهدتُ:

- إنني لا أستوعب لماذا يُقتلُ رجلٌ محبوب إلى ذلك الحد لم يُقدّم للجميع سوى الخير والنفع؟! لماذا بعد وفاته تُحرقُ دارهُ بأهلها، والجميع شاهدٌ كما لو أنه لم يُحسن لأحدٍ منهم؟! قُلتَ لي إنه كان مريضًا، لا يوجدُ دليلٌ على أنهُ قُتِلَ أساسًا سِوى شَكّ أخيه.

- ليث طبيب، إنهُ مُتيقن وليس شاكًّا، لا تُكذّبيه أنتِ أيضًا كما فعل البقية، لا تكوني مثلهم.

بحَنق:

- قُلتُ لك لا تُكرر ذلك! لا أعلم، لا أعتقد أن أهل القرية قتلوا الشيخ هادي، رُبما يكون ليث قد قُتل فعلًا، لكن ما الذي يجعلك واثقًا من أن أهل القريةِ أيضًا قتلوه! فقد قُتِل بعدما غادرها بسنتين.

- لستُ واثقًا..

نظرت إليه باهتمام فأردف:

- لا أعلمُ حقًّا مَن الذي قتل ليث.

- وعلى ذلك يجب ألا تعلم أيضًا إن كان نور حيًّا أم لا.

وضع يده على قلبه:

- لو قُتِل لعرفتُ البتّة! أُقصي فقط، وسيعودُ يومًا، لا ريبَ في ذلك.

- تثقُ بقلبك إلى حدًّ كبير.

- أثق بالحب الذي في قلبي وليس بقلبي، فالقلبُ وِعاء لا يُميزه سوى ما بداخله.

بعد هُنيهَةٍ من الصمت قُلتُ في تأملٍ بعيد:

- عمومًا، يجب علينا معرفة ما جرى مع ليث بعد خروجه، لا حل آخر، يجب علينا التوصل لأحدٍ رآه بعد تِلك الليلة.

أمال رأسهُ ناحيتي حيث كُنا نجلس في صفٍ واحد، قال ليتأكد:

- وكأنكِ تعرضين التعاون؟!

رمقته شزرًا ونهضت، تقدمت خطوات إلى الأمام:

- ذلك لأتأكد أنا أيضًا.

التفتُّ إليه حينها ورمقتهُ بِنظرةٍ لطيفة وأكملت:

- ويطمئن لك قلبي.

***

لم أجد سبيلًا آخر سوى تعقب محمد مُجددًا، فلولاه لما عرفتُ ما يُخفيه في ذاك القبو وأظن أنني الآن قد أتمكن من معرفة الحقيقة ومعرفتهُ أكثر إن تعقبتُه.

وكما فِي كل ليلةٍ كُنتُ بعد نوم أبِي وأخِي أخرج لِملاحقته، ورغم إنِي كُنت أموت خوفًا مِن الخروج فِي ساعةٍ مُتأخرة كهذه إلا أنني أتشجعُ وأخرج وأنا أُتمتمُ بِبعض الآيات والأذكار؛ لتحفظني مِن شرور اللصوص والسكارى، كما أنني أُخبئُ تحت رِدائي سكينًا تحسُّبًا لأي طارئ.

وذات ليلةٍ تعقبتهُ حتى دخل المسجد، وأشعلَ قنديلًا خافتًا وجلس فِي المِحرابِ يُصلي ومن ثم أخذ يدعو ويُناجي بحُزنٍ وبُكاءٍ مرير،

وكان صوتهُ يأتيني ويقعُ مُباشرةً على قلبِي قبل مسامِعي:

- اللّهم أنتَ كاشِفُ الكرب والبلوى، وإليكَ أستعدي فعِندك العدوى، وأنتَ ربُّ الآخِرةِ والدُّنيا، فأغِث يا غياث المُستغيثِين عُبيدك المُبتلى، وأرِه صاحبه يا شديد القوى، وأزل عنه به الأسى والجوى، وبرّد غليلهُ يا من على العرشِ استوى!

بعد ذلك أسندتُ ظهري للحائطِ، وأنا أضع يدي على قلبِي وأرفع رأسي إلى السماء، لقد فهمت شيئًا عميقًا...

فِي السابق وبعد ما قصّ عليَّ ما جرى لم أكن أود التصديق؛ لأن وَقْعَ ذلك كان عليَّ ثقيلًا، أمّا الآن فإني أريد تصديق مُحمد بكل ذرَّةٍ فِي قلبِي، رغم أنِي آمل ألا تكون قد لقيت تِلك العائلة ما جرى فِعلًا إلا أنني وددتُ لو يبقى مُحمد كما تخيلتهُ، ووددتُ معرفتهُ أكثر؛ لأنه مُختلف عن الجميع مُختلف تمامًا.

مضت الأيام والليالي ولم يشغلني سِوى مُحمد وتِلك العائلة!

تِلك الحِكاية، ما زالت تتكرر على مسامعي كُلما وضعتُ رأسي لأنام، وكثرت زياراتي لبيتهم الخاوي وبدأ يُخيلُ إليّ أني أسمعُ أنّاتِ كوثر، حينها خشيتُ كثيرًا أن أغدو كمحمد إن حدثّتُ أحدًا بهذا! لكن أولئك الأشخاص الذين ابتلعهم الغياب لم يُفارِقوني.

في يومٍ قرعتُ باب هاجر مُجددًا وقبل أن تُغلقه في وجهي أمسكتهُ بكفي واستوقفتها قائلة:

- إنني أعلمُ كل شيء وأعرفُ الحِكاية.

وحينما بدت نظراتها غريبة قُلتُ:

- هادي وعائلتهُ، ليث وعاتكة...

أفسحت لي مجالًا للدخول وحين جلسنا وكانت مُطرقة بِحزن ونوعٍ من القلق، قلت:

- أخبرني مُحمد بِكل شيء، لكنني أُريد أن أسمع مِنكِ أيضًا..

بعد صمتٍ مُطبق قالت أخيرًا:

- ذلك البيت الذي يُسمونه أهل القريةِ بيتُ الأشباح، قد هجرهُ أهلهُ بعد أن لاقوا القتل والتشريد مِن الأيدي الآثمة.

شهقتُ بِخفوتٍ لِفقداني الأمل في كون ذلك كذبًا، أو مَحض وهم، وضعتُ يدي على حلقي وأنا أُغمِضُ عيني بألم، بلعتُ غصتي وهمهمتُ:

- إنَّ ذلك صحيحٌ، مَن هم؟؟ من الذي قتل وسرق وحرق، من دمر حياتهم وأقصاهم عن ديارهم؟؟ من هم الآثمون؟ قولي شيئًا تكلّمي.

- لا أحد يعرف. صدقيني.

تنهدت بقلة حيلة وعُدتُ أتذكر كل التفاصيل التي سردها عليَّ محمد... طيبةُ هادي ومحبتهُ لأهل بلدته، عِلمه وحِكمته وحبه الكبير لابنته، تِلك التي لا أعلم كيف استطاعتْ مُجابهة كل ذلك وحدها، ابتِسامةُ ليث وضِحكتهُ، بهجته وحُب طفولتِهِ، انكساره وفِراقه لكل شيء أحبه!

كُل تِلك المشاعر تغلغلت الآن في داخلي دُفعةً واحدة ولم أُفلح مهما حاولت في منع نفسي من البُكاء، شيءٌ واحد كان عالقًا في ذاكرتي وهو لحظة خروج ليث مكسورًا وحيدًا مِن القرية:

- لِماذا تخلّتْ عاتِكة عن حُبِّ ليث بهذه السهولة؟؟

عَلَتِ الدهشةُ ملامحَ هاجر لتُجيب بما لم يكن متوقعًا أبدًا:

- إن عاتكة لم تترك ليثًا لحظة واحدة، ولم تتخلَّ عن حُبه أبدًا، لقد خرجت هي أيضًا في الليلة التي خرج فيها ولم تعد إلى هُنا أبدًا...

مسحتُ دموعي وعادت ملامحي لتتخذ الجدية مرفأ:

- ماذا قُلتِ؟؟

- كانت أختي تعشقُ ليثًا بجنون، لم تذق طعم النوم في الليالي التي خاصمته فيها وكانت تود الاعتذار لكن المصائب والأحداث توالت

عليه ولم تترك لها مجالًا، وحينما ذهبت لتعزيته بأخيه لم ينظر حتى في وجهها، كانت تفِز من نومها أحيانًا خشيةَ أن يقتلوه، وكُنتُ أُحاول إقناعها في كل ليلة بالعدول عن الذهاب إليه، كانت تقتنع فقط بأن تخرج إلى الباب فتراقب بيته من بعيد وبالكاد تدخل حين ترى الهدوء في القرية مُستتِبًا، إلى أن أتت تلك الليلة الحالكة التي رأته يخرج فيها خائفًا مترقبًا برفقة ابن أخيه ورأت في عينيهِ تِلك النظرة، لم تحتمل فدخلت البيت مُسرعة ودون أن تعير أحدًا منا أي اهتمام راحت تجمع حاجياتها لحقت بها أمي إلى الدار وهي تقول:

- ماذا تفعلين؟

تُجيبها دون النظر في عينيها بينما هي مُنهمكة في التجهيز:

- إنني أرحل كما ترين.

بفزع تسألها أمي:

- إلى أين يا مجنونة؟؟ في هذا الليل.

استوت في وقوفها أمام أمي ونظرت في عينيها بعدما حملت حاجياتها على كتفها وقالت قبل أن تتوجه نحو الباب:

- إنني ألحقُ بليث، لن أخذله كما فعل الجميع.

صارت أمي تلحقها وهي تُحاول ثنيَها:

- عاتكة، كيف تتركيننا وتذهبين، أخواك صغيران، ماذا سأفعل معهما وحدي؟ وعِمران قد غادرنا ووعد بأنهُ سيأخذنا، إن أرسل إلينا أحدًا ولم يجدك ماذا سنقول؟ ماذا سيقول عنا أهل القرية؟

بنبرةٍ غاضبة:

- ليقل عنا الجميع ما يريد إنني لا أكترثُ لحديث الآثمين بعدما فعلوه يا أمي، لينظر كلٌ إلى نفسِه وجُرمه وليترك الخلق لِلخالق.

توقفت عِند الباب وانحنت تُقبل كف أمي وتحتضنها وهي تقول في عجل:

- أرجوكِ سامحيني، أُحِبكِ كثيرًا.

خرجت من البيت بينما ما زالت أمي تلحقها:

- إنَّ ليثًا ليس زوجًا لكِ ولا محرمًا، كيف تذهبين بِرفقته؟!

بعدها وقفت أمي مكانها بِقلةِ حيلة عرفتُ حينها أن أختي مضت في طريقها قُدمًا ولم تتوقف!

أمضت أمي تِلك الليلة خاوية، يداها المجعدتان ترتجفان وكانت تبكي بهدوء رغم حرقتها إلا أنها لم تشأ أن يسمعها أحد من الجيران فيأتي ويستطلعَ الأمر، ليلتها غفَت أمي من جلوس وهي مُسندةٌ رأسها إلى الحائط، ونمنا أنا وبدر عند رُكبتيها، كُنا جميعًا في ذاك الوضع مُنتظرين عل عاتكةَ تعود!

بعدما سكتت هاجر شعرت وكأني أفيق على العالم للتوِّ وضعت كفي على وجهي وأنا أضحك بِسعادة:

- آه، لا تعلمين كم أن ما قُلتِه شيئًا مُهمًا بالنسبة لي، كما أنني حقًا سعيدة لِأن وقعَ ذلك الألم صار أخف على قلب ليث بالتأكيد، لا شك أن شيئًا مِن انكساره جبرتهُ عاتكة إنني سعيدةٌ لشجاعتها ولأن حبها كان لهُ حقيقيًا.

دمعت عيناي بفرحة، أمسكتُ كفيها وأنا أُبالِغ في شكُرها مما أصابها بنوعٍ من التعجب!

خرجتُ مِن عِندها أركض لاهثة أبحثُ عن مُحمد.

***

محمد

لقد كُنتُ أشعر بِضعفٍ هذا اليوم لم أستطع حتى الخروج إلى القرية، فبقيتُ في البيت أقرأ سورة يوسف ولما وصلت للآية:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾. [يوسف:87].

توقفتُ لوهلةٍ وغُصتُ في عمق هذه الآية الكريمة وكأنما أقرؤها لأول مرة شعرتُ بأنها هاتفٌ موجَّه إليَّ...

بينما أنا كذلك التفتُّ بفزعٍ ناحية الباب فهو يُقرعُ بقوة دونما توقُّف...

تعجّبت أنهُ لم يكن أحدٌ ليقترب من باب بيتي فمن هو الآن الذي يقرعه بهذا الإصرار؟!

وفي طريقي للباب كُنت أحاول أن أتأكد ما إن كان صوتهُ حقيقيًّا أم لا، وباحتمال كبير أنني إن فتحته لن أجد أحدًا.

لكني تفاجأتُ بِتلك الفتاة اللاهِثة أمامي، تأملتُها،

ذات عينين حادتين لها أهدابٌ طويلة، وحاجبان ناعمان وأنفٌ مسلول وشفاهٌ ناعمة صغيرة، إنها ماريا!

- لقد طُفت القرية كُلها؛ بحثًا عنك ولم أجدك.

عقدتُ حاجبي وهمهمتُ:

- أنتِ هُنا حقًّا؟

عقدت حاجبيها:

- ماذا؟

لم تُعطني فرصة ودخلت إلى البيت وهي تقول:

- لقد عرفتُ شيئًا مُهمًّا، شيئًا قد يأخُذك إلى نور.

اتسعت حدقتاي:

- ما الذي تقولينه؟ أصحيح ما تقولين؟؟

التفتتْ إليَّ وعلى مُحياها ابتسامةٌ كبيرة، صارت تضم كفيها كمن أنجز بطولةً وهي تقول بسرعة:

- أجل، إنني آتيةٌ مِن عند هاجر لقد أخبرتني أشياء لم نكن نعرفها، فقد لحِقت عاتكة بليث وغادرت معه تِلك الليلة، إن توصلنا إليها فسنعرف بقية الحكاية!

سرحتُ بعيني أسترجعُ بعض المعلومات:

- لقد قالوا لنا إن عاتكة ذهبت لعمران آنذاك!

شعرتُ أن هذا هاتفٌ آخر قد أتاني فقررت الخروج والبحث عن نور والتحسس من أمره بنفسي، تجاوزتُ ماريا التي تقف أمامي وخرجت حافيًا حاسرًا بينما لحقت بي وعيناها مصدومتان:

- إلى أين تذهب؟؟ خُذ نعليك على الأقل.

لم أكن أسمعها، كُنت أركض مُتوجها نحو المدينة التي يسكنها عمران ومنظري ذاك لم يكن غريبًا على القرويِّين حيث إنهم يعرفونني مجنونًا، هذه المرة أجل، أنا أُقِرُّ وأعترف بجنوني كُنت أركض وقلبي يرفرف كالطير وحين وصلتُ مدينته كُنت أتلفتُ وأبحثُ عنه في كل الوجوه.

إنهُ أملٌ حقيقي هذه المرة، قد أكون وجدتك أخيــــرًا يا صــاحبي وانتهت كل ســنوات البعد والفراق، إنني أجري الآن إلى عَهدِنـــا، صداقتنا، طفولتنا، إنني أجري الآن إليك.

وبينما أنا في مواجهة الريح كانت تتخللُني ضحكاتٌ ودموع ومشاعرُ كثيرة...

توقفت عنِد بيته، حينها أقبلت ماريا التي كانت تلحقني وأعياها ذلك، حاولت التقاط أنفاسها:

- ما الذي جرى لك، لقد قطعنا مسافاتٍ طويلة ركضًا على أقدامِنا.

- إنني لا أملِكُ حصانًا، في كل الأحوال كُنتُ سأمشي.

- لكنني أملك وليتك قُلت ذلك.

قاطعها الولد الذي فتح باب الشيخ عمران ليخبرنا حين سألناهُ:

- إنه غير موجود.

- أين يمُكنني إيجاده؟!

- لقد سافر أبي بالأمس.

قالت ماريا حين أدركت حالي:

- اهدأ يا محمد، سيعود بالتأكيد.

خارت قواي فاستندتُ إلى الجِدار وجلستُ قليلًا فجثت ماريا قُربي بتوجس:

- أنتَ بِخير؟

هززتُ رأسي:

- كيف لي الصبر، إن قلبي لا يهدأ.

قالت في محاولة لإخراجي من جو التوتر والارتباك:

- لم تُخبرني حتى الآن بالذي جرى لك حين أخذوك من يد ليث يوم الحريق!

نظرتُ في عينيها بأسى:

- انتقلتُ للعيش في بيت الشيخ عبد الرحمن، زارني ليث واطمأن عليّ في تِلك الأثناء، تذكرني في وسط آلامه وهمومه، ودعني وأوصى بي عبد الرحمن خيرًا فطمأنه، لكنني تهتُ ولم أجد نفسي دون نور أرغمتُ نفسي على البقاء وبعد أحد عشر شهرًا خرجت؛ لأهيم على وجهي في ضباب القرية ولم أعد إليهم.

- من الواضح أنك لم تحظَ بينهم بما حظيت به في أسرة الشيخ هادي.

- لطالما شعرتُ بالانتماء إليهم ووددتُ لو أن ما حلّ بِهم حلّ بي، ووجدتُ أن مصابهم مصابي وثأرهم ثأري، وأنني أفتقد نورًا كثيرًا، ما أعرفه هو أنه سيعود وأن غيابه يُمزق فؤادي.

- ألا تعرف القاتل حقًّا؟؟

هززت رأسي نفيًا وأنا أُحدِّقُ في تعابيرها حيث قالت بانفعال:

- وما الذي تنتظره؟ لن يُمكنك التحرك يمينًا أو شمالًا ما لم تعرف أعداءك، أنت هائم على وجهك حقًّا.

- ما الذي تعنينه؟

- أقول إنه بدل انتظار نور لربما وجب عليك البحث عن أعدائه.

خفضت بصري وتمتمتُ:

- لا يُمكِنُني التفكير بشيء الآن سِوى نور، ولن أبرح هذا المكان قبل عودة الشيخ عمران والتحدث معه.

في هذه الأثناء تقدم رجل ناحيتنا وكان ينظر إلينا باستغراب، تجاهلنا وطرق باب الشيخ عمران ليفتح له ولده ويسلمه أمانة من أبيه ويطمئنه أنه وصل لوجهته هذا الصباح وقبل أن ينصرف استوقفته من مكاني وحين التفت وأومأ برأسه نهضت وتقدمت نحوه فيما لا يزال مستغربًا من هيئتي:

- السلام عليكم.

- وعليك السلام.

- إنني أبحث عن الشيخ عمران، أخبروني قبل قليل أنه في سفر، ألا تعرف متى يعود؟

- يحتاج أسبوعًا.

- هذا كثير.

- تبدو لي في حيرة يا أخي، هل أستطيعُ المساعدة؟

- لا أظن، أنا مِن قريته القديمة وجئت كي أسألهُ عن شخص غاب منذ عقود.

- أنت تعني قرية التلة؟ أنا درستُ هناك لفترة أيضًا.

تبادلنا أنا وماريا نظرات الدهشة، وقُلت وقد لعثمَتني السعادة:

- تتلمذتَ على يدي الشيخ هادي؟؟

- لا، بل كُنت أدرس علوم الطب لدى أخيه ليث.

- أنا أتيتُ لأسأل عنه أساسًا.

لم يخفَ علينا تغير وجه الرجل وذوبان ابتسامته في تعابير الارتباك، سألتُه:

- ما الذي يُمكنك إخبارنا بِه بخصوص تِلك الفترة في القرية؟

عقد حاجبيه:

- ولماذا عساي أفعل شيئًا كهذا؟

قال محمد:

- ألم تقل إنه يُمكنك المُساعدة أم أنك غيرت رأيك؟

- مَن أنتما؟؟

* * *

ماريا

كان بودي أن أُجيبه بأن محمدًا هو نور حفيدهم لكن هيئته لن تجعل كذبة كهذه معقولة وبينما كُنت أفكر كان محمدا قد أجاب أساسًا:

- إننا أصدقاؤهم وقد تربيت في بيتهم.

قال الرجل بعدما ثبت عينيه فينا لدقائق:

- لديَّ محل عطارة في السوق اتبعاني سأحدثكما هناك.

تبعناهُ بِحذر حتى وصلنا السوق فصرنا وسط ضجيج الباعة وهمساتُ الزبائن، وفيما كُنا نمشي صوب محل الرجل كُنت أُدير ناظري في المحلات، توقفتُ قليلًا في محلٍ مُجاور فيما سبقني محمد ليجلس ويبتدئ الرجل الحديث قائلًا:

- اسمي أُسامة وتعرفتُ إلى الشيخ عمران مِن هُناك حين كان يَتَلمَذ على يدي الشيخ هادي.

تقدمت نحو محمد الجالس على الكُرسي بِثقة وفي يدي نعلان وضعتهما عِند قدميه رفع بصره إليَّ بينما أُشيحُ بوجهي وأهمسُ له:

- ارتدِ هذا على الأقل فالجميع كان ينظر إلينا.

ارتداهُ بِصمت فيما جلستُ في الجهةِ المُقابلة له، قال مُحمد:

- مَن قتل الشيخ هادي؟

- ما أعرفه أنهُ كان مريضًا، وعِندما مات قال أخوه: "إنه مسموم". لم يحرك كلامه ساكنًا لدى أحد فلم يكن الجميع يتعامل معه على النحو الذي كانوا يُعاملونه عليه في حياة أخيه. كُنا نعرف أن المدرسة للشيخ هادي وليث، وأنهما يدفعان كل التزاماتها ويهتمان بكل شؤونها، وكان الشيخ هادي يطلب المساعدة فقط وفقط من ليث في كل شيء ولا يقوم بأي خطوة مهمة دون انتظاره لكن فجأة، وبعدما توفي...

قُلتُ بقلة صبر:

- أكمل لماذا توقفت؟!

تجمعت الدموع في عينيه وأدركتُ أنه كان يبتلعُ غُصصه إلى أن قال:

- لقد أخذوا كل شيء من يديه، منعوه حتى من التعليم وسرَّحونا، قالوا إن المدرسة ستقتصر على العلوم الدينية فقط، لكنه تحدّاهم على ما يبدو وأخبرنا جميعًا أنهُ بانتظارنا في المدرسة بعد ثلاثة أيام، وحين ذهبنا كان يقف رجل أصهَب على الطريق ويمنعنا لكنه كان يمنع الجميع من الاقتراب ناحية المدرسة وليس تلاميذ أُستاذي ليث فقط، انصرف الجميع لكنني عُدت بعد ساعات؛ لأستطلع الأمر؛ لأن شكًّا ساورَني، وحين عُدت رأيت النيران قد أُضرِمت في المدرسة بكامل فصولها وفي البيت أيضًا كان يقف مُحتارًا بأطفاله وأخته أم لا أدري من تكون؟

بينما كان محمد مُطرقا يغشاهُ الحُزن قُلت بأسى:

- كوثر ابنةُ أخيه.

سأل مُحمد دون أن يرفع رأسه:

-مَن كانوا؟!

-الذين أحرقوا البيت؟؟

-أجل.

-أنا كُنت فقط أعرف مَن معي، أما الذين أضرَموا النيران فلم يكونوا من رواد المدرسة، لكن...!

قُلت بانفعال:

- لكن ماذا؟ تكلم، قُل كل شيء تعرفه.

أكّد محمد:

- الأمرُ مُهِمٌّ بالنسبة إلينا.

- لا أدري إن كان هذا سينفعكم أم لا، لكنني وفي إحدى المرات التي أتيتُ فيها للاطمئنان على أُستاذي بعد الحريق رأيتهُ يخرج من بيته بوجهٍ مزقتهُ الفجيعة ويزأرُ كالليث الغاضب مُناديًا: "مروان!". تقدم ناحية مروان هذا وانقضّ على عُنقه ثم لكمة حتى أدمى وجهه، كان مروان يرتعد كسعف النخيل ويُحاول تخليص نفسه دون جدوى فأُستاذي كان بطلًا قويًا لا يجرؤ أحد على مُبارزته ولا يستطيع من وقع بين يديه الإفلات أبدًا، كُنتُ قد فهِمت من صوته المجروح حين صرخ باسم مروان أنه ينوي قتله وفعلًا حين أرداه أرضًا وهو يخنقه قال والحسرةُ الدامية تعوم على نبرة صوته الأجش: "قتلتَ كوثر أيها اللعين سأقتُلك". ركض في هذه الأثناء عبد الرحمن وصبيٌّ دون العشرين وانتشلا ليثًا من فوق مروان وأنقذاه.

قال مُحمد مُعلِّقًا:

- أبوه وأخوه.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- أجل كُنت قد شعرت بهذا؛ لأن نظرة ليث حين رآهما يخلصانه منه ويوجهان له الشتائم والتُّهم كانت كنظرةِ يتيم كسيرة، لا بد أنه تذكر أخاه الذي فقده وصار بعده وحيدًا.

تدخلتُ والدهشةُ تدور على وجهي:

- هذا يعني أن مروان هو من أحرق الدار!!!

......

- اللعنةُ عليه سوف يكون أول من أحطم رأسه.

قال ذلك محمد وهو يحثُّ الخطى غضبًا في طريق عودتنا بينما نظرتُ إليه وعُدت أنظر أمامي بصمت...

همهمت:

- نحنُ نستحِقُّ ذلك.

نظر إليَّ محمد فوضَّحتُ:

- أعني اللعنةَ والعذاب. صحيح أنتَ لم تخبرني متى بدأ ذلك؟!

- المطر الذي هطل ليلة خروج ليث كان المطر الأخير وعِندما استولوا غصبًا على البساتين والمروج العائدة للشيخ هادي وليث عابَت وذبلت ولم تعد تؤتي أكلها، ومهما حاولوا لم تنبت أبدًا حتى صارت صلدةً قاحلة وامتد ذلك بعدها إلى جميع أراضي القرية وهكذا، إلى يومنا هذا. نور هو الخلاص الوحيد لهذه القرية.

- أنا لم أفهم هذا حتى الآن، كيف يكون خلاص القرية بانتقامه؟

- في مكان ما من هذه الأرض يتدفق دم ليث دونما انقطاع وفي هذه البلدة تحوم روح الشيخ هادي وفي ذلك البيت تصدحُ أنات كوثر، القِصاص أمرٌ إلهي لا حياةَ دونه لأي شيء.

***

قبل أسابيع، كان لدي فضولٌ فقط تجاه رجل يُعرف في القرية بمحمدٍ المجنون، لكني رأيتُ نفسي فجأة أقتحمُ حياة أشخاص غيّبتهمُ السنين وطعنتهم سيوف الغدر وأمشي بِجانبه وأبتلِعُ سِرَّهُ الذي قد يُغيِّب القرية بِرمتها وأنا لا أعلم إلى الآن من الجاني الذي سيستحقُّ العذاب المرير الذي يتوعد بإنزاله هو مع صديقه، إنني حزينةٌ جِدًّا لأجل ما حلَّ بأولئك الأشخاص لكنني مُجبرة على تتبُّع الحقيقة ومعرفة القاتل المتوعَّد قبل أن يعثر محمد على نور هذا.

في كل يوم كُنت أسأل نفسي عن موضِعِ أبي في هذه الحِكاية وكُنت أقف أمامه لأسأله لكن الكلمات كانت تموت على شفتي.

(8)

عاتكة

عِندما وقفتُ أمامه تحت المطر ونظر إليَّ ارتعد جسدي فإن له نظرة ثاقبة تخترق صدري وتُذيبُ بِداخلي كُل الحُجب وتجعله يستقر وحده لا أحد آخر سِواه. قال بنبرةٍ غليظة فقدت حسّها الفكاهي المألوف:

– ما الذي تُريدينه؟

– سأُرافِقك الطريق ولن أتنازل للخيبات عن قلبك.

كان الألم يتسربُ مِن ضحكته الساخرة بينما كان يُكمل الطريق دون النظر إليَّ وقال ولا يبدو أنه حملني على محمل الجد:

– عودي أدراجكِ فإن لكِ أُمًا سيؤلمها غيابك.

– لكن غيابكَ يقتلني.

قال وهو يكتم غيظه:

– إلى أين تُريدين الذهاب معي، إنني وحيدٌ مطرود مُهدد بالقتل هائم على وجهي، لا أعلم لي وجهةً أقصدها غير الابتعاد من هنا والنجاة بالطفل الصغير الذي في حِمايتي.

– أنت قُلتها، أريدُ الذهاب معك، معك فقط ولا يُهم أي شيء حتى لو كان الموت وِجهتنا.

ترجَّل من على ظهر جواده وتقدَّم نحوي:

- أنتِ جادة فيما تقولين! ألم تأتِ لتودعيني فقط؟

- بل أتيتُك وودّعتُ الجميع.

اكتفى بتوزيع نظراتهِ التائهة في تقاسيم وجهي، تقدمتُ نحو الفرس ثم وقفتُ حائرة والتفتُّ إليه:

-قُلتَ إنك ستُعلِّمُني ركوب الخيل!

تقدم ليركب مُتجاهلًا كل ما قُلته. قال بجفاء:

- عودي أدراجَكِ، ما تفعلينهُ خطأ فادح.

خاطبه نور قائلًا:

- لماذا لا تريدها أن تأتي يا عمي أنتَ قلت إنك تريدُ الزواج بها.

أخفض ليث أنظارهُ فعاد نور يُكمل افتضاح عمه:

- وقالت أمي لِجدي إنك تهيمُ بِعاتكة عشقًا.

شعرتُ بِصعقةٍ تسري في قلبي وتوهجت وجنتاي فيما اتسعت حدقتا ليث دهشة ثم غارت عيناهُ وتقلّصتا حُزنًا أطبقها ليسد سيل الدموع ووارى وجهه تمامًا، وقفتُ أمامهُ:

- أصحيحٌ هذا؟ هل ما قاله صحيح؟

زمجر:

- غير صحيح، تنحّي الآن.

- أنحن مُتخاصِمان! أما زِلت مكسورًا مني؟!

- أحقًا تظنين أنه ما زال يُمكنني الشعور!!!

كانت عيناه تحكي أن ما حلَّ به أمات مشاعرهُ، وأن عُمق جِراحه أسكن ما دونها من آلام.

انطلق بصمت، وصِرتُ أتبعه، ورغم رفضه كان يتباطأ مِن أجلي، بعد ساعة تقريبًا ترجَّل ووقف قُبالتي ونظر في عيني بِصمتٍ أيضًا لكنه سرعان ما قطع صمته قائلًا:

- اركبي.

ابتسمتُ وأنا أنظر له بعينين غير مصدقتين، ركبت وأمسكتُ بِنور بينما صار ليث يقود الفرس واجتزنا الوديان والجداول والنسيم البارد يهب على وجوهنا وكان يلوذ بالصمت أغلب الوقت ويتجنب النظر إليَّ.

توقفنا في صبيحة اليوم التالي في استراحة للقوافل واشترى هُناك ليث عربة وطعامًا، أكلنا سويًا ثم توضأ وراقبتُ قطرات الماء على وجهه، صلى وراقبتُ العِشق الإلهي في ركوعهِ وسجوده، سبَّح وراقبتُ حركات أنامله، تمتم بأذكاره وراقبت شفتيه.

......

جميع المسافرين كانوا يحطون برِحالهم هُنا ويستأجرون غرفًا للنوم، كانت أصوات الناس تعوم في الساحة مختلطة بصوت أجراس النِّياق المُرتاحة أرضًا، أخذ ليث لنا غرفة واحدة وحين جنّ الليل وحان وقت

الراحة جعلني أستقر فيها أنا ونور وخرج يجلس على أعتابها حتى غلبه النوم وأسند رأسهُ لبابها كان يبدو عليه التعب والإرهاق الشديد في نومته، بعد دقائق أتى ناحيته رجل كان يتجول لكنس الأرجاء وأيقظه قائلًا:

- يا هذا!

لم يسمعه ليث لكثرة تعبه واستغراقه في النوم، فوَكزَه الرجل بعصاه ففزع من نومه يتلفت حوله وحين أدرك المكان وعاودت له ذاكرته الأحداث هدأ ونظر إلى الرجل:

- ماذا أردت؟!

- لماذا تغفو هُنا؟! ادخل للدار فإن رأوك غافٍ خارجها سيطمعون بها.

نظر إليه فاغرًا فاه وعاقدًا حاجبيه حيث إنَّه لم يفهم شيئًا فوضَّح الرجل:

- قد يهجم اللصوص ويسرقونها أو يؤذون مَن فيها.

أغمض ليث عينيه وجذب نفسًا عميقًا لصدره وقد بدا مُحتارًا قليلًا وهو يمرِّن رقبته وكتفيه ثم يقول:

- آه، حسنًا اذهب أنت الآن وسأدخل.

بعدما انصرف الرجل نهض ليث وتأكد من أن أحدًا لا يراه أو يسمعه وطرق الباب بخفَّة وهمس بخفوت:

- عاتكة! ضعي خِمارك سأدخل.

لم أكن نائمة أسرعت بفتح الباب وأنا بكامل حِشمتي قال: "يا الله".
ثم دخل خجلًا محتارًا ينظر للجانب الآخر متجنبًا النظر إليَّ، تتبعثر الكلمات على شفتيه ولا يجد للشرح وسيلة! قال:

- أنا، سأكون في هذه الزاوية، لا يجب أن أترككما وحدكما وأغفو بالخارج، هكذا قال الـ لا أعرف مَن يكون لكنه يكنس المكان هُنا باستمرار، أ.. إذا لم يكن ذلك مناسبا سأخ.، وسؤالي سؤال! طبعًا غير مناسب، أنا سأخرج أُحْكِمي قفل الباب جيدًا.

أدار ظهره ليخرج فعلًا لكنني تداركته:

- ابقَ هُنا...!

توقف فبررتُ:

- لم تبقَ سوى ساعات قليلة على الصباح يجب أن ترتاح؛ لمواصلة السفر.

لم يُجبني وتقدم ناحية نور، مسح على رأسه وغطاه جيدًا حيث إنه ينام بعمق، أخذ له زاوية وتمدد فيها وجعل وجهه مقابل الحائط وأعطانا ظهره، تمددت أنا في الزاوية الأُخرى، أما نور فكان في المنتصف، يفصل بين كل منا ذراع واحد تقريبًا، قُلتُ:

- تُصبح على خير.

أجابني بثقل بعدما تنهد:

- تُصبحين على خير.

......

دقيقة، دقيقتان، ثلاث، خمس، عشر، نصف ساعة، ساعة، لم أستطع النوم بقيت أتقلب، أما ليث فلم يتحرك أبدًا بقيَ يُقابل الحائط بوجهه وبسبب جموده على هذا الوضع فهِمت أنه لم يستطع النوم أيضًا، إنها الليلة الأولى التي نبقى فيها معًا، ويتوجب علينا أن ننام تحت سقف واحد!

لا يُمكنني تجاهل وجوده؛ لقد كان هو الخوفُ والأمان، القلق والاطمئنان، التعب والراحة!

لا أعلم كم من الوقتِ مضى ولا أعلم إن كُنتُ قد غفوت أم لا، لكنني حين خرجت من الغرفة صباحًا كان ليث يرتب الأمتعة ويجهز العربة لمواصلة السفر، التفت إليَّ وكانت عيناهُ محمرّتين مما أكد لي أنه لم ينل القسط الكافي من النوم والراحة، كان نور يلعب حوله ويطارد القطط الموجودة هنا، تقدمت نحو ليث وقفت أمام وجهه وكلما أشاح وصدَّ عني لَقِيتهُ بوجهي:

- إلى متى ستبقى على هذه الحال؟ ألن تتكلم معي؟!

تنهد ونظر إليَّ أخيرًا وقال:

- بم تُريدينني أن أتكلم؟!

- إلى أين نحن ذاهبون مثلًا؟!

- إلى عِمران.

- ماذا؟! ما الذي تقوله؟؟ لماذا أخذتني ما دُمت ستُعيدني؟

- أنا لم آخُذكِ، أنتِ أتيتِ!

انخفضت أكتافي وقبلها انخفض قلبي وغار داخل أضلعي قُلت بِحزن:

- ليث! ألم تعد تُريدني؟! أحقًا ما قاله نور لم يكن صحيحًا؟! لا تُحِبُني؟!

ذهب ليُنادي نور وهو يُجيب بغير اكتراث:

- اركبي، العربة جاهزة، نور! هيًا بُنيَّ تعال إلى هُنا، ما الذي تفعله!؟

ذهب ناحيته وانحني يُداعب القطة التي يهتم بها نور وهو يبتسم تلك الابتسامة المكسورة التي يريد بها جبر نور فقط! فابتسامته المُبهجة تِلك أظنها غابت مع عائلته.

ينظر في عيني نور بلطف كان ملؤه الكون ويقول بحنان:

- أتود إطعامها؟! ها!

يُجيب نور بحماسة وبهجة:

- أجل، أجل.

بينما أنا أقف مكاني قرب العربة على وضعي ذاته الذي كُنت أحدثه عليه قبل قليل لم أتحرك رُبما من ثقل ما وقع على كاهلي، تقدم ليث نحو العربة وأخرج خُبزًا من الكيس الجلدي المعلق وذهب ليطعم القطة مع نور دون أن يراني!

أطرقتُ برأسي وركبت العربة بصمت وحزنٍ مهول!

بعد دقائق ليست بالقصيرة وبينما كُنت سارحة رأيت يدين تحملان خُبزًا ساخنًا وإناء فيه حليب تمتد من خلف العربة، قال بصوته الرجولي:

- لم تأكلي شيئًا.

التفتُّ إليه، ابتسمتُ بهدوء، وأخذت ما بيده:

- ماذا عنكما؟

قال وهو يقفز فوق الحصان:

- أكلنا وشبعنا الحمد لله.

قفز نور إلى العربة فالتفتُّ أُداعب شعره وأبتسم له:

- ماذا فعلتما؟

- أطعمنا القطط وودعناها ثم اشترينا خُبزًا ساخنًا.

- وهل شرِبتَ الحليب؟

- أجل.

أخفضت صوتي وهمستُ وأنا أشير بعيني إلى ليث وأسأل نور:

- وماذا عن عمك؟!

هزَّ رأسه وأجاب بصوت منخفض كمستوى همسي:

- لم يتناول أي شيء.

عقدتُ حاجبي ثم نظرتُ للطعام الذي في يدي ونظرت إليه، ثم وقبل أن ينطلق تركت الطعام على العربة ونزلتُ منها وهرولتُ بعيدًا، بعيدًا جِدًّا، التفت ليث ينظر للوراء مستغربًا سأل نور وهو ينظر له من وراء كتفه:

- إلى أين تذهب هذه؟!

رفع نور كتفيه كناية عن "لا أدري".

في مكان هادئ وعلى صخرة كبيرة جلستُ أبكي، كان قد أتى من خلفي، تقدم نحوي مُستغربًا، انحنى ينظر لوجهي باستغراب:

- ما بكِ؟! لماذا تبكين؟

قُلتُ وأنا أشهق في بكائي:

- خذني إلى عِمران بسرعة.

- عجبًا! ماذا حدث؟ كان الأمر لا يُعجبكِ قبل قليل.

- إنني عالةٌ عليك، لا أُريد التسبّب لك بالشقاء والعناء.

- لستِ عالةً عليّ!

- أنتَ لم تأكل شيئًا، وآثرتني على نفسك.

قال بدهشةٍ وعلى شفتيه ابتسامة كما لو أنه يستخفّ الأمر:

- أنتِ تبكين من أجل هذا؟!

- إنك بالكاد تستطيع إمضاء هذا السفر! لقد أخذوا منك كل شيء وخرجت في تلك الليلة لتنجو بنفسك وبنور فقط على عجالة، لا أحتمل رؤيتك تتعب وتجوع وتنام في العراء.

- حسنًا هذا يكفي امسحي دموعك هيًا وتناولي طعامك قبل الانطلاق.

التفتُّ يمينًا وإذا بالعربة هُنا، ونور يلوح لي منها ويدعوني للركوب، التفتُّ لليث وقلت:

- لا آكل إلا عِندما تأكل أنت.

عند العربة أخذتُ الخبز وقسمتُها وأعطيتُه نصفها.

***

وبعد مسيرةٍ طويلة وفي إحدى الليالي المُظلمة والطُرقات الوعرة قرر ليث التوقف وترجل يتبعه نور وبدأ يأخذ بعض الأمتعة لنُخيم حتى طلوع النهار، ترجلتُ بينما كان ليث مشغولًا وما إن تقدمتُ حتى تعثرتُ بالصخور ووقعت مِن جرفٍ طويل، صِحت مستغيثةً فأدركني مسرعًا وجلس عِندي مذعورًا:

- ما الذي حدث...؟ كيف وقعتِ هكذا؟

قُلت وأنا أتأوَّه بتوجع:

- لا أدري، لم أنتبه للصخور عند قدمي.

كانَ يتفحصني باهتمام ويسأل:

- أأنتِ بخير؟

قُلتُ وأنا أقاوم دموعي:

- قدمي!

أحنى رأسهُ ينظر إليها فتغيرت ملامحه ثم رفع رأسه ينظر إليَّ ويقول بتوجع:

- إنهُ جُرحٌ عميق وينزف بغزارة!

- يؤلمني كثيرًا.

- أُسمِّي باسم الله عليكِ يا عزيزتي، لا تخافي ولا تقلقي.

تقدم إليَّ وأخذني بين ذراعيه وحملني! نظر في عيني وقال:

- ستكونين بخير.

وكِدتُ أموت بيَن يديه من فرطِ حُبي والهيام، صدقًا نسيت جُرحي وتوجُّعي كما نسي نفسه وبدا عليه الآن كُل ما خبّأه، حنينهُ وشوقهُ وحُبه واهتمامه خوفه وذعره عليّ، لم أتمالك نفسي وأنا أرى كل ذلك يشتعل في عينيه سألتهُ:

- أتُحِبُّني يا ليث؟

قال وهو ينشغل بي وبحالي وبالصعود بي:

- طبعًا أُحِبُّك!

وهُنا توقف كل شيء! توقف قلبي وتوقف ليث حين انتبه على حاله وكشف مكيدتي وظلَّ ينظر إليَّ، أعلمُ أنه لم يكن ينوي البوح بها أبدًا وربما كان يُحرّم ذلك أيضًا!!

لكنني أخذته على حين غرة وسرقتُها من بين شفتيه أخيرًا وبحجم فرحتي وددتُ البكاء.

قاطعنا صوت نور من الأعلى حيث ينظر ويسأل بخوف:

- ما بها عاتكة يا عمي؟!

- جرحتُ ساقها لا تستطيع المشي، تنحَّ جانبًا كيلا تقع أنتَ أيضًا.

......

أجلسني وأعد لي متكئًا حانيًا دافئًا ككل شيء يأتي منه!

في صقيع هذه المدينة الباردة التي توقفنا فيها أشعل ليث النار فيما جمعهُ من حطبٍ وبدأ يُطبّبني، صبّ الماء يُنظف جرحي وضغط عليه ووضع التُراب ليوقف النزيف ثم جلس وبحوزته بعض الأدوات مددت عُنقي وسألته بقلق:

- ماذا ستفعل؟

نظر إليَّ بجدية:

- سأُخيطه.

سحبت ساقي كرد فعل طبيعي وأنا أوشك على البكاء وأقول:

- كلا أرجوك.

قال بلهجةٍ جادة:

- تعقّلي يا عاتكة! إن بقي الجرح مفتوحًا فسيتلوّث ويتفاقم ومع الأيام قد تفقدين قدمك بالكامل، تحلي بالصبر أرجوكِ.

مد لي قطعة قماش وقال:

- وضعي هذا بين أسنانكِ.

وكان نور بيننا يوزع نظراته بين عمه وبيني، وضعت الخرقة بين أسناني لكنها لم تجدِ نفعًا، كُنت أتوجع وأبكي، وعِندما أحس نور بأن بكائي أربك عمه وقف أمامي محاولًا إنقاذ الموقف:

- لا تفكري بهذا الوجع الآن، انسيه قليلًا وتحدثي إليَّ، هيًّا حدثيني!

قُلت بأنفاسٍ مُتقطعة وتعب جليّ وأنا أُمسك بيد نور الصغيرة:

- حسنًا، سأحدثك عن قرية جميلة جِدًّا، كُنت فيها طفلةً صغيرةً ألاحق الفراشات وأرعى المواشي مع أبي وأركض وألعب معهم، كانت تلك القرية الصغيرة بالنسبة إليَّ كعالم كبير أُحِبُّه مليء بالمروج والأنهار كان أشبه بالجنان، والكل فيه يعرف الآخر كُلنا جيرانَ وأصدقاء وأَحِبة.

- يا الله، كم هذا جميل جِدًّا.

- كان هُناك فتى ذكيٌّ وشجاعٌ ألغى جمالُ حضورهِ كلَّ شيء!

تبسمت بوجع فيما كان العرق يتصبب من جبيني:

- كُنتُ أتعمدُ إزعاجه وإلهاءه، كُنتُ أُحِبهُ وأُريدُ أن يراني، أريد أن يرفع رأسه من فوق الكتب؛ ليراني!

مُذ عرفت نفسي وأنا أُحبه، أنا لا أعرف شيئًا آخر عني سِواه، غادر القرية مرةً وأخذ معه روحي وعِندما عاد تسببتُ له بجرح عميق بجهالتي، أنا أعتذر إليك يا ليث أعتذر إليك عن تِلك الكلمات التي أصابت قلبك.

- أكان ذلك الفتى عمي؟

هززتُ رأسي وأنا أبتسم رغم كل شيء، وكان ليث قد أنهى خياطة الجرح أخيرًا، وأسند ظهره للجانب الآخر من مُتكئي، صمت قليلًا وعلى ما يبدو لا زالت لحظة اعترافه تعشعش في ذاكرته، تنهد وقال في هدوء:

- لقد وجدتُ الناس يسرقون أموالًا وطعامًا وبيوتًا وحيوات، لم أرَ أبدًا من يسرق اعترافًا وتصريحًا، لم أرَ من يسرق لنفسِهِ شعورًا!

- كُنتَ تُحرِّمهُ عليّ!

- لأنه...! مُحَرّمٌ يا عاتكة.

***

تسلل ضوء الشمس صباحًا إلى الخيمة التي نصبها ليث ليلًا، فتحتُ عيني بإرهاقٍ نظرت جانبًا عن يمين رأسي، كان يوجد إناء به ماء وخرقة مُبللة!

في هذه الأثناء دخل نور واستبشر فور رؤيتي وصاح من عند باب الخيمة:

- عمي! لقد استيقظت!

سألتُ بوهن:

- لكن...! ما الأمر؟

- كُنتِ محمومة وفقدتِ الوعي، لقد سهر عمي طوال الليل من أجلك ولم يبرح المكان إلا قبل ساعة.

دخل ليث بينما كُنت أحاول النهوض! وفور ما وقعتْ عيني بعينيه شعرتُ بالإحراج الشديد واحمرتْ وجنتاي؛ فوضعي لم يكن لائقًا أمامه، سرعان ما أحس هو أيضًا بذلك وأدار وجهه وكلمني:

- أتشعرين بتحسن؟! كُنتِ متعبة جِدًّا وخفنا عليكِ.

- إنني بحالٍ أفضل.

مد يده إلى نور فيما لا يزال صادًّا بوجهه:

- هذا الدواء! اشربيه بنِيّة الشفاء والعافية.

خرج من الخيمة وأعطاني نور الدواء، وبقيت أفكر كيف قضى ليث ليلةَ البارحة؟! هل نام يا تُرى أم أنهُ لم ينل قسطًا من الراحةِ حتى الآن؟!

بدأت الغصص تتزاحم في حلقي حين أدركتُ كم سبَّب لحاقي به له المتاعب والشقاء.

وهربت دمعتان أسرعتُ بمسحهما من تحت أجفاني.

......

في الخارج كان ليث يقطع الأخشاب بالفأس بكل قوة ونشاط؛ كي يُشعل فيها النار ليلًا، وكان قد أعد مائدة للإفطار جلس عندها نور بانتظاري.

......

ليلًا وبعدما نام نور جلستُ بالقرب من النار، تقدم ناحيتي ليث وجلس بقربي ومد لي شيئًا:

- صنعتُ هذا المرهم لأجلكِ، هاتِ لأرى كيف أصبح الجرح.

مددت ساقي بحياء ورفعت طرف ثوبي، بدأ يُعاين جرحي ويضع المرهم بأنامله الحانية، وحين أطبقتُ بشدة على جفني، احتضنتني عيناه وواستني نظرتهُ كان ينظر وكأنهُ يأسف لما أشعر بهِ من ألم.

وأيقظني ذلك الحنين من غفوة وجعي وصِرتُ أُبادِلهُ نظراته وكِدتُ أخِرُّ وأذوب كما لو أن تلك النيران تلتهِمُني أنا!

لكن نيران الحنين التي كانت في عينيه ودفء أنفاسه الذي خالط أنفاسي كان أشد حرارة من تِلك النار المشتعلة كيف لا أذوب!

اقترب مِني أكثر وفي كل لحظةٍ يزدادُ نبضي ويحمر وجهي، تأمل عينيَّ من أقربِ نُقطةٍ مُمكنة ثم ظننتُ أنه أراد لَثمَ وَجنتي المُتوهجة، لكنهُ بعد ذلك همس ببَحّة وهو ينظر في عيني بِحيرة:

- كيفُ تجرأتُ بأخذكِ معي؟!

- أنتَ نادم؟

- أنا فقط لا أعلمُ كيف سيمضي سفري وأنتِ إلى جانبي دون زواج، لقد بِتُّ أضعف وأهزم ومعركتي طويلة والجيش الذي أُقاومهُ قوي...

تنهد وأغمض عينيه ثم ابتعد قليلًا واستطرد مُتنهدًا:

- إنني أُقاوِمُ حُبكِ الذي عاش في روحي منذ الطفولة؛ أنتِ معي الآنَ بعد شوقي الكبير ذاك، أنا الذي عانيتهُ وأنا الذي أعرف مرارته لكنني حتى الآن أخاف أن أتذوق حلاوة قربك فأنسى مَن أنا، لذلك أصد هجمات عينيك القاتلة، حتى ضعفكِ وحاجتكِ إليّ كطبيبٍ أمرٌ يتخطاني، إنني في حيرة من أمري يا عاتكة؛ ليتك، ليتك لم تُعانِديني لكنتِ الآن زوجتي لكان أخي خطبكِ لي وعقدَ قِراننا بنفسه ولشهِدت كوثر نِهاية حُبِّي السعيدة.

غصّ في الكلام وابتلع ريقه؛ أشاح بوجهه كي لا ألحظ دموعه مُجدَّدًا وقام وابتعدَ عني.

لقد وصفني أنا والمشاعِرُ التي بيننا بالجيش القوي الذي يُقاومه، ولم يكن يعلم أنه في عيني وفي الواقع أقوى من أي جيش، أقوى من كل شيء، إنهُ قويٌ لدرجة أن يُحافِظَ على كياننا ويحمينا حتى من أنفسنا أقوى وألدّ أعدائنا، وهذا ما يجعلني أحبه وأهيمُ في هواه أكثر وأتمسك بمرافقته حتى لو إلى المهات.

تِلك الدموعُ التي حاول إخفاءها وتِلك الغصة التي تخذل أحاديثهُ في كل مرةٍ يُحاوِلُ التحدث فيها عن عائلته، تكسِرُ قلبي.

نهضتُ إليه بينما كان يقفُ ويتأمل الكون في حزنٍ مرير، وقفت خلفه دون أن ينتبه، كان بودي احتضانه والتخفيف عنه، كان بودي أن أمسح دموعه بيدي وأضم رأسه إليَّ وأُداعِب شعره، كم كُنتُ أتمنى أن أكونَ وطنًا له، لكن ذلك الآن وفي هذه الحال مستحيل!

لكنني سألتُ الله أن يُحيطهُ بِرحمتهِ ولُطفه ويُبرئ جراح قلبه.

أردتُ الانصراف لكن استوقفني انحناؤه فجأة والتقاطه شيئًا ما من الأرض، دققتُ النظر وإذا به ينهض مُتقدمًا نحوي وفي يديه بعض الزهور البرية وبعينين حمراوين ونبرة كسيرة وعينين تحتضنان الأرض وقف أمامي وقال:

- أتقبلينَ مُشاركتي حُزني ومُقاسمةَ ألمي وتجرُّع الغُصص معي؟

تنهد بحرقة:

- أتقبلين أن أبكي في حُضنكِ كل ليلةٍ وأنا أُعيدُ تذكر ما جرى؟ أتقبلين الزواج من شابٍّ محزون مقروح القلب يا عاتكة؟!

عِندما انتهى كانت قد أغرقتني دموعي، وكنت أهز رأسي إيجابًا وأقول:

- لَحقتُ بكِ حين أخذت روحي للمرة الثانية مُغادرًا القرية، وقد قاسمتُكَ روحي كل شيءٍ مُنذ البِداية، أنا وروحي تحت إمرتك يا ليث، أجل أقبل الزواج بكَ والمضي معك في كل الظروف، أُرافِقُك حتى الموت يا عزيز قلبي.

رفع رأسه ينظر في عيني ويسمع جوابي وارتسمت ابتسامةٌ يتيمةٌ على شفتيه وقال:

- لكن اعلمي أن ليثًا الذي تعرفينه، ليثًا الضحوك لن يعود بعد الآن؛ فقد رحل مع عائلته بعيدًا، رحل إلى العالم الآخر.

......

(9)

محمد

بعد أسـبوع كُنت في مدينة الشـيخ عمران أبحث عنه علَّه عاد من سفره فأجده. ووجدته.

يغدو الآن رجلًا في الستين تنتثرُ بعضُ الشُعيرات السُود في لحيته البيضاء الكثيفة، وكم بات يُشبه الشيخ هادي في إيمانه ووقاره وهيبتِه، لم أعرف كيف تجرأتُ وأمسكتهُ من كتفيه وأنا أقول بلهفة:

- إنك آخرُ من رأى ليثًا! أرجوك أخبرني بما تعرف.

وضع كفه على ذِراعي وربت عليها بِلطف:

- أهلًا محمد، ما بك!

- ألديك خبرٌ عن نور؟ متى آخر مرةٍ رأيتهُ فيها! أين كانوا جميعًا؟

قُلتُ بتدارك حينما لاحت علامات الذهول على وجهه:

- يجب أن نجلس في مكان ونتحدث، لن يصح في وسط الطريق.

من حيث لا أعلم ظهرت ماريا، صحتُ بتعجب بعدما عقدتُ حاجبيّ:

- هل تَبِعتِني؟!

أقحمت نفسها في حديثنا فورًا ولم تُجب سؤالي، رافقتنا إلى مكان جلوسنا.

......

– متى كانت آخر مرةٍ قابلت فيها ليثًا؟؟ أخبرني إن كُنتَ تعرف شيئًا عنه بعد مغادرته القرية.

أطرق يُفكر بِعمق ويستذكر:

– أجل، لقد دخل عليَّ ليث وحيدًا قبل سنوات، وأنا في مجلس الأستاذ الشيخ عليّ الذي أرسلني إليه الشيخ هادي؛ لأتلقى التعليم على يديه، نهضتُ لاستقباله بحرارةٍ والفرحةُ تغمرني لكن الانكسار الذي في عينيه والغُصة التي في حلقه، والألم الذي في صدره فهمتهُ وشعرتُ بِه بعد احتضاني له مُباشرة، جلسنا وقص عليَّ ما جرى في القرية أثناء غيابي، موتُ أستاذي الشيخ هادي وقد أثّر ذلك فيَّ كثيرًا، وموقف أهل القرية منهُ بعد ذلك وإحراقهم داره وموت كوثر وخروجهُ بعدها، كان يبكي وأنا أبكي، سألتهُ بعدما هدأنا:

– ماذا تنوي أن تفعل الآن؟ هل ستلتحق بالمدرسة هُنا وتكمل تحصيلك؟!

– أنوي الزواج أولًا، وبعد ذلك سأُكمل حياتي في طلب العلم، والتعليم، رُبما أبقى هُنا لفترة ولا أعلم ما الذي يكتبه الله لي بعدها.

نظر فِي عيني بِثبات وقال:

- أنا أطلبُ أختك المَصونة للزواج على سُنةِ الله ورسوله.

ضحكتُ حينها بتعجب:

- لكّنني لم آتِ بأهلي بعد؛ أختي بقيت في القرية هُناك.

شتّت نظراتهُ وابتلع ريقه وبدا عليه التوتر، ولاحظت ارتعاشًا خفيفًا في يده التي يفرك بها جبينه.

عقدتُ حاجبيَّ وأنا أنتظر فهم حاله ذاك، حاول التكلم لكن صوته لم يخرج، أخذ نفسًا عميقًا وأصبحتُ أخشى كُلما اقترب بوحهُ بالأمر، احمرَّ وجهي، قال أخيرًا:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- لقد اضطُررنا للمجيء.

عقدتُ حاجبي ولاحتْ علامات الاستفهام على وجهي فبيّن قائلًا وهو يُنكِّسُ وجههُ:

- إن عاتكة معي.

التزمتُ الصمت وكأن طامةً حلّت عليَّ، قطبتُ حاجبيَّ وبدأت أنتفضُ بغيظٍ لم أستطع إخفاءهُ، وبدأتُ أزفرُ بِحرقة وأنا أُشيحُ بِبصري عنه، سألتهُ بخشونة:

- أين هي...؟

....

مِن طريقة دخولي ارتعبتْ عاتكة وحين تقدمتُ نحوها كالعاصفة وأنا أصرخُ:

- ماذا تظُنينَ نفسكِ فاعلة؟!

احتمت بذراعيها وانكمشت على نفسها، أمسكتُها مِن ذراعيها وصببتُ جام غضبي عليها وأنا أهُزها وأصرخ:

- كيف تفعلين هذا؟؟ كيف أتيتِ كل هذا الطريق بِرفقته؟! أهكذا ربيتُكِ؟؟ ماذا فعلت أمكِ حين خرجتِ؟؟! كيف خرجتِ؟!

قالت وهي تبكي:

- لو تعلم ماذا فعل بِهِ أهلُ القرية...

قاطعتُها:

- وما شأنكِ أنتِ؟! من يكون ليث بالنسبة إليك؟؟ مُنذُ متى؟! وكيف؟

صارت شِفتها السُفلى ترتجف وعيناها تنهمر بالدموع كاللآلئ:

- أُحِبُّه مُنذ طفولتي.

رفعتُ يدي لأوجه لها صفعة قوية لكن، بقوةٍ من خلفي شعرتُ وكأنها شُلّت، التفتُّ لأجد ليث مُمسكًا بيدي وهو يُقطِّبُ حاجبيه ويقول بجرأة وهدوءٍ مُبطنٌ بغضب:

- لا تلمِسها.

أبعدتُ يدهُ وأنا أصرخُ في وجهه هو الآخر:

- لا تتدخل أنتَ.

- طوال أيامِ سفرنا لم يحدث ما يُغضِبك أو يسوؤك، قصدناك إلى هُنا ليحدث كل شيء حسب الأصول يا عمران، إنني أخطب عاتكة مِنك الآن ماذا يُضيرك؟

- لا أحد يقبل ما فعلتماهُ يا ليث، أنت حتى لن تقبلها على كوثر.

- لقد بقينا في وضعٍ صعب جدًّا ومختلف واضطُررنا للمجيء وها قد أتيناك، لا تُحمل الأمر فوق ما هو عليه، كُنا ننوي القدوم لبيتكم أنا وأخي لِطلبها لكن حادثتك مع العمدة عرقلتنا وبعد ذلك سفرك وموتُ أخي وأمور أُخرى.

....

زوّجتهما، على مَضض، لقد أحدثت فِعلتُهما جُرحًا في قلبي، لكنّ ما بيدي غير ذلك، ولأنني كُنت أتجنب الحديث أو النظر في عيونهما، غادرا سريعًا، ولا أعرف بعدها عنهما شيئًا.

صِحت بانفعال:

- ألم تسأل عنها بعد خبر مقتله؟؟

هز رأسهُ بأسى:

- بحثتُ طويلًا، وبحثي مُستمر، لكن إلى الآن لا أثر.

قالت ماريا:

- أخبرني لماذا جرى كل ذلك بينما يُحبهم الجميع؟!

وزّع نظراته بيننا وقال:

- ليس الأمرُ كما تعلمان فلم يكن الجميع يُحبهم، الجميع تظاهر بذلك صحيح! لكن القلوب الغاطسة في عمق الأبدان ولا يعلم بها غير الله تضجّ بالضغائن والأحقاد.

- وأنت لماذا خرجت من القرية؟

- لم أعد أستطيعُ العيش بينهم يا ابنتي.

- يجب أن نوحّد قوانا ونضع خُطة للبحث عنهم..

كانت ماريا تحاوره لكنني لم أعد أسمعُ شيئًا فكل ما يختلجُ في داخلي هو أنني فقدتُ أملي في لقاءِ نور هذه المرةَ أيضًا، كُنت في كل ليلة أُصبِّر نفسي بأن لقاء الشيخ عُمران سيجلبُ نورًا إليَّ، وقد انتظرت سنينًا طِوالًا، سأنتظر أيامًا قلائلَ أيضًا، وعِندما أتى!!

خيّم عليّ الحُزن، لاحظا ذلك، رمقني الشيخ عُمران بِشفقة واكتفى بأن ربت على كتفي بينما رافقتني ماريا بعد الخروج، وشَهِدتْ انهياري حيث بقيتُ أجرُّ خطاي بخيبة ثم وبعد خطواتِ مُترنحة رفعت رأسي للسماء بِصرخةٍ وأنا أقول:

- أين أنت...؟

وقعتُ على الأرض باكيًا، واستندتُ إلى أقربِ حائط أَجْتَذِبُ الشهقات مُعاتِبًا:

- في كُل مرةٍ أرتجي فيها لقاءك أعودُ خائبًا، إلى متى؟! لقد فعلتُ كل شيء يُمكنه أن يسهل لي سُبل رؤيتك ولم أرَك، يبدو أنك نسيتَ مُحمدًا المسكين هذا، أين أنت مِن ذكراه؟!

بقيتُ مُستمرًّا في بكائي المريرِ بصمت بينما كانت ماريا بِجانبي، وأصحّ ما أُفسِر به حالها هو الحيرة، لم تكن تعرف عني الشيءَ الكثير وقتها، إنها تتعرف نوباتي حديثًا، كانت عيناها تُراقِبني بحزن، حاولت مُواساتي:

- اهدأ أرجوك، أستطيعُ تخيل حُزنك وخيبتك، لكن يجب عليك الصبر، والالتجاء إلى الله.

رمقتِ السماء واستطردت قائلة:

- انظرْ، إنه الثُلث الأخير مِن الليل وسينزل ربك إلى السماء الدُنيا فاستغفره و...

قاطعتها:

- الله لا يسكنُ السماء كي ينزل منها إلى الأرض! الله لا يحويه مكان؛ لأنه هو مَن خلق المكان وخالق الشيء غنيّ عنه.

خيمت الدهشة على وجهها وصارت تنظر بعيدًا، بينما هي كذلك عقدتُ حاجبي بِتعجبٍ وأنا أرمق ضوءًا بعيدًا، قُلت:

- هل طلع الصُّبح؟

التفتت ماريا حيثُ وجّهتُ بصري لكن على ما يبدو هي لم ترَ ما رأيت، فقد أقبل فارسٌ على جوادٍ أبيض ناصع كالحليب، توقف عندي وصار الجواد يدور حول نفسه، وكان وقع حوافره أقوى من صوت ماريا التي لم أكن أعلم ما تقول، كلّمني الفارس:

- ما بِك يا محمد؟

حاولت أن أنظر لِوجهه لكن الشمسَ كانت خلفه ولم أستطع رؤية شيء سوى ضوئها الساطع!

كرر الفارس سؤاله:

- ما بك يا مُحمد؟! لِمَ أنتَ جَزِعٌ هكذا؟!

- مَن؟؟ نور...! أهذا أنت يا نور؟

أجاب بِصوتِهِ الرجولي الدافئ:

- هذا أنا يا صديقي.

- إنني وحيدٌ جِدًا.

- تذكّرْه، انظر إليه؛ لأنهُ يعلمُ بِحالكَ الآن ووحدتك، لأنهُ وحيدٌ مِثلك.

- مَن هو؟

بِتعجب:

- هل نسيته؟؟ هل نسيتَ عهدنا يا مُحمد؟؟

- تعاهدنا على ألّا نفترق وأن نبقى صاحبين ونتذكر بعضنا، وأن تشعر بِحالي وأبحثَ عنك في حال افترقنا.

- كلا، كلا يا صديقي، أنا أعني عهدنا الحقيقي ذاك، ألم يُخبرنا جدي عن أنْبل سببٍ يمكن أن نعيش من أجله! أنا أعني عهدنا الكبير الذي قطعناهُ ونحن مع جدي عِند التلة.

دارت عيناي في الأرجاء وأنا أتذكر، وما التفتُّ بعدها إلا وقد حل الظلامُ مُجددًا وماريا تسأل بهلعٍ:

- مع مَن كُنتَ تتحدث؟!

أغمضتُ عيني ثم التفتُّ إليها وأنا أُطلِقُ ضحكة راحةٍ مِن داخلي وأقول:

- ماريا.

همهمت بمعنى نعم فعُدت أضحك والدموع تتزاحم في مقلتيَّ:

- لقد كان هُنا.

- مَن؟

- نور، لقد نبَّهني على عهدٍ كُنتُ قد نسيتهُ.

على غير العادة لم تُجادِلني ولم تستنكر قولي وإنما التزمت الصمت، قُلت وقد استعدتُ رباطةَ جاشي بل وأصبحت كما لم أكن عليه يومًا من الخير:

- أنا يجب أن أذهب الآن.

ودّعتُها، وتوجهتُ لبيتي وأول ما فعلتهُ هو أنني توضأتُ وصليت وأخذتُ أقرأ القرآن.

***

ماريا

عِند عودتي للبيت وجدتُ ما لم يكن في حُسباني، أخي هِشام ينتظرُني والعصا في يديه باعتقاده أنهُ سيؤدبُني بِطوله ذاك!

انتابني الضحك مِن منظره أكثر من تعجّبي، سألتهُ وأنا أكتم ضِحكتي:

- ما بِكَ يا أخي؟

فزّ غاضبًا:

- الجميع في القرية يقولون إنكِ لا تتركين مُرافقةَ المجنونِ ذاك.

اختنق بعبرته وهو يقول:

- لم يعد لي وجه للخروج بين أصحابي بِسببك، لِماذا يا أختي؟؟ هل جُننتِ؟؟

اقتربتُ مِنه مُحاولةً تهدئته وأنا أقولُ بِهمس:

- اسمع يا هِشام، يجب ألا يعلم أبي بِذلك.

لاحت على شفتيه ابتسامةٌ شرِسة وجاء أبي مِن خلفي، جرّني من ذِراعي وصار يمشي بي نحو داري وهو يقول:

- ستجلِبين نِهايتي، أعلم أنني مهما أقول لن ينفع لذلك لا خروج لكِ بعد اليوم أتفهمين؟!

رمى بي داخل الدار وأقفل الباب بينما عُدتُ أضرب الباب وأنا أترجاه لكن دون فائدة.

جلستُ مُحتارة، أفكر فيما يُمكِنُني فِعلهُ، إنه التوقيتُ الخاطئ لِجبسي، حاولت فتح نافذتي ووجدتُ أنها مقفلة أيضًا!

يجب عليَّ إيجاد طريقة للخروج من هنا، ماذا عليَّ أن أفعل؟ كيف وقد أحكم أبي إقفال الباب والنوافذ أيضًا؟

طلبت المساعدة من هشام أخي، لكنه صعب المراس ومتعاون مع أبي بالدرجة الأولى، حاولت خداعه بالحيلة لكني عبثًا حاولت فهو فطِن وحاذق رغم صغر سنه.

حين وضع على باب غرفتي طبق الطعام ذات مرة سألته:

- أين أبي؟

أجاب أبي من على الأعتاب وهو يمد عنقه صوبي.

- إنني هُنا، إن كُنتِ تفكرين بالعبَث برأس أخيك مجددًا فانسي الأمر.

- لم أنوِ ذلك، إنني أريد التحدث إليك.

- ليس هناك ما أحدثكِ به.

- أليس لي الحق حتى في الجلوس معك؟!

بعد تجاهل طويل تقدم ودخل ليجلس عند الباب على مضض، قلتُ:

- أصبحت تعلم الآن بكل شيء ولم يعد بوسعي التخفّي.

صاح بغضب:

- وهل تنوين إخفاء شيء أيضًا! الله يعلم ماذا أخفيتِ، اسمعي، إنني لا أثقُ بكِ بمقدار ذرة إن كان هناك شيء أفضي به الآن قبل أن أعرفه بنفسي وأكسر عظامك.

صحتُ في وجهه بتعجب شديد:

- أولم تكن خَرِفًا لا تفقهُ مَن حولك شيئا؟؟ أرى أن أحوالك تبدَّلت...!

قاطعني بضربة قوية من خلف يده فيما التفتُّ سريعًا نحو هشام:

- أوليس ذلك صحيحًا؟

أجابني بالصمت.

قال أبي بعدما هدأت عواصفه مُطرقًا:

- قولي ما ستقولينه وخلصيني.

- لقد روى لي محمد أحاديث أود سؤالك عنها.

بحزنٍ وغصّة أخفاها أبي عبثًا:

- كل ما رواهُ كذبٌ وافتراء، اسمعي يا هذه، إن محمدًا هذا كافر كذّاب حتى الإله الذي يعبده يختلف تمامًا عما نعبده، انتبهي لهذا جيدًا.

- لكنني عرفتهُ جيدًا.

التفت نحوي بنظرة مرعبة كنت قد نسيت أن حديثًا كهذا لا يُقال للأب لكني لوهلة حدثته كما لو كان صديقي المقرب وسرعان ما أخفضتُ ناظري خجلًا وخوفًا وبررتُ قائلة:

- أعني أنني سمعت وعقِلت كما أنني بحثتُ وتحريت وأظن أن ما قاله حقيقة، أمّا محمد فهو أقرب للعقل من أهل هذه القرية جميعًا يا أبي، كثيرًا ما وددتُ إخبارك أني بِتُّ أسمع...

سأل باهتمام:

- ماذا؟!

- أسمعُ أنين تِلك الفتاة.

نظرت في عينيه والدموع تتساقط من عيني ورغم ذلك فإني مرتاحة؛ لأني سأبوح أخيرًا.

- أسمَعُهُ يا أبي، وإنه يُقطِّع نياط قلبي، يجب عليَّ البحث عنها، لن أرتاح دون ذلك، يجب عليَّ تحريرها من ذلك البيت الذي تحوَّل سجنًا، فإنها ما زالت أسيرة، ما زالت تتألم ورحلت، يجب علينا إعادة ابنها.

هُنا شهق أبي وكانت عيناه تخرجان من مُقلتيه، قال وهو يسرح:

- لا تجعليني أُفكر في دفنك هنا، الآن.

للحظة شعرتُ بندم شديد ما الذي جعلني أبوحُ له! كيف سيُخرِجُني من هنا الآن وأنا أُريد مُرافقة محمد والشيخ في البحث عن عاتكة الخيط الوحيد الذي نملكه في هذه القصة!

- هل عساك تسمع مِن محمد؟

- أسمعُ ما أعرفه؟! لا تنسي أني كُنت في ذلك الزمان موجودًا كما أنني كنتُ شابًّا فيما لا يزال محمدٌ طِفلًا صغيرًا.

- أخبرني إذن بالذي تعرفه.

قام عني وخرج غاضبًا، وأقفل الباب.

* * *

محمد

فتح الشيخ عمران بابه في وقتٍ من الليل:

- أنتَ مُجددًا يا مُحمد!

أفسح لي مجالًا للدخول فأجبته وأنا أطَأ العتبة:

- اعذرني فبابك هو البابُ الوحيد الذي أشعرُ وكأنني أتيت نورًا مِن خلاله!

ضحك:

- لا بأس، لا بأس عليك هذا الباب مفتوح لك دومًا، لكن التنقل بين القرى على قدميك هكذا دون دابة لهو أمرٌ مُتعب.

- لا بد لنا من اللقاء، سيكثر ذلك بعد اتفاقنا.

- أجل، أجل.

بعدما أشعل القناديل واستقررنا في جلوسنا سألني:

- ما هو قرارك؟ ما الذي ستفعله؟!

- ما قالته لي!

- مَن؟

- ومَن يُحدِثُني كالعاقِلِ سِواها؟!

في الماضي، أعني قبل اقتحامها لمكاني، في اللحظة التي تطأ فيها قدماي القَرية كُنت أشعر بأنهُ يتلبسُني الجنون فعلًا، أدركتُ أنني ما زِلت أحتفظُ بعقلي داخل القرية عِندما طرحت عليّ أسئلة ونظرت في عيني مُنتظرةً إجابة!

قال ولم ألحظ نظرة الدهشة في عينيه:

- حقًّا؟!

أجبتُ ولا أزالُ بِعقلي بعيدًا:

- حتى إنني أخشى أن أكون حكيمًا إن استمرت في سؤالِي!

- أنتَ حكيمٌ يا محمد.

التفتُّ إليه وكأنني أفيق لتوي هززتُ رأسي وقُلت مُبتسمًا:

- ما أنا إلا مُتعب، المُتعبون يُجيدون الحديث، يُجيدون وصفَ كلّ شيء؛ لأنه يبدو أتفَه من الألم الذي يَعترِي قلوبهم يا شيخ!

- قُل لي الآن من أين ستبدأ...؟

- فكرت أنهُ بدل البحث عن نور لربما وجبّ عليّ البحث عن أعدائه، فكيف أُريد إيجادهُ والإتيان به إلى هُنا بينما لم أعرف بعد أعداءه ولم أتبرأ منهم كي أحميه وكي أعرف أنا أُخطط لِقتال من! يجب أن أعرف أعدائي أولًا؛ لأن معرفة العدو يجب أن تسبق كل شيء في تخطيطنا.

نظرتُ في عينيه بثبات:

- مَن قتل الشيخ هادي؟ ألا يوجد مَن تشك به أبدًا؟

- لا أعلم ولا أشك بأحد، فالأمرُ مُحيرٌ تمامًا كما بدا لِليث.

- أنتَ قُل لي ما الذي عليَّ فِعلهُ؟ وكيف سأبدأ؟ قد لا تُصدق إن قُلت لك إنني كُنتُ أنتظره طِيلةَ عُمري.

- المُنتَظِر يجب ألا يكون مُنتَظِرًا ويكتفي بالانتظار إلا بعد أن تنقطع به السُّبل في البحثِ عن غائبه بشتى الطُرق! وقبلَ كُل شيء يجب أن يعرف كُل مِنا السبيل المُؤدي إلى الغائب المُنتظَر ليسلكه ومن ثم يتيه فيه وتنقطع به سُبلهُ وأسبابه، إن لم يحصل كل هذا فما فائِدة أن ترمق نافذتك بِهدوءٍ في انتظاره...!

......

خرجتُ من بيته وقد خيّم السكون على المدينة بِرمتها ولم يكن صوت يملأ مسمعي سوى زفيف الريح، وكانت غيومٌ داكنة كثيفة تُغطي سماءنا.

كُنت أفكر أنه عليّ التحرك من الغـد وأُخطـط لذلك، كان عليّ التحدث مع القليل من أنصار الحق في القرية أمثال جماعة الشيخ هارون، لم أتمكن من التحدث إليهم في وقتٍ كهذا ليس لأنهم نيام بل لأنه وقت قرع طبول شياطين القرية ورقصهم مع النسوة في ميادينها ومعاقرتهم للخمر!

كانت أجسادهم تتمايل وتهتز على تِلك الأنغام بشكل يُصيبني بالهلع؛ فِعندما أمرُّ من جانبهم أشعر وكأنني أمرُّ بمنظرٍ من الجحيم لِشياطين من الأنس والجن معًا، لو أنني بقيت أكثر لشاب رأسي من هول المُطلع، كانت أنظارهم تتبعني، لم يكن بوسعي سوى قول: (لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم). والمضي في طريقي دون الالتفات نحوهم، أغلقتُ باب بيتي بإحكام ودون التأمل في النجوم كما في كل ليلة استسلمت للنوم.

نهضتُ مِن فراشي بعد وقت قصير، صعدت لسطح الدار كي لا أقطع عادتي في التأمل لكنني ما إن رفعت بصري ناحيةَ السماء حتى شعرتُ بكف سوداء من وراء ظهري دفعتني إلى الأسفل، شهقت في سقوطي شهقةً طويلة وقبل أن أصل إلى الأرض فزعتُ من نومي عرقان

الجبين أجذب الشهقات وأتلفتُ حولي، وما إن استقرَّ الاطمئنان في صدري بعد هذا الكابوس المريع حتى رأيتُ أمامي وِشاحًا داكِنًا مُعلقًا!

هذا ليس لي! ولم يكن هُنا، تجمد الدم في عروقي تقدمت ناحيته، وما إن أطلت النظر فيه حتى عرفته إنهُ وِشاحُ ليث الذي حاكتهُ عاتكة وأهدتهُ له عن طريق كوثر في أحد صباحات الشتاء! أصابتني الرهبة، مددت إليه يدي ببطء، لمسته فتعجبت رطوبته، وعِندما نظرت لكفي وجدتها مُلئت بالدماء التي كانت تُغرِق ذاك الوشاح، ابتعدت وأنا أصرخ بهلع والتفت حولي؛ بحثًا عمن أتى به...

كنت أتنفس بسرعة بالغة لكنني لم أكن أسمع صوت أنفاسي، ما أسمعه فقط هو صوت قرعي المتكرر والمريع لباب الشيخ عمران، فتح مسرعًا وهو بالكاد يلقط أنفاسه:

- ماذا حدث؟

كانت الأنفاسُ والكلمات تتصارعان في فمي، قلت وأنا أُشيرُ إلى ناحية بعيدة:

- يجب أن تأتي.

......

وصلت برفقته إلى غُرفتي، كان يتلفت:

- لا شيء هُنا!

- مَن اقتحم بيتي؟!

التفتُّ إليه:

- أُقسم لك أنَّ أحدهم وضعهُ ثم أخذه، إن لم تصدقني فانظر إلى الدم في يدي.

مددتها له لأتفاجأ أنا أيضًـــا، إنها بيضـــاء نظيفة تخلو من أي بقعة وسخ...!

عندما نظر الشيخ إليَّ بريبة هززت رأسي وخرجتُ مُصرًّا على أن هناك أحد، تلفتُّ في الجوار قرب بيتي ومشيت إلى عند المنعطف الضيق، هُناك تملكني الذهول وصارت عيناي ترتجفان في مقلتي وأنا أنظر لذلك الشيء الفظيع، اتّكأت بيدي على الجدار وأصبحت أسعل بشدة لم أتمالك نفسي، فأشحتُ جانبًا وصرت أستفرغ، في هذه الأثناء كانت خطوات الشيخ عمران تتقدم نحوي من الخلف، عِندما رآني بِتلك الحال حث خُطاه وهو يسأل:

- ما الذي حلَّ بك؟ ما الأمر؟؟!

لم يسعفني الوقت فما التفتُّ إليه إلا وهو يخرّ مغشيًّا عليه في اللحظة التي وقع بصره فيها على رأس أُسامة العطّار المُعلق في الجدار، لقد قتلوه وقطعوا رأسه بوحشية وعلقوه ونجحوا بإحضارنا لنشهد ذلك بأعيُنِنا، تُرى نحن في مواجهةِ مَن؟!

من الذي أحاط بِكل شيء خبرًا حتى لقاءنا بهذا العطار المسكين، انحنيت إلى الشيخ الواقع أرضًا وفرائصي ترتعد فأنا لا أعلم إلى أين

المهرب الآن، كيف ننجو بأنفسنا؛ لندرك ما خططناه قبل أن يموت في مهده، صرت أضرب خدَّ الشيخ بكفيَّ المرتجفتين:

- أرجوك، استيقظ، هذا ليس الوقت المناسب الآن! بينما يتوجب علينا التفكير بالمكان الذي سنفرُّ إليه، هل يجب عليّ التفكير بكيفية حملك بينما لا أقوى على حمل نفسي؟! انهض أرجوك "بنبرة ووكزةٍ أقوى".

فتح عينيه بصعوبة، وعاد ينظر ناحية الرأس ثم يلتفت نحوي وملامحه موشكة على البكاء:

- مَن فعل هذا؟!

همستُ على عجالة:

- لا أعلم، لا أعلم، لكن الذي فعل هذا هو من أمَّن وجودنا أمامه الآن، يجب أن نلوذَ بالفرار.

تلفت الشيخ حوله:

- مِن أين؟!

أشرتُ له من الناحية التي تأتينا منها أصوات الطبول:

- مِن تلك الناحية.

- أليست تِلك...

- أجل، أجل هُناك يُقيمون مجونهم.

عِندما وصلنا ورأى الشيخ تِلك المناظر وتِلك النساء الكاسيات العاريات، قال بهمس:

- لا قبح الله وجهك، إلى أين أتيتَ بي؟

توارينا في مكانٍ ما بالقرب وهمستُ:

- أتيتُ هُنا؛ لأن المكان مُزدحم، وأيًّا كان من نفرّ مِنه فلن يريد افتضاح نفسه أمام الجميع.

- نحن لا نعلم أساسًا إن كان مَن يُلاحقك إنس أم جان أم ساحر أم ماذا؟

- ما الذي تعنيه؟!

- كيف مُسح الدم من كفك؟!

نظرت لكفي بحدقتين متّسعتين وأنا أُفكر في كلامه جدِّيًّا، قُلت وأنا أسرح بعيدًا:

- أظنُ أنهُ اطَّلع على حوارنا مع أُسامة المسكين أيضا.

كان يراقب الأرجاء فالتفت نحوي:

- ماذا؟ هل قابلت أُسامة!؟

- أجل كانت معي ماريا.

أدار ناظريه:

- وهل تثِقُ بها؟!

لم أعرف بما أُجيب، لكنني انتبهتُ أنها في هذا اليوم فقط اختفت كُلّيًا.

* * *

ماريا

سمِعتُ صوتًا قويًّا وجلبة ثقيلة تأتي من ناحية باب البيت، هذه المرة ارتعدت ركبتاي فهي ليست كما يُطرق في كل مرة، سمعت صوت أبي يعلو وسط أصوات الرجال، نهضت؛ لأُلصق أذني بالباب حتى أفهم ما يجري، لكن صوت أبي كان يبتعد فلم أستطع فهم ما يجري، ضربت الباب وأنا أصيح بكل صوتي:

- هي، ما الذي يجري هناك؟ أبي هل أنت بخير؟؟! هشام!! ماذا يحدث فلْيُجِبْني أحدكم.

لم تكن إلا ثواني معدودة حتى رُجف باب غرفتي ففزعت مُبتعدة وأنا أشهق بذهول.

كسر الباب وتقدم رجل مُلثم نحوي؛ فصرخت، لم يُمهلني، كَتَمَ أنفاسي بيديه وجرَّني للخارج، فيما كنت أفحص بقدمي محاولة الإفلات، وأصرخ علَّ صوتي يخرج دون جدوى، لا أثر لأبي في البيت، لقد اقتادوه أيضًا لمكان ما، أما هشام فغرفته مغلقة أرجو أن يكون فيها بأمان الآن.

حين ابتعد بي ذلك الملثم نصف الطريق واجهنا الشيخ عبد الرحمن، شخصت أبصاري إليه، أما ذاك فولَّى هاربًا وتركني، اتكأتُ على حائطٍ أجتذبُ أنفاسي، فيما زادت حيرتي وتساؤلي حول مصير أبي، تلفتُّ حولي وتقدم الشيخ عبد الرحمن نحوي وسأل بتوجُّس:

- ما الأمر يا ابنتي!؟

- لقد اقتحموا علينا البيت وأخذوا أبي وأخذوني كما رأيت.

- مَن كان ذاك؟ لم يُمهلني، ما رأيت إلا قفاه!

- قد كان مُلثمًا.

- اللعنة! هل أنتِ بخير الآن؟؟! تعالـي، تعالي وأخبريني بتفاصيل الأمر.

- إنَّ عليَّ العودة والتأكد من وجود أخي سالمًا.

- لا أتركك وحدكِ بهذا الظرف، إن بيتي قريب، تفضلي. فلتخبريني كل شيء وأنا سأُرسل أحد الأولاد لبيتكم، إن كان أخوك سالمًا أتينا به، وإن لم يكن موجودًا سنبحث عنه وعن والدك لكن يجب أن تأتي الآن لمساعدتنا في ذلك.

هززتُ رأسي وصرتُ أتبعهُ وأسلك الطريق الذي لم يكن عليَّ سلكهُ أبدًا، أتلفَّتُ حولي طوال الوقت.

......

بعد ساعة أتى أحدهم وأسرَّ للشيخ عبد الرحمن شيئًا، وحين خرج قال لي بتأسف:

- لا أثر لأبيك وأخيكِ يا ابنتي، أنتم بمن تورطتم؟؟! هل أنتِ متأكدة من أنكِ أخبرتني بكل شيء؟!

- أجل أُقسم لك.

- أهناك شيء تودين إضافته!؟

كُنت مُطرقة برأسي قليلةَ الحيلة دموعي غلبتني، ولا أعلم لم شعرت في هذا الوقت بأنني بحاجة محمد وكلماته التي تهبط كالنورِ على قلبي، نهضت وأدرت ظهري، استوقفني:

- إلى أين؟

- يجب أن أجد حلًّا، أنا لا أقف مكتوفةَ اليدين.

- لكنكِ امرأة لا يجدر بكِ الذهاب خلف العصابات الخطرة.

هززتُ رأسي قائلة:

- هذه ليست أنا.

نظر ببلاهة فأردفتُ:

- تِلك التي تجلس وتدعو بالويل والثُّبور في مثل هذا الظرف ليست أنا يا شيخ، أنا امرأةٌ سأخرج بنفسي للبحث عن أبِي وأخي اللذين ليس لهما غيري.

- لقد أوصيتُ الرجال، سيجدونهما بالتأكيد.

تمتمتُ بحذر:

- أخشى أن يحل بهم ما حل بأولئك، أخشى أن يبتلعهم الغيابُ وأبقى كمحمد مثكولة مُتوجعة أدورُ كالمجنونة وأسمع الصيحات والأنات وسط جدران مهجورة.

ما إن ابتدأت جملتي حتى اتسعت حدقتاهُ باهتمام، وما إن أكملتها حتى بلع ريقًا وأطبق جفنَيه وزفرَ قائلًا:

- مَن تعنين بأولئك؟ وما الذي تظنّينه يا ماريا؟!

نظرتُ إليه فقال لي:

- كلانا يعرف أنكِ تعنين أُسرة الشيخ هادي، أقرب أصدقائي، ليث أيضًا كان يُجبني لكنه لم يسمع قولي حين توسلتهُ البقاء في القرية أصرَّ على الذهاب والخروج، وهناك قُتل مع ابن أخيه.

- لا أحد يعلمُ ذلك، نحن ستقصّى أثره.

فجأة دخل علينا ابنه مروان وهو يصيح:

- أبي إن الرجل مع ابنه في...

ما إن وقع بصري عليه حتى تجمد دمي في عروقي فيما ألجمَه الصمت حين رآني سألته بعجل:

- أين هُما؟؟!

قال بهمس وهو يسرح بعيدًا:

- أصبحا في بيتهما الآن.

ضممتُ يديَّ إلى قلبي وأنا أصيح بفرح وأشكر الله وأهرول خارجًا.

فيما التفت مروان ناحيتي.

***

عضَّ عبد الرحمن على شفتيه بغيظ وقال بحنق:

- اللعنة اللعنة، إنه كما توقعنا تمامًا، إنهم لن يتركوا الأمر أبدًا.

عِندما لم يجد أي ردة فعل من مروان وقف أمامه صاح:

- هي، أنا أكلمِك، ما بك؟ لِمَ تصلّبت هكذا؟ أهُناك خطب؟ أم أنه حصل أمرٌ معاكس أيضًا؟!

قال وهو لا يعي حديث أبيه:

- أهذه هي ابنة الزبير!

بعصبيّة وعُجالة:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- أجل ما الأمر!

- أنا لا أظن الجنة الموعودة أهنأ وأنعمُ من مَرآها.

- أفِق أيها الغبي، أفِق، فما في انتظارك غير الجحيم إن لم نفعل حيال هذه المصيبة شيئًا.

- أظن أن زبيرًا تلقّن درسه، وسيفضل أن يكون البيت مقبرة لابنته على أن تخطو عتبة الباب مجددًا.

- هذا كان أمرًا بسيطًا أساسًا، وماذا عن الاثنين الباقين!! اذهب واجمع كل وجهاء القرية وشيوخها الآن سأعقِدُ اجتماعًا طارئًا.

***

محمد

حين نجحنا بالفرار بعيدًا، ولم نكن صدقنا بأننا تخلصنا ممن يلحقنا حقًّا، توقفنا نلتقط أنفاسنا، سألته:

- ما الذي سنفعلهُ الآن؟

- يجب أن أعود للقرية.

رفعت رأسي إليه وصحت بدهشة:

- ماذا؟

- أعني يجب أن أعود للاستقرار فيها بعد الآن.

- هذا انتحار.

- إن لم نستعجل الأمر فسوف نموت! أصبحنا في مواجهة حاسمة مع المجرمين دون أن نعرفهم؛ لذا فلا سبيل آخر غير العودة والاستقرار في القرية، لتسهل لقاءاتنا التي ستكون كثيفة بعد الآن، ولنتواصل بشكل أسرع مع هارون ونتفق مع جماعته، بشكل ما يجب علينا تجهيز جيش.

- ماذا عن نور؟ لا أستطيع التخلي عن البحث عنه.

- سأؤمّن بشكل ما مغادرتك من هنا، اذهب وابحث عنه بعيدًا، فهو في النهاية ليس هنا، أما أمر أعدائه فدعه هُنا لي، يجب أن نوحد قوانا ونقسم مهامنا، أنت عليك السفر؛ للبحث عنه وعن عاتكة ما أمكن، وأنا سأتولى الأمر هُنا وسأنجح بمعرفة العدو وكشف هويته بإذن الله، ومِن ثَمَّ نحقق العدالة على أتم وجه بمعيّة الله وعونه.

تقدمتُ خطوات بطيئة، وأرخيتُ ثقلي، واستندتُ على حائط مُغبرّ، تنهدتُ وأنا أنظر للسماء:

- سأجدهُ هذه المرة.

التفتُّ إلى عمران:

- كُنتُ أتساءل دومًا: لماذا يشملني بلاؤهم؟! لماذا يُعاقِبني الله معهم؟ ونسيتُ أنني ممن استقر في ديارهم ورضي بجِوارهم، إن أفضل شيء فعلتَه يا شيخ عمران هو أنك خرجت من أرضهم وسمائهم!

- لا مجال للمناقشة سأعود يا محمد، سأعود مِن أجل ما حدثتني عنه، تِلك الأهداف والأحلام وما خططت له، لا تنسَ أنني وضعت يدي في يدك واتحدنا.

* * *

ماريا

دخلتُ إلى البيت أركضُ نحو أبي:

- أبي، هل أنتَ بخير؟!

لكنه فاجأني بصفعة قوية على وجهي، وأخذ يجرّني نحو الغرفة بغضب مجددًا:

- لكن يا أبي أقسم أن مَن أخرجك أخرجني، والله أعلم ماذا كان سيفعل لو لم يظهر أمامنا الشيخ عبد الرحمن.

- اخرسي ولا تتكلمي يا رأس كل المصائب، أرأيت! أرأيت إلى أين أوصلتِنا بجنونكِ وتهورك وتدخلك فيما لا يعنيكِ.

رماني بالداخل وأقفل الباب وتمتم بكلمات لم أستطع سماعها، لم أفهم شيئًا مما يجري، ولماذا يتصرف أبي على هذا النحو؟ أكل هذا لأنني عرفتُ ذلك السر؟! لماذا يصر أبي على ألا أعلم ولا أفعل شيئًا؟ مَن هو أبي في تِلك الحكاية يا تُرى؟! أصبح هذا السؤال مُلحًّا في داخلي، وأصبح جوابه جوابًا لكل ما يفعله ويقوله الآن أبي!

تنهدت بحرارة وعاد كل شيء يحضرني، إن في داخلي جزءًا صغيرًا من الراحة والاطمئنان؛ لأني تحدثتُ مع الشيخ عبد الرحمن حول كل شيء.

لطالما كُنتُ أريد إخبار الجميع بكل شيء، بالحقائق، بما جرى على أولئك المظلومين، بالأنين الذي أسمعه والآهات المنبعثة من الجدران المحترقة، وكنتُ أريد إخبارهم بأن ما يفعلهُ محمد من الحزن والبكاء إزاءَ ذلك قليل..

كان على الجميع أن يموتوا في تِلك اللحظة، كان على هذه الأرض ابتلاعهم، كُنتُ أريد جدًّا أن أقول لكني أعلم أنهم سيتهمونني بالجنون والكفر كمحمد تمامًا، ولم أكن قد وصلت إلى درجة العشق التي بلغها محمد بحيث لم يعد يَعبأ بشيء!

كان يُنعت بالكافر، المجنون، الزنديق المشرك، يُرجمُ بالحجارة، يُضربُ ويُركل، يُطرد ويجوع، كل ذلك لم يكن يهمُّه، وكان يُشرعُ في حبه وحُزنه وانتظاره..

ودون أن أشعر أحببتُ حُبَّ محمد ووفاءه المنقطع النظير، أحببتُ إخلاصه، أحببتُ أنهُ لا شيء!

سِوى ربيبٍ لِتلك العائلة التي يُحِبُّها ومُنتَظِرٍ لِنورا!

في تِلك الأيام التي مضت وأنا حبيسةٌ أدركتُ أنني قد أُصبتُ بالحب ونزل بي ما مكنني من إدراك السر، إن الأمور عندي الآن في غاية الوضوح ومنتهى الصفاء.

أصبحتُ أنظرُ في عيني محمد بِحزنٍ علهُ يفهمني ويستنقِذُني ويرفعني من سقوطي لكنه لم يكن يراني، رغم أنهُ يُحدِّثُني ويقِفُ بِجانبي لكن ماريا لم تكن شيئًا يستدعي النظر والاهتمام!

كان ذاهبًا، قد امتطى جوادًا، نظر إليَّ من أعلى الجواد ولم يلحظ أي مما في عيني وقلبي، ابتسم فقط، مسحت بيدي على بطن الجواد ثم رفعت عيني لمحمد:

- قُلتَ إنك لا تملك جوادًا!

- صحيح هذا لعمران.

- إلى أين؟!

- إلى الطريقِ الذي كان عليَّ سلكُهُ مُنذ أربعين سنة.

بلعتُ ريقي وخشيت إجابتهُ التي سيُخبرني فيها أنه راحلٌ؛ ليبحث عن صاحبه وحبيبه، تمتمتُ وأنا أُشيح ببصري عنه:

- سَتتوه في الأرض بحثًا، كما هِمْتَ على وجهك عشقًا...

نظرتُ في عينيه وأنا أقول:

- ستُبعثِرُكَ الطرقات وقد لا تُعيدكَ إلى هُنا.

- لم أخرجُ لأعود.

نظرتُ فاغرةً فاهي فأكمل مُبتسمًا:

- إلا وهو معي.

- إنَّهُ معك أساسًا، ألم تقل إنه في قلبك؟

- هذا لا يكفي؛ إنَّ لي قلبًا يهواه، يهواهُ كثيرًا ليس ككل الذين يدّعون! لقد عِشتُ في غيابه، وكنتُ لا أهدأ حتى تضج في داخلي ذِكراه، أذكرهُ كثيرًا وقد كان قريبًا من روحي فعلًا، حتى إنه يسكنها وكأنهُ مُغيّبٌ فيها. وكنتُ أنتظره وأفتش في هذا المكان عن أي شيء موصول به، وبعد ذلك أهربُ إلى دمعي المشتاق، مشتاقٌ جِدًا، وكُنت أغفو علَّ غدًا يُقرِّبُه. كان كل حديثي وعهدي وكل ما يدور في عالمي صغيرٌ هُنا كبيرٌ في السماء. كان كُل قلبي، إلى أن عرضتْ لي بليةٌ أزلّت قدمي وأنستني عهدي! وأعطاني الله أكبر المعارك، وإذ إني لم أكن أقوى جنوده، وحان الوقت لأوفي عهدي وأكون جُنديًا على الأقل.

عرفت فورًا أن الذي يعنيه مُحمد في حديثه لم يكن صاحبه بل سيّده!

تشبثتُ بعنان الجواد والتصقتُ به وأنا أصيح:

- بالله عليك قُل لي مَن تعبد يا محمد؟

- إنني أعبدُ الله الواحد الأحد الذي لا تحيط به الظنون والأوهام ولا تستوعبه العقول ولا تدركه الأبصار ولا يُكيَّفُ بكيفٍ ولا يُؤيَنُ بأين، أعبدُ الإله القريب الذي يحول بيني وبين قلبي.

تمتمتُ وأنا مُطرقة برأسي:

- إنهم يقولون شيئًا آخر.

- اسمعي ماريا.

التفتُّ إليه وقد خفق قلبي لطريقة ذكره اسمي فيما أحنى رأسه قليلًا نحوي وقال بهدوء وعذوبة:

- إذا أردتِ أن تعرفي عما إذا كان الشخص على حق في طريقته عليكِ النظر إلى الطريقة التي يرى الله فيها، عليكِ معرفة أي رب يعبد بحق وكيف يصف ربه.

لكزَ جواده وانطلق بعيدًا فيما بقيتُ أُراقب ابتعادهُ وأُتمتم:

- أنا أؤمن باللهِ كما تفعلُ أنتَ؛ ليس كما يقولون.

وصحتُ بقوةٍ علَّ الرياح تنقل له صوتي قبل رحيله وأنا أقول:

- أؤمنُ بما تعتقدهُ أنت.

***

(10)

مُهاجِرٌ إلى النور

وهاجر مُحمد...

وجَسدي يتمسك إلى الآن بِروحي، قدماي لا زالت تحملاني ولا أزال أحتفظ بعقلي في رأسي.

لا زِلتُ هادئة، شفتاي ما زالت تُعانِق بسمتي!

بمقدار هشاشتي أشعر أني قوية.

الروحُ التي بقيت في جسدي مُحطمة مهما حاولت ترميمها تبقى أنقاضًا!

العقل الذي في رأسي مُنهكٌ مُتآكل!

خلف هدوئي جنون وانهيار وأسئلة لا جواب لها.

لماذا بعد رحيلهِ أشعر وكأني زائدة على هذا الكون!؟

* * *

بعد أن أدرتُ ظهري لأعود أدراجي وأنا أجرُّ خلفي أذيال الفقد والاشتياق المُبكر، سمعتُ همساتٍ متوجسة فأسرعتُ بالاختباء خلف جدار قريب وسمعتُ حديثهم كان أحدهم يقول:

- إلى أين ذهب هذا!؟ هل يُعقل أنه وجد صاحِبه، أهو حيٌّ حقًا؟!

أجابه صاحبه:

- ولِمَ أنت قلقٌ هكذا؟! لقد كُنا نحتمل أمرًا كهذا وكل تجهيزاتنا كانت من أجل ذلك.

- كُنا نحتمل بقاء نور على قيد الحياة احتمالًا ضئيلًا وجيّشنا جيوشنا وجهزنا عُدتنا، وإن اتضح أنه قادمٌ فعلًا فهذا يعني أننا مقبلون على حرب وكارثة كبيرة، كيف لا أقلق ولا ترتعدُ فرائصي، فلندرك ذاك المجنون ونقتله على قارعة الطريق!!

اتسعتْ حدقَتاي ووضعتُ يدي على فمي كي لا تخرج شَهقتي.

أتى صوتٌ ثالث ليقطع نِزاعهما قائلًا:

- يستحيل أن يصل محمد لنور!

اتسعت حدقتاي دهشةً، وأنا أنتظر إكمال حديثهم وأحاول أن تصلني همساتهم الخافتة بدقة، أكمل الرجل الثالث حديثه:

- إن له على الطريق مَن يمنعه!

- من؟

- سترُسل إليه تِلك الساحرة أحد أعوانها من الجن.

لا أعلم كيف لم أتمالك نفسي، فشهقتُ ولذتُ بالفرار على حين غرة، فأحسّوا بِي في ذات اللحظة وصاروا يلحقونني، صرتُ أجري في الأزقة لاهثة وهم من خلفي حتى وصلت أمام بيت لا أعرف أصحابه؛ فبِتّ

أقرَع بهمجيّة مستنجدة فتحت لي صاحبة البيت على عجل وهي في ذهول تحاول وضع خمارها على رأسها، دخلت البيت دون استئذان وأغلقت الباب خلفي واستندتُ إليه ووقفت ألتقط أنفاسي، صاحت بي المرأة:

- ما الخطب؟ ومَن أنتِ؟!

- إنهم في إثري.

- اهدئي، أنتِ هُنا في أمان.

عِندها نزل من الأعتاب صـــاحب البيت مُتقدمًا نحوي وناداني باسمي:

- ماريا! هذه أنتِ؟ ماذا حدث؟!

- شيخ عمران!! أهذا أنتَ حقًا؟! كيف أتيت إلى هُنا؟!

- لقد عُدت إلى القرية وهذا بيتي، ما بك تكلمي؟

سألتهُ زوجته:

- هل تعرفها؟! أحدهم كان يلاحقها.

- مَن؟

أجبتُ:

- مروان واثنان آخران.

- مروان!!

- أجل، وهو من قتل كوثر وأظنهُ من نبحثُ عنه.

تلفت حوله وأدار عينيه، اقترب بحذر وهو يحاول إسكاتي ويُشير لي بأن عليَّ التكتم، همس:

- أشش، هُنا في هذه القرية خصيصًا لا يجب الاطمئنان حتى للأبواب والجدران.

في قبو المنزل قصصتُ عليه بهمسٍ ما سمعت وحين انتهيتُ قال وهو يسرحُ بعيدًا:

- قُلتِ ساحرة؟!

- أجل، وإنني خائفة من أن يصيبوه بأذى أو أن يكون ذلك صحيحًا.

- أعطيتهُ قبل رحيله حرزًا سيَحميه.

هززتُ رأسي:

- يجب أن نلحق به، لا أستطيعُ تركه لِحرزك هذا.

- ماريا ابنتي! إن ما قالوه صحيح، هُناك ساحرٌ يلعب بمجرى الأحداث.

صحتُ بانفعال:

- وتقول لي ذلك أيضًا!!

- محمد عازمٌ على مُحاربة البلاء لن يَثنيَه أي شيء لقد اختار المواجهة في سفر طويل. نحن يجب أن نتصرف الآن هُنا هل تُساعديني؟!

هززت رأسي مُستسلمة وعقلي هاربٌ من رأسي.

- اسمعي إذن.

***

عبد الرحمن يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو يردد بتوتر:

- سيعود، سيعود، سيقتص مِني.

التفت إلى ابنه مروان توقف وثبّت عينيه في عينيه وأكّد قائلًا:

- سيقتص مِني أنا لا من قاتلهِ الحقيقي.

مروان بانفعال:

- وما الذي يُدريك؟!

رفع صوته:

- أقول لك إنها ظهرت لي، لقد تراءت أمام عينيَّ هاتين ليلة البارحة، وهذه هي العلامة بيننا وقد تحققت!

ضرب فخذه وعاد يدور في الغرفة مُتحسّرًا، قال مروان:

- اهدأ يا أبي لن أدعك تخسر كل شيء بهذه السهولة وأعدك بأنهُ لن يقف على مشارف القرية حتى.

***

محمد

أنا وربما لأول مرة أفعلُ كما أريد،

الابتعاد عنهم وانسلاخ بلائهم مِني، أن أشُقَّ طريقي إلى حياةٍ مُختلفة تمامًا وأستطيعُ الخروج في رحلة بحث عنه!

وها قد خرجت، إلى طريقٍ ليس فيه دليلٌ غيرَ قلبي!

قطعتُ البراري والوديان وما استطاع حر الشمس أن يُرهقني ولا تمكّنت وحشةُ الليل مِني، ما قلب رِحلتي رأسًا على عقب كان ما رأيتهُ عِند سفح الجبل الذي توقفت عنده وربطت فيه عنان الجواد ثم توضأت ووقفتُ للصلاة، وفجأة وقبل أن أُكبِّر ظهرت لي امرأة مُجلّلة بالسواد قد أفزعت عيناها المُبيضتان في قلبي ما لم تُفزِعهُ وحوش الليالي، إنها تتقدم نحوي كما لو أنها تراني جيدًا لكني أُقسم أن هاتين العينين غير بصيرتين وهذا الغشاء المرعب الذي يغطيهما يؤكد لي ذلك قالت بِصوتٍ مبحوح أجَشّ:

- لن تجتاز هذا، عدُ مِن حيثُ أتيت.

حاولت تنظيم نبرة صوتي مُحاولًا التغلب على الرهبة التي أصابتني:

- مَن أنتِ؟

- أنا قاتِلتُك إن لم تقلع عما يدور في رأسك.

- لكن، ما الذي تعرفينه عني!

صاحت بنبرة مرعبة:

- أولست من تِلك القرية الملعونة؟!

التزمتُ الصمت بينها ما زالت تقترِبُ جِدًّا، ابتعدتُ ببطء وعلى حين غِرّة أخرجت عصاة خشبية تُمسِكُ طرفيها وضعتها على عُنقي وألصقتني بالجبل!

ويا لها من قوة وغِلظة! جعلتني أدرك أن في الأمر شيء غير طبيعي، صرتُ أُراقِبُ تقاسيم وجهها الجامِدة حتى بدت لي مألوفة، أكاد أقسم أنني أعرفها مِن مكانٍ ما.

وكَزتها وأحللتُ رباط الجواد وامتطيتهُ مُسرعًا؛ لأكمل طريقي لكن وبعد لحظات فقط أدركتُ أني فقدتُ دليلي، وتُهتُ في الصحراء وكأن الدُّنيا كلها تدور في عيني وتحت حوافر فرسي، كُنت أحاول إقناع نفسي أن هذا وهم، وبعد أن تقطعت بي السُبل وآيستُ تمامًا رميت بنفسي من أعلى الجواد وأنا أصرخ وأبكي مقهورًا مخذولًا خائبًا:

- لِماذا؟ لماذا يحصل هذا معي؟!

* * *

ماريا

خرجتُ صباحًا حين لم تكن الشمس قد ارتفعت بعد، وقفتُ عِند الجدول أنتظر الفتيات فهن دائمًا ما يبدأن يومهن بالاستسقاء مِن هُنا!

وحين أتين أسررتُ إليهن بأحاديث، وبعد الظهيرة اتجهتُ إلى السوق وأعدت ما حدثتهن به لدى جمعٍ آخر من النساء، فيما أرسل الشيخ عمران بعض الفتية أيضًا؛ ليحدثوا بهذا الحديث كل من لم يعلم به من الرجال والشباب اليافعين.

هذا كان اتِفاقُنا في تِلك الليلة مع الشيخ عمران حيثُ قال:

- يجب علينا إيصال صوت الحق إلى الجميع، يجب علينا فضح الظالمين.

- كيف؟

- لقد مضى على القضية أربعون عامًا، وجُلّ أهل القرية ممن هم دون الخمسين سنة لا يعلمون شيئًا، الظلم الذي لحِق بهم قضيتُنا جميعًا، يجب ألا تذهب أدراجَ الرياح، علينا إخبار الجميع وتداولها كي تبقى حية كما لو أنها حصلت بالأمس، يجب أن يعلم الجميع ما جرى هُنا يجب أن يعرفوا سبب بلائهم واللعنة التي حلّت ببلدتهم علّهم يستنكرون!

- هل سيصدقوننا؟!

- احتراق البيت أمرٌ لا يمكن لأحد إنكاره فهو واضح للعيان! أما عن الشيخ هادي فإن ليثًا صرح بأنه مقتولٌ مسموم، وأنا على ذلك من الشاهدين، أما كوثر فالجميعُ يعلم أنها ماتت إثر الحريق، كما أنني أجد هذه الخطة كبدء لمعركة سنعرف فيها عدونا على أقل التقديرات.

- يعني أننا سننتظر بِلا شك هجمتهُ القادمة!

- هذا مؤكد.

ما كانت إلا ساعات معدودة مُنذ بدأنا التخطيط حتى أصبح الأمر متداولًا بين الجميع والشباب خصوصًا، البعض لم يصدق فهذه كانت تُرهات مُحمَّدٍ المعتادة والمعروف بمجنون القرية، والبعض لم يهمه الأمر لكنه يخوض في الحديث عنه، أما البعض الآخر فقد تجمهر أمام بيت

الشيخ هادي رحمه الله وأصبحوا ينظرون إليه بتأسف وحسرة يتمتم بعضهم قائلًا:

- لم تكن هذه أكاذيب محمد إذن، لقد كان على حق.

- أجل، إنَّ جمعًا من شيوخ القرية وعُقلائها أكدوا ذلك والجميع أصبح يتحدث.

- في السابق لم يكن أحدٌ يُصغي إليه فقد كان يُنعت بالمجنون!

- لقد جرى على تِلك العائلة فِعلًا ما يقوله محمد.

وآخرون صاروا يحققون ويبحثون عن اليقين في سؤالهم فُلانًا وفُلانًا، ما تعلمتهُ أنا هو أنك إذا أردت أن تعرف حقيقة ما، يجب عليك أن تبحث عنها بنفسك؛ لأنك إن سألت أحدهم فلن تأخذ سوى رأيهُ هو، حقًا كانَ أم باطِلًا، وهو بدوره سيجعلك تصدقه؛ لأنه لن يعطيك سوى الدلائل التي تُنصِفُ رأيه.

* * *

عِندما وصل خبر لعبد الرحمن احتقنَ وجهه بغيظ وسأل:

- مَن الذي أشاع الأمر؟!

يُجيبُه ابنه زياد مُنكّسًا رأسه:

- لا نعلم يا أبي.

عضَّ على شفتيه، وشد قبضة يده، غمغم محاولًا كتم غضبه الشديد:

- عمران، عِمران وتلك الفتاة، ابنةُ الزبير.

صرخ بكل صوته حتى كادت الجدران تَرتجّ:

- أَحْضِروا إليَّ الزُبير حالًا.

* * *

ماريا

سابِقًا كان الكثير من الكبار يخشون الحديث بهذا ولا يجرؤون لكن الشباب استطاعوا اليوم ذلك!

وآنذاك أصبح الجميع يخوض في الحديث دون رهبة؛ لأن الأمر أصبح جماعيًا.

هُناك عجوز مطلع على بعض الوقائع والأحداث في تلك الفترة المنصرمة، وكان يعرفُ شيئًا حول ليلة خروج ليث ويُحدِّث به، جلستُ على عتبة قريبة؛ لأستمع باهتمام.

(في تِلك الليلة أتاه نذير كان يطرق الباب، يطرقه بقوة وهو على عُجالةٍ يتلفت مرعوبًا في هذا الليل ما إن فتح ليث له الباب حتى أسرع بالدخول وأغلق الباب من خلفه، التفت إليه، قال بلهجة حذرة:

- ليث عليك أن تخرج!

عقد ليث حاجبيه فوضّح النذير قائلًا:

- إنهم يتآمرون على قتلك الآن، فاخرج إني لك من الناصحين، أسرِع بمغادرة هذه القرية ولا تعد أبدًا.

وقف مُتصلبًا في مكانه فأثار بروده استفزاز النذير.

قال بهدوء:

- مَن هم؟!

اعتلت علامات الدهشة والتعجب وجه النذير الذي أمال رأسه وهو يقول:

- ما بِك تقِفُ هكذا وتسألني الآن هذا؟! لا وقت لدينا هيًا.

أمسك بيد ليث وهو يهم بالدخول إلى وسط البيت فاستوقفه منظر الأمتعة التي كانت مُعدةً للرحيل أصلًا فالتفت إليه وقال وهو يسرع نحو الأمتعة ليحمِّلها الجياد ويتوجه نحو الباب:

- كُنت تنوي الرحيل! هيّا عجّل إذن عجّل.

استوقفه ليث حيث أمسكه من ذراعه وما زال يسأل بهدوء:

- مَن؟

وما زال النذير يلتزم الصمت فشد ليث على ياقته وكرر سؤاله بغضب ثم قال:

- كُنت أنوي الرحيل فعلًا لكنني أتراجع عن ذلك ما لم تُخبرني بأسمائهم، أنت تعلم، أنت تعرفهم، مَن همُ؟؟ من هم الذين قتلوا أخي وأحرقوا بيتي وغصبوا حقي؟ مَن هم الذين أُشرَّد الآن عن أوطاني بسببهم؟ قل! لماذا تلتزم الصمت هكذا؟ تكلم.

انخفضت أكتاف النذير وهو يُشيح بوجهه عن صاحبه الذي يُكمل بألم:

- مَن هم الذين جرعوني الغُصص والهموم؟

قال النذير بخجلٍ وقلةِ حيلة:

- أنت لا ترضى لي القتل يا صاحبي، احقن دمي بسكوتي وارحل أرجوك.

قال كلمته وغادر بيت صاحبه مُسرعًا تاركًا إياه وسط أسئلة مؤلمة وجُدران مُحترقة وأمتعة تنتظر المُغادرة).

رفض العجوز الإفصاح عن هوية النذير حينما سأله الجميع لكني تعلّقت بأذياله ورجوته وأقسمتُ عليه إلا ما يخبرني فأنا بحاجة لأي معلومة وأي طرف خيط أُمسكه، توسّلت كثيرًا رغم أنه وعندما لم يبقَ سوانا لم يبدِ أي اعتراض وكان مُستعدًّا لإخباري، حينما أدركتُ هذا ساورني القلق ونظرتُ إليه وهو يقول ببرود:

- إنّهُ صديقه الزبير، والِدُكِ يا ماريا.

تملكني الذهول وألجمَني الصمت ولم أعد أعرف ما أقول.

* * *

ألصق مروان جسد الزبير الهزيل بالجدار ووجّه له لكمة قوية على وجهه ثم جردهُ من قميصه رغم مقاومة الزبير، وحين بانت له الجروح والنُدب العميقة في صدره العاري تبسم بخُبث وقال:

- هل نسيت؟! أنسيتها؟!

كان الزُبير مُشيحًا ببَصره غارقًا في الصمت وفي حُزنٍ مطبق، رفع مروان صوته صارخًا:

- أنسيتَ هذه الجروح؟؟! أتريد مني تذكيرك بها في جسدك أم جسد ابنك!

رفع زبير بصره إليه مشدوهًا مرعوبًا فيما تبسّم مروان ولعق شفتيه وأكمل:

- أم في جسد ابنتك الحسناءَ تِلك، ففي الواقع أنت هُنا بسببها! ما رأيك؟ ماذا تقول!؟

جمع زبيرٌ قوته وانقض على ياقة مروان صارخًا:

- إن اقتربت من أبنائي...

سرعان ما وكزَه مروان ورماه أرضًا وهو يستحقره قائلًا:

- ماذا ستفعل!؟ ها ماذا ستفعل أخبرني يُثيرني الفضول حيال ذلك فعلًا؟

حين أطال زُبير صمته بصق مروان في وجهه وتركه مُرمى على الأرض وخرج.

***

محمد

وضعتُ خدي على التراب وبقيتُ مُعوِلًا حتى سمِعتُ همسًا يُناديني ويقول:

- ستَظلُ تغرقُ في البكاءِ إلى متى؟ هيًا صديقي قُم معي لِنُحقق الحُلم الجميل، ونَردَّ حقًا ضائعًا، ونُزيح ظُلمًا سائدًا، ونُعيد للجُمُعات سيِّدها الجليل، هيًا نُعِيد حَلَقاتنا ودروسنا هيًّا نعيشُ في بيتنا.

تمتمتُ واليأس قد نال من عيني:

- أين أنتَ؟ أرجوك دُلني عليك.

- عد وانتظرني إنني ما غِبتُ عن ذكراك يا أيها الرجل الأصيل.

- أتُعيدني يا صاحبي! أتردني يا نور قلبي يا أخي؟!

- قُم وانظر الشمس التي مهما يُجللها السحاب تبقى تُضيء لنا وتنشر دِفئها وتفيدنا، واترك عويلك والبكاء؛ إني أُريدك قائدًا ومُجاهِدًا حتى السباع الضاريات تخشى عُبوسه في الفَلاة، امسح دموعك والغموم وارجع إلى الدارِ التي احترقت وغادَرَ أهلُها، اِرجع إليها إنَّ أهلَها مُقبِلون.

هُنا انجلى عني الظلام، وزال عن قلبي الغمام، آمنتُ بالهمسِ الذي ألقى على سَمعي الكلام.

* * *

ماريا

حينما دخل أبي وقفت أمامه وقُلت:

- لطالما تمنيتُ أن أُقابل أحد أبطال تِلك الحكاية بنفسي وأسألهُ وجهًا لِوجه...

تقدمت نحوه وسألته وأنا أنظر في عينيه بثبات:

- لِماذا يا زُبير؟!

نظر لي وقد لمعت في عينيه الدهشة سرعان ما أطفأها إدراكه أني علِمت بكل شيء، استطردتُ بهدوء:

- لماذا تحولت إلى الشخص الذي أنت عليه الآن؟!

تنهد وهو يُشيح بِبصره عني:

- حِفاظًا عليكما واتقاءً لشرّ أعدائي.

- مَن هم أعداؤك؟ فأنا ما عُدت أعرفك، كُنتَ تكذب كالمجرمين الظالمين وتقف في صفوفهم، ربّيتنا على ذلك، فيما كنتَ شخصًا مختلفًا شخصًا آخر، ما كنتُ أتخيل ولا أتصور أن زُبيرًا صديق ليث هو أنت ذاته، ما الذي غيركَ أخبرني؟!

ابتسم بهدوء والألم يتسربُ من عينيه الجافتين:

- عِندما أقسمتِ عليَّ بمن أحب صدقتكِ وأخرجتك وسمحتُ لكِ بالعودة إلى حياتكِ كما كانت، لم أكن أتصور مِنكِ خِداعي، رغم أنه كان

عليَّ تخمين ذلك لكن رغبتي في التعبير لها عن حبي بقيت كالغصة في حلقي تِلك الرغبة أعمت عينيَّ وجعلتني أُصدِقك لم أستطع ردَّ سؤلك بعد أن أقسمتِ عليَّ بها.

عقدتُ حاجبي وسألتُ بِغرابة:

- عمَّن تتحدث؟!

- لم أكن شاعِرًا كليث وعلى كثرة المرات التي شرح لي فيها شعوره لم أفهم ما يقول، طالما حدثتني عيناهُ ولم أكن أشعر! كُنت أحزن من أجله فقط وأنتظر يومًا يُخبرنِي فيه بموعد زواجه من عاتكة لأُبارك له وأفرح معه أخيرًا، كُنتُ مُتزوجًا وامرأتِي حاملًا، أتعلمين متى فهِمتُ حديث العشق الذي طالما حدثني به؟!

سألتُ بتأثر:

- متى؟!

- عِندما بقروا بطنها الذي يحمِلُ طفلي وقتلوها أمامي.

اجتذبتُ شهيقًا أليمًا واغرورقت عيناي بالدموع فيما أكمل والدي الذي يُعرِّفُني نفسه للتو:

- لقد شعرتُ بِكل الآلام تنغَز قلبي وتنهش روحي واجتاحني الشوق والولَه قبل أن تُغمض عينيها وتودِّع الدُّنيا تمنيتُ لو تمتد بِنا تِلك اللحظة لأقرأ على مسامعها أشعار ليث الجميلة وأخبرها كم أني أعشق عينيها. إن زُبيرًا ذاك لِحق بها حين لم يحصل على تِلك الفرصة التي يخبرها فيها بحبه الكبير، هُناكَ أنا ودعتُ نفسي وتحولت كما تقولين يا ماريا.

سالت مدامعي وأنا أنظر إليه، قال:

- لِذا كُفي الآن عما تَحكينه مع عِمران ومحمد، ولا تأخذي مِني ماريا مرة أُخرى.

- أكان اسمها ماريا؟!

هز رأسه بأسى وقد أوصل إلى قلبي توجعه الشديد لكنني رفضت وقلت بحدّة:

- لن أترك الحق، لقد بدأنا الطريق وسنكمله ثم يجب عليك أن تكون معنا للأخذ بثأر صديقك، قتلُ زوجتك لا يبرر وقوفك مع الظالمين.

هُنا شقّ جيبَه وظهرت لي جروح ونُدَب مُريعة أفزعتني وأرجعتني للوراء بشهقة حزينة، وضعتُ يدي على فمي وأنا أُشيح بوجهي وأبكي:

- بالله عليكَ ما هذا يا أبي، أخفِه عني أرجوك لا أحتمل النظر إليه.

- أنتم لا تعرفون أمام من وضعتم أنفسكم، إنهم وحوش الإنس يا ابنتي يفوقون بكثير وحشيةَ الأبالسة والشياطين، يُخيل إليكم فقط مواجهتهم والأخذ بالثأر وهزيمتهم وتخليص القرية لكن هذا مستحيل، وما أنتم أمام آل هادي إلا أكلة سهلة، شيخٌ هاجر القرية منذ سنين وعاد للتو، ومجنون متسكّع، وفتاةٌ متهورة!

- لماذا فعلوا بِك هذا؟!

- لأني أنذرتُ ليثًا ليلةَ خروجِهِ ما يخططون، لقد جعلتُهم بذلك يعيشون أيامًا عصيبة في ترقب عودته وانتقامه، وحرمتهم نوم ليالٍ طويلة

طارد فيها ليث كوابيسهم. ابنتي! إن الذي تضعونه في مواجهتكم قتل سيد المنطقةِ برمتها، قضى على عائلته بأكملها وخرج بأيدي نظيفة، ألن يسهل عليه القضاء عليكم أنتم!

- إنَّ أباه لا يعلم شيئًا، لقد قُلت للشيخ عِمران يجب أن نُخبر الشيخ عبد الرحمن عن كل ما فعلهُ مروان.

هدأت ملامح أبي وكأن على رأسه الطير، أردفت قائلة:

- لن يسكت الشيخ عبد الرحمن على ما سيعرفه أبدًا.

- أجل وسيُقيم الحد على ابنه من أجلكم، لماذا لم ألحظ من قبلُ كم أنكِ غبية يا ابنتي؟!

* * *

زياد بتوتر:

- ماذا نفعل يا أبي؛ الناس لا زالوا يتحدثون ويتجمعون أمام بيت هادي والكثير منهم يُريد التحدث إليك واستفتاءك أنت بالأمر، ألهيناهم بالانتظار كثيرًا، ماذا نفعل؟!

أجاب بغضب:

- اهدموا ذلك البيت.

زياد مُتلعثمًا:

- لكن لماذا؟

أسرع في إجابته والحقد يتدفق من صوته والشرر يتطاير من عينيه:

- كي يُمحى أثرهم، كي لا يعرفهم أحد ولا أحد يتذكرهم.

وأضاف وهو يرفع صوته بالصراخ:

- ولا يكون ذلك البيت دليلا على صدق أكاذيب محمد.

تدخل مروان بخُبث:

- لحظة لحظة، ومَن سيهدمه!؟

- جد لك أي أحد ليقوم بذلك.

- هذا سُخف وغباء.

التفت إليه بسرعة ووجَّه نظرة حادة فوضَّح مروان:

- إن فعلنا نحن ذلك سنفضح أنفسنا يجب أن تستخدم الشرطة في هذا الأمر.

جلس عبد الرحمن وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة ويُغمغم:

- اللعنة اللعنة، حسنًا قوما بتدبير هذا، المهم هو ألّا يبقى لهم أي أثر.

* * *

وفي حديث طويل بين الأخوين سأل هشام أخته:

- هل كُنتِ تعلمين أن لأبي زوجةً قبل أمنا؟

-لا، إنني أتعرفُ أبي لأول مرةٍ هذه الليلة، لقد عِشنا في غموض وأحاطت بِنا الأسرارُ والخفايا ليس في القرية فقط وإنما في أنفسنا أيضًا يا هِشام.

- ولقد كُنتِ تتوقين لكشفها جميعًا!

- أجل وها قد عرفت.

- وماذا جنيتِ؟!

التفتُّ إليه:

- طريقٌ لِلخلاص! في السابقِ كُنا نعيشُ كالهمَج الرَّعاع، حياةٌ مُبهمة وقريةٌ هالكة! وتقطعتْ بِنا السُّبل والأسباب، نمضِي نهارنا في تيه وقد عُمّيَت علينا وجوه الرشد واستبهمَت معالم القصد، هائمون لا ندري أين نريد! تخيّل لو أنني لم أسعَ لمعرفة أي شيء لكُنتُ قابعةً الآن في اليأس وفي البلايا إلى الأبد، لكن عِندما عرفتُ وكشفتُ وحللتُ وجدتُ أن هناك طريقًا للخلاص من هذا كُله من كل سنين العذاب التي كانت عُمري بأكمله، إنني الآن أسير في نَفَقٍ آخره النور والضياء.

- مع محمد؟! المجنون؟!

- كُلّما تكلم معي محمد أدركت أنهُ مالكٌ للعقل، أمّا البقية ففاقِدون! كل مَن قال عنه مجنون هو المجنون بحد ذاته.

تنهدت وأسندتُ ظهري للجدار وأغمضت عيني، التفتَ لي هشام:

- ما بكِ؟

- لا أدري. تمرُّ عليَّ أوقاتٌ أود فيها الخروج من جسدي نحو السماء والطواف حول هذه الأرض.

عقد حاجبيه:

- ماذا! مُنذُ متى هذه الرغبةُ الغريبة؟!

- مُنذ هاجر مُحمد وأصبح فؤادي فارغًا.

قال كمن يبدو ساخرًا:

- آه، أنتِ تودين الطواف بحثًا عنه!

* * *

محمد

عِندما دخلتُ القرية لم تكن إلا ثوانٍ حتى واجهتُ ماريا، أتتني وفي عينيها نظرةُ قلقة:

- محمد! لقد عدتَ سريعًا!

قالت ذلك بنبرة مُربَكة، لكني لم أُعِر ذلك اهتمامًا وقُلتُ والابتسامة مِلء فمي:

- أجل وعُدت سعيدًا أيضًا.

تجاوزتُها واتجهت نحو بيت الشيخ هادي وقلبي يُسابِقني، لحقت بي وهي تُحاوِل إيقافي وتسأل:

- هل وجدت أثرًا؟! أُهناك خبرٌ مِنهم؟!

- يُمكنني أن أقول تقريبًا.

لن يتصور أحد كم، حلقت بي تِلك الكلمات التي سَمِعتُها مِنهُ في رِحلتي عاليًا، لم أستطع الهبوط إلا ارتطامًا حين رأيت خيبتي وعرفت سبب ارتباك ماريا قبل قليل...

وكأنه لم يَكْفِ قتلهم، ولم يَكْفِ حرقهم، ولم يكفِ غصب حقهم، حتى المكان الوحيد وذِكراهمُ الوحيدة هدّموها ومحو آثارهَم.

حين وصلتُ لم أجد بيتًا لأنتظر أصحابه، وجدتُ رُكامًا وترابًا، هذا أيضًا أصبح مقبرة!

آلمني كثيرًا وبكيتُ حتى عاودت فواجع قلبي فبكيت فقدهم وغيابهم وخيبتي المريرة، بكيتُ كما لو أنني لم أكن سعيدًا قبل ساعة، وكما لو أنه لم يحدثني ويُخبرني بأنني أوفى شخص يمكن لأحد يتمنى مِثله صاحبًا.

وقفت أمام البيت المهدم أتكئ على أحد أنقاضه محدودب الظهر معولًا مُناديًا:

- هادي، ليث، نور.

وأجهشتُ في بكاءٍ أبكى مِن حولي الجميع.

......

في بيت الشيخ عِمران وبعد أن هدأتُ وبعدما أخبروني بما جرى في غيابي، سألني:

- وأنتَ ما الذي جرى عليك هُناك أخبرني، لم عُدت سريعًا؟!

- سأخبركما بكل شيء. في البداية أوقفتني امرأة مريبة...

قاطعتني ماريا:

- أم أنها تِلك الساحرة!؟

قُلت بِغرابة:

- ساحرة! أيةُ ساحرة؟

- دعيه يُكمل يا ماريا دعيه، لا عليك تكلم عزيزي محمد.

أكملت ما جرى معي وأخبرتهما عن ذلك الصوت الذي خاطبني، قال عمران:

- لكن كيف يعودون وقد ماتوا، نحن كُنا من أجلك نرتجي نورًا والآن أصبحت ترتجيهم جميعًا؟!

- سمعتُ بأذني يا شيخ كان يُخاطِبني أنا.

تبادل الشيخ وماريا نظرات الشك والريبة وسألني:

- هل أنت متأكد من أن ذلك كان صوت نور؟!

- أجل أعرفه جيدًا، كثيرًا ما أتاني في منامي، وأوقاتٌ أُخرى من يقظتي.

- هل كنت تلتقي به؟!

- ليس بِشكلٍ طبيعي.

- في خيالك؟!

قاطعنا في هذه الأثناء دخول رجل على الشيخ عمران، حيث سأله الشيخ فور دخولِهِ مُتلهفًا:

- أهناك خبر؟!

- أجل، هناك أشخاص بالمواصفات التي ذكرتها تمامًا، عاتكة تبقى في ذلك البلد حتى الآن من أجل زوجها.

اتّسعت أحداقنا وتبادلنا نظرات الدهشة وقفنا جميعًا قال عمران:

- ماذا قُلت؟! أمتأكد أنت؟ زوجها ليث؟

نظر الرجل فينا بحيرة وقال بتردد:

- يعني هكذا قالوا إنها لم تبرَح ذلك المكان من أجله هو.

صارت ماريا تقفز وهي تضم كفيها فرحًا بينما تعانقنا أنا وعمران غير مصدقين، الفرحة لم تكن تسعنا:

- قد يكون ليث على قيد الحياة.

- أجل، أجل إن شاء الله.

فجأة هدأت ملامح ماريا وتمتمت:

- ما الذي سيقوله أبي إن عرف بهذا يا تُرى؟!

***

ماريا

كُنتُ قد خرجت لأعود إلى البيت لكنني بقيت عنِد بيت الشـيخ عِمران وانتظرتهُ.

مشاعري تِجاهُه لا تنتهي.

أصبح قلبي مُلتهبًا، واللهيبُ الذي في داخلي لا ينطفئ.

حينما أترقبه أُصبِحُ وكأن قدماي ستخونني وأَخِرُّ في أي لحظة.

خرج محمد في ساعةٍ من الليل، وكان السكون قد خيَّم على القرية بِرمتها، وكانت غيومٌ داكنة كثيفة تُغطي سماءنا، خرج وأصابَ الفزعُ قلبي، أو كان شيئًا آخر لكنه جعل هواءً بملء الكون لا يُسعف رئتي!

وزعتُ نظراتي في تقاسيمِ وجهه، عيناهُ المحزونتان اللتان يبرق فيهما بعضٌ مِن الأمل مُصارعًا الحنين، شفتاهُ التي همتُ فيما تنطقه من أحاديث، انتبه لِوجودي وتقدم نحوي فشعرتُ حينها بنفسي وأنزلت رأسي واحتضنتْ عيناي الأرض خجلًا!

- لَمَ تذهبي؟

رفعتُ عيني لأنظر في عينيه والحُزن يملؤني، فماذا أقول؟!

لماذا انتظرتهُ؟ كيف فكرت بأن أبوح له، لقد صدق والدي حين قال عني: "فتاة مُتهورة".

فالوقوع في حُبّ رجلٍ يكبرني بِعُمري مشغول عني بهمّه وعالمه البعيد والتصديق بأن ذلك ممكنٌ ما هو إلا تهور وحماقة، إنَّه لا ينظر إليَّ حتى ولا يُفكر بي.

طال نظري في عينيه وكِدتُ أنهارُ حُزنًا...

* * *

محمد

- ما بكِ؟

سألتها فهزّت رأسها وعيناها مليئة بالدموع، مليئة بأشياء أعرفها، وقد عِشتُ معها سنينًا طوالًا أدارت ظهرها لتذهب لكني أوقفتها؛ لأتأكد مما رأيتُ في عينيها، وأنا أعقد حاجبي مُستغربًا، ذَهَبَتْ وبقيتُ أعالجُ صدمتي وأفكر في صحةِ ما ظننت!

* * *

في أحد الأيام كان قد رتب لنا صاحبي قيس لقاءً بالشيخ هارون وجماعته، حينما حضرنا على الموعد لم نجد سوى قيس، أدار عِمران نظرهُ في الشوارع التي تغوص في الظلام بِحيرة:

- لكني لا أجد الشيخ هارون.

- يبلغك تحياته، ويقول لك إنَّه يجب علينا الاجتماع في مكانٍ خارج هذه القرية للتخطيط لما سنفعله.

تلفَّتَ قيس وقرَّب وجهه من عِمران وهو يهمس بحذر وما زال يوزِّع ناظريه في الأنحاء:

- إن عيون الجواسيس وآذانهم مزروعة في كل شبر هُنا، جئت لأخذكم إلى مكان ناءٍ عن القرية وهناك نتحدث بكل شيء، سأخرج أنا وتلحقون بي بعد ساعة.

- حسنًا هذا جيد، أعطني العنوان.

- ...

في جنح الليل وحين كُنا مع الشيخ هارون وقيس ونيف من الجماعة نحاول الخروج من القرية خلسةً متلثّمين كل منا يتلفت حوله حذرًا، لم نكن نعلم أن هناك مَن يراقبنا!

......

عِندما استقررنا في مكان بعيد عن الأنظار قال الشيخ هارون:

- تفضَّل يا شيخ عِمران.

- اسمعوا يا إخوتي، أتانا خبرٌ مهم جِدًّا يجب أن أُطلعكم عليه.

مدت إليه الأعناق منتظرين حديثه، نظر في عيونهم جميعًا ثم قال:

- رُبما -إن شاء الله يعني- قد يكون ليث حيًّا حتى الآن.

- ماذا؟

- ما الذي تقوله؟

- أمتأكدٌ أنت؟

هدّأهم بإيماءة من كفه وقال بهدوء وسكينة:

- لا شيء مؤكد حتى الآن، جاءنا خبرٌ ونأمل أن يكون حقيقيًا، لكن يجب علينا وضع خطة للتأكد منه وتهيئة أجواء القرية والسيطرة عليها، نريد زيادة صفوفنا، نريد انضمام أكبر قدر من المؤمنين إلينا، يجب أن نقلب موازين القرية، يجب القضاء على الفساد فيها...

فز الشيخ هارون على قدميه يتبعه البقية متحمّسين:

- الليلة نحرق مجالس اللهو والطرب على رؤوسهم.

- ونقتل كل مَن يعرقلنا.

- نعم من أجل ليث ومن أجلنا جميعًا ومن أجل الإصلاح، فَلْيَصل الدم إلى الركب.

- مستعدون لتقديم أرواحنا.

هدأهم الشيخ عمران بحركة من يده وهو يقول:

- كلا، كلا ليس بهذه العصبية! أرجوكم، نحن بدأنا من مكان ما وما تقولونه سيدمر كل شيء، يجب أن نستمر بنفس الوتيرة التي بدأناها، نشرنا ما جرى بين الناس كي لا تضيع القضية، فقاموا بهدم الدار وعن طريق الشرطة! نحن إلى الآن لا نعرِف عدونا الحقيقي، ولكنَّ مروان طريقٌ مؤدٍ إليه حتمًا فخذوه هو ورِجاله وراقبوه! نريد أن ننقسم؛ الفريق

الأكبر يبقى مع محمـد؛ لتولي الأمور هُنـا، والفريق الثـاني يُرافِقني في سفري؛ للتحسّس من ليث وأختي عاتكة.

***

عمران

في طريق عودتنا واجهنا أحد رجالنا، توقف يلهث أمامنا قُلتُ:

- ما بك، ما الخطب؟

- لقد فُرض حظر التجوال في القرية.

- اللعنة، لقد أحسُّوا بِنا.

قال محمد:

- ويُحاولون عرقلتنا متعمّدين.

هز رأسه وهو يتمتم بأسى:

- والوقتُ يُداهِمنا.

......

حين وصلنا كان الجلاوِزَةُ مزروعين في كل شبرٍ بعصيّهم وسيوفهم، مشينا في أزقة القرية ملثّمين ملتصقين بالجدران ننظر في جميع الأنحاء قبل التقدم خطوة واحدة، وصلنا لبيت محمد بصعوبة واضطررتُ للبقاء معه كي لا يُكشف أمرنا وإن كان مكشوفًا أصلًا فلكي لا يُلقى القبضُ علينا متلبّسين.

بعد أن جهز لي فِراشًا وضع رأسه على وسادته وأغمض عينيه لكنه سرعان ما فتحهما مُتفاجئًا، انقلب على جانبه وهو يستعيذ قائلًا: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

ما هي إلا ثوانٍ حتى عاد وانقلب للجهة الأخرى وهو يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

نظرتُ إليه، نهض من فراشه وخرج للشرفة اتكأ هُناكَ وهو يُراقِب القمر، نهضتُ إليه ووقفت بقربة والنسماتُ اللطيفة تُداعِب وجهينا، قُلت:

- خيرًا؟! ما الذي طرد منامك وأفزعكَ هكذا؟

لم أكرر سؤالي ولم أصر عليه حين طال صمته وتركته يتأمل السماء بهدوء إلى أن قال:

- إنني مُستغرب.

- ممَّ؟

- ما الذي تفعلُه ماريا في رأسي الذي لم يكن يسكنه سوى أمر واحد طيلة حياتي؟!

- إنه رأسك! يتوجب عليك أنت أن تعرف.

كان يتحدث دون النظر إليَّ وهو مُستغرِقٌ في السماء:

- كانت تنظرُ إليَّ كما...

قاطعته:

- كما كانت عاتكة تنظر لليث.

التفتَ إليَّ مفزوعًا مدهوشًا فقلتُ بهدوء:

- أجل يا عزيزي، إنها تُحبك، لقد رأيتُ ذلك وأدركتهُ منذ البِداية لكن إدراكك استغرق وقتًا طويلًا.

قال وهو يشرُدُ بعيدًا:

- نظرت إليّ كما لو كانت تَستنجِد.

- لأنها تغرق ونجاتُها بيدك أنت؛ الحُب يُشبه الاختناق والفسحة الوحيدة للتنفس هي الحبيب، نظرةٌ عطوفة ولمسةٌ حانية وكلمةٌ حُلوة وشعور فيّاض.

- لكنني...! لماذا أنا؟!

- هذا سؤال لا جواب له، أخبرني أنت أتُحِبُها؟

* * *

محمد

رغم أني لم أكن أدري حقًّا إلا أنَّ قلبي حين سـألني عِمران ذاك السؤال خفق بشدة، أجبتُه:

- لا أدري.

اتجهتُ ناحية الغرفة وأنا أقول:

- ما أعرفه أنه يجب عليَّ الابتعاد وحسب إن كان ما تقوله صحيحًا، وتِلك الفتاة تُعذَّب مِن أجلي وبسببي فيجب أن أنسحب.

جلستُ على فراشي وسحبت إليَّ غطائي وتمددتُ وأنا أقول له:

- أخبرها أرجوك أني لن أستطيع مقابلتها مُجدَّدًا!

- أنا لا شأن لي، لا تورّطني.

قُلتُ مِن تحت غطائي:

- أساسًا حتى لو أردتها فلن يُعطيني إياها الزُّبير.

سمِعتُ ضحكة عمران فالتفتُّ؛ لأجده يلتحف وينام بعدها دون أن يقول شيئًا.

لم أستطع النوم تِلك الليلة، كانت ماريا حاضرة بكل كيانها عِندي، وإنها المرة الأولى التي أشعر فيها بشيء كهذا، أن يجتاحني شخصٌ قريب ويشغل ليلتي ويبعثر منامي ووقتي ثم أستيقظُ صباحًا فألقاه وأنظر في عينيه! أتحدث إليه وأسمع صوته، وقد يمشي بِجانبي! هذا أمرٌ جديد عليَّ.

* * *

ماريا

التفتُّ إلى أبي باكية مُتوسلة:

- لماذا تفعل هذا؟ لماذا تفرّط بماريا مرة أخرى وبيديك؟!

وضعت يدي على يده أرتَجيه:

- أبي! من أجلها ها؟

أشاح بوجهه وأخفض عينيه والتزم الصمت بأسى، أكملتُ:

- ألا يُمكن أن تُحافظ عليَّ مِن أجلها؟

استفزَّني سكوته وصمته الطويل فصرختُ بانفعال:

- إنك تُزوِّجني بقاتل، كِلانا يعلمُ هذا!

- كان هذا في السابق، إنَّه الآن الرجل الثاني في القرية، سيدٌ ووَجيه.

هززتُ رأسي وقلتُ ببحَّة:

- لكنه قاتلٌ شرِس، كل ما هو قابع فيه من نعيم لا يُغيِّر ذلك، هذه الوجاهة التي حصل عليها تسلّقها عبر سلم الظلم يا أبي، عبر دِماء الأبرياء الصالحين، إنك تزُج بي في سجن مظلم وبئر لا قرار لها، أنتَ تُضيعني، لماذا تفعل هذا؟

وضع يديه يمسح على رأسي ووجهي وهو يهدئني ويقول:

- إن لم أُعطكِ إياهُ فسأعطيك للقبر! لا شيء أغلى عندي من بقائكِ تتنفّسين!

- هل تُسمي ذاك الشهيق والزفير الذي سآخذه بجانب مروان نفَسًا؟ سأتنفس الموت وأتجرع مرارته غصة غصة، دعني فَلْأَمُتْ مرة واحدة دون أن أقترن بِشيطان وأضع يدي في يديه الملطخة بِدماء العُلماء.

* * *

خرجتُ ظهرًا بعد السماح للقرويِّين بالتجوال داخل القرية فقط لمدة ساعة واحدة وذلك للتَبَضُّع الضروري، كنت أمشي بصحبة جارتي التي خرجت في الوقت ذاته بسلّتها المصنوعة من الخَزَف للتبضُّع، شهقت متعجبة بسعادة:

- ما الذي تقولينه؟! مروان خطبك ورفضتِ! مجنونةٌ أنتِ؟ إنه محطم قلوب العذارى.

- أنا المجنونة أم أنتِ؟! أقول لكِ مروان، مروان.

- أجل مروان ابن شيخ هذه القرية وكبيرها، أعلم ربما يبلغ نيفًا وخمسين سنة لكنه يتمتع بمظهر شاب ثلاثيني، فالنعيم بادٍ عليه، كما أنه قوي البنية وسيدٌ ذو شخصية مرموقة.

عضّت على شفتها السُّفلى وهي تردف قائلة: وثَراؤهُ فاحش!

قلت في نفسي: "هكذا إذن يبدو مروان في عيون الذين لم يعلموا بجرائمه".

- رفضت أجل، لكن الرفض لا يبدو حقًّا مشروعًا لي! لقد هدد والدي بقتلي إن لم أقبل به، ووالدي خائف.

- ألهذه الدرجة مصمم عليكِ؟! يبدو مغرمًا بكِ.

- ليلعنه الله، أف، أنا لا أعلم كيف الخلاص من هذه المصيبة! لمن أحكي لمن أشكو!؟

أتت نبرةٌ رجولية مرِحة من خلفي:

- لِمحمد طبعًا!

التفتُّ مُتفاجئة:

- محمد! أين أنت؟

هُنا انصرفت رفيقتي فبقينا وحدنا، شتّتُّ نظراتي بين الأرض وعينيه وقُلتُ بتلعثم:

- أنا...

لم أعرف ما أقول، وكيف أُرتب البعثرة التي في قلبي، فهمستُ بصوت لا يكادُ يسمع مع تنهيدة محرِقة: "اشتقتُ إليك".

في هذه اللحظة أشاح محمد بوجهه المُحمرّ عني، مما أشعرني بأنه قد سمع تمتَمي، بقي كذلك فوليت ظهري لأبتعد، استوقفني:

- انتظري!

التفتُّ إليه وعلّقتُ عيني وآمالي بعينيه فقال بلهجة جادة:

- اسمعي! بعيدًا عن كل شيءٍ جمعنا، إنّ الحب شيءٌ جميل وما أجمل أن تُحِبّني فتاة مِثلك! ولكنك بعيدةٌ ومُستحيلة، وأنا أخشى على قلبي كثيرًا، يكفيه ما عاناه طويلًا. إن الألم ظِلّ لِلحبّ! وكُل الهزائِم خرجتُ

مِنها حيًا، لكن هزيمتكِ لن تكونَ كذلك، لذا دعيني لا أدخل هذه المعركة مُنذُ البِداية...

كان يتحدث وعيناي تفيضان بالدموع، لكني نجحت في حبسِ هذا الفيضان، فصارت حنجرتي ترتجف في حلقي وألمٌ فظيع يكاد يخنقني ويسد مجرى حديثي، وضعتُ يدي على رقبتي وأغمضتُ عيني بألم وبلعتُ ريقًا وقلتُ:

- إنَّ أبي، يزوجني من مروان؛ لأنه هدده بقتلي إن لم يفعل ذلك.

قُلتها ووليتُ هاربةً لكن هروبي لم يمنعني من رؤية الصدمة الموجعة التي حلّت على وجهه وعينيه.

* * *

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

محمد

بقيتُ فاغرًا فاهي ضائعًا بين الشعور، أغمضت عيني والتفتُّ بوجهي، سَرَتْ من بين أضلاعي ضحكةٌ أليمة تسخر مِني وتكاد تجعلني مجنونًا حقيقيًّا، سِرتُ نحو عِمران الذي أصبح أقرب أصدقائي.

......

وقفتُ بِرفقته أمام الزبير الذي اختصر لنا جوابه بعد كل ما قلنا في كلمة "لا أستطيع".

قال عِمران منفعلًا:

- بل تستطيع، اتَّقِ الله يا رجل، تستطيع أن تقول إن قرانها كان معقودًا على محمد أساسًا، وأنا مستعد أن أعقد قرانها الآن في هذه الساعة.

هززت رأسي موافِقًا ومؤيدًا بشدة، وأنا أحوِّل ناظري من عمران إلى الزبير في انتظار جوابه الذي حطم رؤوسنا:

- كلَّا.

صرختُ في وجهه:

- لكن لِماذا؟!

- لا أستطيع اللعب مع مروان، هذا مُستحيل، إنه أدهى وأخبث مما تتصورون، اللعب لن يجدي سوى ازدياد عددِ ضحاياه، قد يقتلنا جميعًا.

قام من بيننا وانسحب بخطوات ملؤها الخيبة والانكسار وقال بتعب:

- دعوني وشأني، خلُّو بيني وبين ابنتي، أنا لا أريد سوى حياتها، اتركوا ياقتنا واخرجوا الآن من بيتي.

* * *

عمران

في يوم زفافها وقفت ثانيةً أمام الزبير، تقدم إليَّ بحياء وقال:

- اعذرني على تصرفي معك في المرة السابقة حين أتيت تخطب ماريا لمحمد، ففي ناحية ما من رأسي لا أجد فرقًا بين هذه الزيجة وتلك إلا الفضيحة، فعندما أزوجها محمد ستكون سيرتها على كل لسان، الفتاةُ التي شغفَها المجنونُ حُبًّا!

تبسمت بهدوء وقُلتُ:

- بعد كل تلك السنوات وتلك المسافات أدركتُ وفهمتُ، إنه ليس عارًا أو عيبًا ولا جُرمًا ولا خطأً، العار الحقيقي هو أن تزوّج كريمتك ممن يجعل حياتها جحيمًا، ممن ليس كفؤًا لها ولا يليق بِقلبها ولا بِعُمرها، ولا بعقلها، ولا بمعتقداتها وحتى جمالها! إنه لجُرم أن تزوجها بشخص ليس أبدًا كما تهوى. ما الضير؟ وما العيب؟! في أن تزوجها بشخص اختاره قلبها واستأمنتهُ عليه! عَرَفتهُ واستراحت روحها في جنبه واطمأنت نفسها لنفسه، ما الذي يجعلنا نخجل من كوننا زوجنا بناتنا وأخواتنا لأشخاص يحبينهن، ما المُخجل في اختيار السعادة عن سبق قصد وإصرا ر؟! ألا يجوز من السعادة إلا ما يأتي بالحظ وبالصدف؟؟!

هممتُ بالخروج من عِندهِ وقد لمحت أطراف ثوبها الأبيض من عتبات الباب فقلت:

- لا تجعل من ثوب زفافها كفنًا يا زُبير.

......

دقائق وإذا بحضور مروان يُزف بين أهله وعشيرته وجمع من أهالي القرية، وبينما كُنا في جلبَة لمحت محمدًا يأتي من بعيد بخطوات مضطربة، تغيرت ملامحُ وجهي، بينما كُنتُ أراقبه وحين أسند يديه لأقرب جدار تركتُ مَن معي وأسرعتُ إليه.

كمن لم تبقَ له طاقة على المشي خرَّ قاعدًا وأسند ظهره، أدركتهُ:

- ما بك؟!

- ق، ق، قدم، قدماي.

نظرت إلى قدميه المتيبّستَيْن ثم نظرت لعينيه المُرتجفتَين في مقلتَيه، هززته من كتفه وقلت:

- ما بها!؟

- لا تحملاني، لا أستطيع تحريكهما، أردتُ الذهاب.

- إلى أين؟

- إليها.

- انتهى! أصبحت زوجةَ رجلٍ آخر.

رفع حاجبيه مدهوشًا مما كان يعرفه أساسًا! وكان الألم واضحًا في عينيه الذابلتين، خرت روحهُ ولم يكن يستطيع التحكم حتى في رأسه، فقد أسنده للجدار ونظر للسماء كمن يستسقي النفس.

- لا تُروّع قلبي يا محمد.

لم يكن يبكي! كان يجذب شهيقًا وهو على تِلك الحال كالمُحتضِر، أمسكته مِن رأسه ووجهتُ وجهه لوجهي وأنا أقول:

- اتقّ الله في نفسك، لا تفعل هذا.

- أتقي الله في نفسي؟!

أطلق ضحكة وعِرة كُلها وجع، ثم ذبلتُ عيناهُ وهو ينظر لي ويسأل:

- لماذا؟ لماذا كل الذين أُحِبُّهم يذهبون؟!

عاد يُسندُ رأسه للجدار والدموع تُغرقُ قلبه! الذي اعتدتُ أن أراهُ وأعرفه دون أن يتحدث حتى، ربتُّ على كتفه وقُلت بحنان وأنا أحدق في عينيه الذابلتين:

- لم يذهب أحد، لم يذهب أحدٌ طالما الله باقٍ!

في هذه اللحظة شهق محمد وأغمض عينيه المُعلقتينِ بالسماء وخر جسده دون حراك.

اتّسعت مقلتاي وصرت أصرخ مناديًا في الجوار:

- ليُغيثني أحدكم.

تراكضت إلينا الأقدام، بينما أنا أضرب وجنتيه بكفي وأنا أصيح باسمه بأعلى صوتي.

***

ماريا

كُنت غارقة في بُكائي وعِندما سمعتُ صراخ الشيخ عِمران قمتُ مسرعة ونظرتُ من عند الباب، رأيت محمدًا مستلقيًا من بعيد والناس حوله، شعرتُ حينها بأن قلبي خرَّ أرضًا؛ فركضت أجرُّه معي، وقفت أجتذب شهقاتي والدموع أغشت على بصري، كنتُ أمسح أنفي وأسأل:

- ما به؟! لماذا هو هكذا؟!

التفت الشيخ نحوي فرأيتُ الخوف يعلو ملامحه، وحين استوعب وقوفي ووجودي عاد ورفع رأسه إليَّ:

- عودي أدراجك.

في هذه اللحظة جاء من خلفي مروان غاضبًا، جرّني من ذراعي وقبل أن أنطق بكلمه صفعني بقوة على وجهي، وأخذ بي إلى البيت.

ألقيتُ بنفسي على السرير بينما أقفل باب الغرفة وتقدَّم نحوي والشرر يتطاير من عينيه مدَّ يده إلى عُنقي وشدَّ قبضته عليه حتى كاد يقتلني، قال:

- أنتِ تتسكّعين معه على الدوام في القرية ولكن! لم يخطر ببالي أبدًا شيء آخر. لم أستبعد أن مجنونًا منبوذًا كهذا سيُمرّغه في التراب حبه لفتاةٍ جميلة مثلك!

أبعد يده عن عنقي، فبدأت بالسعال الشديد، وأخذتُ شهيقًا عاليًا يكفي لما فقدته من الهواء في تلك اللحظات، وبينما كنت أضع يدي على صدري وأسعل مد يده ليبعد خصلات شعري المنسدلة؛ فرميت بيده بعيدًا بحركة عنيفة، فأخذ بيدي ولواها خلف ظهري وقربني حتى كاد يُلصِقُني بجسده وهو يرمقني بنظرات مرعبة وأكمل حديثه قائلًا:

- لم أستبعد ذلك لكن أنتِ؟! لا يمكن أن يكون ما في بالي صحيحًا أليس كذلك؟! قولي لي: إني مخطئ.

- أنت مخطئ! محمد لم يمرّغه حب فتاة مثلي في التراب.

لاحت على وجهه علامات الارتياح لكني أكملت بثقة وشجاعة مجنونة لم أعرف من أين استمدَدْتُها وأنا أنظر في عينيه:

- ما رأيتَهُ مُتمرغًا في التُرابِ قبل قليلٍ كان قلبي!

احتدت ملامحه ورفع حاجبه وقال بهدوء:

- وتجرُئين أيضًا!؟

جرد خنجره من غمده فشهقتُ بخفوت وابتعدتُ بخطوات بطيئة للوراء بينما اقترب مني حتى ألصقني بالجدار ومرَّر ذلك الخنجر حول خاصرتي حتى أدماها.

......

وقعت على الأرض أخور في دمي تراكض جميع مَن في البيت نحوي، قال قبل أن يخرج:

عالجوها؛ عالجوها يا زهرة.

كانت جاريته أم عمرو تمسك بي وتحاول رفعي من على الأرض، حينما خرج قالت بتأسف:

- أي عُرسٍ هذا؟!

قُلتُ:

- يُريد بهذا أن يخبرني أنه قادر على فعل أي شيء دون أن يتوانى لحظة، المجرم الحقير، لا يعلم أنني أيضًا أستطيع قتله دون أن يرفّ لي جفن.

تبدلت ألوان أم عمرو وشتَّتت نظراتها بيني وبين زوجته زهرة، فيما خرجت زهرة بعد نظرة غاضبة متعالية وجهتها إليَّ، استوقفته في صحن الدار:

- مروان!

التفت ناحيتها:

- أي عدوة قد أتيت بها لبيتك؟! إنها منذ الآن تهدد بقتلك!

- دعكِ منها.

- إنها شرسة!

- تُعجبني شراستُها التي قد تتسبب في إزهاق روحها.

- قل لي: لماذا تزوجتها ما دمتما أعداء هكذا!؟

- تعلمينَ جيدًا أني لا أبحث عن الحب يا زهرتي، وكيف يبحث الإنسان عما في يديه!!

......

التفتت أم عمرو تهمس لي:

- ما كان عليكِ التفوُّه بهذا الكلام أمامها، لا تفعلي ذلك مرةً أخرى فهي روحهُ التي بين جنبيه وهو روحها المعلقة.

- فليذهبا إلى الجحيم.

* * *

مُحمد

وفي ليلةٍ أُخرى بقي فيها عِمران في داري كُنا نتحادث تحت ضوء القمر حول ما سنفعله، وكيف سنُنفّذه في ظل حظر التجوال الذي ما كان ليخطر على البال أبدًا، قال:

- أتعلم، للتو أشعر، بأن زواج ماريا من مروان قد يكون في صالحنا جميعًا.

- كيف ذلك؟!

- ألا تصلُح جاسوسة؟!

- ستكون في خطر.

- كانت تتوق لذلك.

- هٍهه هذا صحيح، تُحب مطاردة الحقائق في ظل الظروف الخطِرة!

- وهي بِها الآن، يجب أن نُنبّهها لهذا بطريقةٍ ما.

أسند رأسه لِلحائط وهو يرمق السماء ويقول:

- يجب أن نصل للزبير فقد يتعاون معنا.

- مستحيل! لن يتعاونَ معك الزبير أبدًا، لو شاء أن يتعاون لما زوَّجها مروان أصلًا! أأذهب وأُحَدِّثُها أنا؟!

- لا تهذي، أنا سأذهب وأتحدث إليها بِنفسي إن لزم، أمّا أنتَ فانس الأمر، لقد جرحَ الفتاة وأدماها؛ لأنه أُغمي عليك في يوم عرسها فقط! ما الذي تُريده أن يفعل إن تحدثت إليها أنتَ؟

توزع الوجع في تقاسيم وجهه وهو يقول:

- حين يأذن الله، أنا سأقتل هذا اللعين بيديَّ.

......

أنَّبتُ نفسي كثيرًا عِندما تمنيتُ الحديث مع ماريا، كيف تفوّهت بذلك؟! يجب أن تخرج من داخلي فقد لخبطت كل شيء، يجب عليَّ التفرغ والتركيز على مهامي؛ للبحث عن نور ولقائه، لا يجب أن أسمح لأي شيء أن يخرب ذلك. أخشى أن تسرق ماريا حُزني.

توضأت وصليت الليل وقرأتُ القرآن وارتاح بالي فوضعت رأسي على الوسادة لأنام مُرتاحًا بعدما ألقيت بأعبائي، لكنني بعد ساعة واحدة من نومي فزعت!

كنت أجتذب أنفاسي بصعوبة وأضع يدي على صدري محاوِلًا تهدئة نبضاتي، مُقطب الحاجبين وأستغيث..

"يكفيكِ هذا..

توقفي عن المجيء إلى أحلامي كلما نسيتكِ، إنكِ لا تغيبين لتتركيني أُكمل فرحتي بنسيانكِ ليلةً واحدة،

إنكِ تمامًا كتِلك البلية التي تعرض لي وتزل قدمي كلما قُلتُ قد صلُحت سريرتي وقُرب من مجلس التوابين والسعداءَ مجلسي!

لماذا؟ لماذا حينما أنام قرير العين تأتيني فتفزعين فؤادي وتطردين حتى منامي!!!".

***

وفي اليوم التالي كان المنادي يقرع طبوله في وسط القرية ويصيح ليجمع الناس حوله فيقرأ عليهم الأمر من جديد:

(أهالي قرية التلة! نحيطكم علمًا بأنه يُمنع ويُجرم ذكر هادي وعائلته بعد هذه اللحظة؛ لما يسبب ذلك من الفوضى في القرية وتهديد أمنها، ومَن يخالف الأمر فإن جزاءه السجن والعقوبة).

......

خرج عمران لرحلته آملا لقاء أخته؛ بعدما وضع خطةً مع ماريا، ووفقًا لها ستلتقي اليوم بعبد الرحمن وتطلب تعاونه وتضامنه معنا ضد مروان، أما أنا فقد خرجتُ أيضًا برفقة قيس، كنا قاصدين الاستطلاع عما عرفناه في الآونة الأخيرة وفي طريقنا صادفنا رجلًا كهلًا...

أصرَّ على ضيافتنا وقدَّم لنا اللبن والتمر وحين هممنا بالنهوض استوقفنا قائلًا:

- لم تُخبراني من أين قدومكما؟

- من قرية التلة.

تجهم وجهه، تمتمَ وعيناه ترتجفان في مقلتيه بصدمة وشيء من الغضب:

- تِلك القرية، تِلك القرية المشؤومة الملعونة.

اتخذ موقفًا سريعًا؛ أعطانا ظهره وصار يدخل كوخه متكئًا على عصاه بعصبية كان كمن ندم على استضافتنا!

تبادلنا النظرات ولحقنا به بقينا نطرق بابه فهو يخفي شيئًا على ما يبدو.

- افتح الباب.

- قل لنا ماذا تعرف عنها!؟

- تكلم ما الذي تعرفه عن تلك القرية؟

وحينها أنهكنا الترجي وفتح أخيرًا قال:

- سأحدثكما، لكن لا تعودا إلى هُنا واتركاني أكمل ما تبقَّى من أيامي بسلام.

- قلنا ونحن نتربع أمامه:

- قل لنا كل ما تعرفه ونعدك بألا نعود.

- حسنًا، في مكانٍ ناءٍ جِدًّا عن القُرى والمُدن التي تعجُ بالسكان، كانت تعيشُ مُشعوذة مشهورة يتردد إليها الكثير من الأشرار والبائسين الذين ضلوا طريق الهدى في حياتهم، كانت تتوارى عن الأنظار ولا تحدث زبائنها إلا من وراء حجاب، كُنت زوج خادمةٍ لديها، وذات يوم جاء الرجل الذي من تلك المدينة.

- مَن هو؟ ما اسمه؟!

- كان صعلوكًا أنقذ حياة ابنتها الجميلة التي تبلغ من العمر تسعة عشر ربيعًا وكمكافأة إضافية على القطع الذهبية التي أهدته إياها فإنها تنبأت لهُ بِمستقبلٍ فظيع.

- أكمِل، لماذا سكتَّ؟

- بماذا تنبّأت له؟

- ما الذي قالته له تِلك الساحرة؟

- ستكون سيد المدينة بعد أن تقتل شيخًا من وجهاء العرب في عقر داره، لكن احذر بعد سنوات مديدة عودة هذا الشيخ إلى الحياة ليقتص مِنك وعلامة عودته هو ظهور الساحرة إلى العلن.

التفتُّ إلى قيس وتبادلنا نظرات الدهشة والفزع صرخنا في آنٍ واحد:

محمد: سيد المدينة؟!

قيس: يعود للحياة؟!

نهضنا مربكين ولم يعرف الواحد منا إلى أين يتجه، أمسكنا ببعضنا فقلتُ:

- عبد الرحمن.

- هو القاتل، أدرك ماريا بسرعة.

- أجل أجل، وأنت الحق بعمران وأخبره بكل شيء.

* * *

ماريا

في غرفة مروان الأشبه بالقبر نهضت من السرير بثقل كبير،

هذا القلبُ مُثقلٌ بِه! أصبحتُ كُلي مُثقلة، وبِتُّ أجرُّ جسدي بجهدٍ جهيد، أصبحتُ وكأنني بلغتُ التسعين فِعلًا مِن عمري.

وبدأتُ أواسي نفسي بأنني سأنجو الآن أخيرًا وقد لا أعود من بيت الشيخ عبد الرحمن إلى هُنا أبدًا، أنا فعلًا لا يجب أن أعود، سأُخبِرهُ بكل شيء قد ينقذني!

وقفتُ أمامه ومد يده؛ لأقبلها قائلًا باستبشار:

- أهلًا وسهلًا بابنتي وزوجة ولدي.

بلعتُ ريقًا عِندما قال "زوجة ولدي" تقدمت لأقبل يده وأجلس بجانبه في كل أدب واحترام قُلتُ:

- لديَّ ما أخبرك به.

- كُلِّي آذانٌ صـــاغية، قولي ما بدا لكِ، ألم نتعاهد على ألا تُخفي عني شيئًا؟!

- في الحقيقة أنا لم أنس ذلك الوعد ولهذا أتيت، لكنني لا أعرفُ كيف تُصاغ الكلمات لقول شيء كهذا؛ ولكن يجب أن تعرف أنه خبرٌ أنتَ أولى الناس بمعرفته.

كان إصغاؤه واهتمامه يزداد كلما نطقتُ حرفًا كان ينتظر كلامي بقلة صبر بينما أسردُ أنا براحة.

- في تِلك المرة حين استضــفتني في بيتك، كُنا قد تحادثنا عن هادي وعائلته وما جرى عليهم.

- أجل!

- الأمر مُتعلِقٌ بهذا.

- قولي.

- إننا نعرفُ مَن قد يوصلنا للقاتل، نعرفُ أحد المجرمين الذين وراء كل هذا.

كان يُدقق النظر في عيني وشفتي في محاولة مستعجلة لمعرفة ما سأقوله ويسأل بنفاد صبر وتوتر:

- مَن هو؟

- نحن بحاجة لك معنا، في صفنا، هل تعدنا بذلك؟!

- وهل عندكِ أدنى شك؟!

- حتى النهاية؟! وإن عرفته؟

سأل بحدَّة:

- مَن هو؟ أخبريني، ومَن أنتم الذين عرفتموه؟ وكيف؟!

- أنا، ومحمد وعمران و...

* * *

محمد

لم أجد نفسي إلا عند باب عبد الرحمن محتارًا كيف أدخل، وصرت أحوم حول نفسي وقد أصابتني ربكة، وبشكل ما نجحت في الحصول على قطعة من الورق وكتبتُ عليها وناديتُ أحد الصبية الصغار:

- أمسك بهذه، ولا تعطها لأحد أبدًا غير ماريا، أتعرفها؟

- أجل أخت هشام وابنة الزبير.

- أجل أجل، إن حصل عليها أحد غيرها فستموت، انتبه!

ارتعب الطفل فربتُّ على كتفه:

- حَاوِلِ التسلسل بأي طريقة وسلِّمْها هذه، واطْلُبْ منها أن تُعجِّل بفحتها وأنا سأعود حالًا سأكون هُنا قُل لها بألا تقلق.

قرعتُ الباب بقوة مُتعمدًا إحداث الضجة بعدما تلثّمت ثم هربت قاصدًا الزبير وكِدت أقتلع بابه، خرج هلعًا يحاول ارتداء جُبّته مسرعًا، قُلت:

- يجب أن نلحق ماريا بسرعة، إنها تخبر عبد الرحمن بكل شيء.

شهق بحدقتين متسعتين وركض حاسرًا تاركًا بابه مفتوحًا وهرول وأنا من خلفه وهو يقول:

- آه يا ابنتي الغبية آه، ألم تفهميني! ألم تفهمي علي؟!

- هل كنت تعلم؟ هل كنت تعلم وأخفيت ذلك عنا؟ أخفيته عنها متعمدًا.

ما زلنا نركض ناحية بيت عبد الرحمن، وكلٌّ منّا يصـــارع الآخر بغضب رغم عجالته.

- أخبرتها بأن تتوقف.

- وكنت تعلم أنها لن تفعل، ولن تتوقف أبدًا.

- أجل، لو لم تكن أنت موجودًا لما كانت هي الآن كذلك.

التفت إليَّ متوقِّفًا وتاركًا عجالته وصار يهاجمني قائلًا:

- لو لم تكن أنت لما طاردت هي أشرس الناس، ولما تورطت بهم.

شدَّ على ياقتي وهو يقول:

- لولاك لكانت في بيت والدها وليس في بيت المجرمين القتلة.

وبينما كنت أُعالج صدمتي ورغبتي في الإفلات منه للحاق بها، لكمني على وجهي وصار يبرحني ضربًا، وكلما حاولت التكلم والتفاهم لم يسمعني ولم أجد سوى أن أدفعه وأضربه للخلاص منه، فصرنا نعترك في منتصف الطريق إلى أن وكزته بعيدًا حتى ارتطم على جدارٍ ما، قُلت وأنا أرفع عمامتي المنحلة على الأرض وأرمي بها فوق كتفي وأجتذب أنفاسي وأقول:

- لا تكن أبلهًا يا زبير يجب أن نلحقها الآن، دع عنك الجنون واتبعني.

* * *

ماريا

بعدما طُرق الباب بطريقة مريعة نهض عبد الرحمن؛ ليستطلع الأمر، مما قطع حديثي لم تكن إلا ثوانٍ قليلة وإذا بصبي يُطل من أعلى الجدار مُتسلقًا ويحاول لفت انتباهي بأصوات خافتة غريبة، عندما التفتُّ إليه رماني بحجر وفي ذات اللحظة كان عبد الرحمن آتيًا فأسرع الصبي بالاختفاء، وصرت أنظر ناحيته وناحية الحجر وناحية عبد الرحمن القادم

من بعيد، بلعتُ ريقًا وكُنتُ أريد التقاط الحجر لكن! لا مجال ولا سبيل لذلك.

جلس أمامي ووجهه قد انتفخ غيظًا:

- أكملي حديثك، لا أعلم أي عدو من أعداء الله أرعبنا هكذا.

أشاح بوجهه وهو يغمض عينيه ويجذب نفسًا عميقًا ثم قال:

- لقد جفّ حلقي سأحضر بعض الماء.

أومأتُ برأسي وعندما قام أسرعت بالنهوض والتقطتُ الحجر بسرعة وعُدت مكاني وكُنت أحاول فك الورقة التي تُغلفه بسرعة ويدي ترتجفان، سمعتُ نَحنحَته فأخفيتُ الحجر في كمي واستقمت في جلوسي حتى جلس أمامي وقال:

- أين توقفنا...؟!

عرق جبيني وأظن أنه قد بدا عليّ الارتباك، وحيثُ كانت تفصل بيننا مِنضدة مددتُ يديَّ؛ لأفتح تلك الورقة تحتها وأقرؤها..

"عبد الرحمن هو القاتل غادري المكان بِسرعة".

ارتجفت يداي وعلَت رأسي صعقَة لم أعرف حتى جذبتُ شهقتي أمامه، لم أكن أستطيع النظر في عينيه، في أي مأزقٍ قد وقعتُ يا تُرى، كيف لي أن أنسحب من هُنا بسلام؟ إلى أين عساي أجرّ الحديث؟

وليت هاربة وصرت أركض دون أن أشعر بنفسي، كنت أركض وأركض، ويُخيَّل إليَّ أنَّه يلاحقني أطبقت على جفني بشدة، وواصلتُ الركض حتى انقطع نَفَسِي تمامًا عندما فتحتُ عيني رأيت محمدًا يركض إليَّ فتوقفتُ واتكأتُ بيدي على ذراعيه ألتقطُ أنفاسي، قال وهو يحاول الاطمئنان عليَّ، ويتأكد من سلامة كل جزء مِني بعينيه المرعوبتين تارة ويتأكد من أن الطريق يخلو ممَّن يُطاردني تارة:

- ما الذي حدث ماذا فعلتِ ماذا قلتِ؟

كنت أجذب شهقاتي فقط وعيناي المذعورتان تحكي خوفي فقط، ظهر أبي فجأة والذي كان يبدو أنه آتٍ من وراء محمد، قال بحنو وخوف:

- ماريا.

التفتُّ إليه بذعر ونقلتُ يدي من على ذراعي محمد إلى كتفيَّ أبي فعانقته وبكيت.

***

عمران

ما إن ابتعدتُ عن المدينة حتى شعرتُ بأن روح أختي تُطوقني!

ذكرياتُ طفولتنا، بيتنا، أبي وأمي، إخوتي الصغار الذين توليتُ رِعايتهم وإطعامهم، لعبنا، صداقتنا، أحاديثنا، معاناتنا، فقرنا، وابتلاؤنا، شبابُنا ونظرةُ العشق التي جهلتها في عينيها عِند لقائها ليثًا في بيتنا وهو يُطببني!

ها نحن كُبرنا وكل منَّا أسس حياته وعائلته لكنكِ يا عاتكة قطعة من روحي ومن عائلتي الأولى والكُبرى، أنتِ طفولتي، وها قد نحّتكِ الأقدار بعيدًا عن أخيكِ، وها أنا أبدأ رحلة سفر طويلة لا أعلم أأجدكِ فيها سالمةً أم لا؟ وهل سأجد الوجه الذي أتذكره مِنك أم أن الزمان عبث بملامحكِ الجميلةِ يا تُرى؟!

أشعر وكأنني بالسير إليك أسيرُ إلى الماضي الجميل والقرية الحلوة التي تملؤها نفحات هادي والمدرسة المتواضعة وطلبة العلم، كان كل شيء يغدو ويروح في خيالي وكنت أسير وأعترك مع دموعي، وكان الشيخ هارون الذي يُرافِقني يُكثر الالتفات إليَّ مُتعجِّبًا من حالي.

بعد زوال الشمس جلسنا نرتاح من وعثاء الطريق، وتوضأنا ووقفنا للصلاة، لكن هارون تخلف عني بحجة تجديد وضوئه، فدخلت أنا في صلاتي مُطمئنًا لم أدرك ما كان ينوي، ركعت ورفعت وهويت إلى السجود وأثناء سجودي كان هارون قد رفع حجرًا ضخمًا أراد أن يهوي به فوق رأسي لولا أنَّ صوتَ الخيل وحوافرها من ورائنا أربكه مما جعله يرمي الحجر بعيدًا...

عِندما فرغت من صلاتي وجدت قيسًا يتحدث إلى هارون بينما يربط عنان جواده مع جيادنا صِحت وأنا أتقدم ناحيتهما:

- ما وراءك، لِمَ لحِقتَ بنا؟!

- تَبين أن عبد الرحمن هو القاتل.

أشحتُ ببصري بعيدًا، وقد أخذتْ مني الدهشةُ مأخذها وبلغتْ مِني الحيرة ما بلغت:

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصرت أبحث عن متكئ إذ لم أعد قادرًا على الاستواء في وقوفي، أسندتُ ظهري لِجذع نخلةٍ قريبة ومددتُ ذِراعي فوق ركبتي وسرحتُ بعيدًا في سكون وكأن غيظي بهذا السكون يلتقطُ أنفاسه ويقضي دهشته ويجمع شتاتًا ويتهيأ لمحاربة الجميع، الجميع دون استثناء!

***

وصلت للمدينة التي كانت عاتكة تقطن فيها مع ليث، وبعد بحث طويل وسؤال كثير كان الجميع لا يعلم عنهم شيئًا أو لا يتذكرهم أصلًا، أخيرًا اقتربتُ من ضالتي حين أجابني أحدهم:

- أجل أنا أتذكره، وأعرفه جيدًا، كان رجلًا خارقًا تصدر مِنه الأعاجيب التي ما كانت تُطيقها العقول، كان يطوي المكان ويخرقُ الزمان، إنهُ عالمٌ بالحالات الروحية والنفسية، ولو سُئل عن أي شيء لأجاب ولو أراد أو شاء لأمكنه تقديم تقرير مفصل عن كل واحد فينا.

- أجل، سمِعتُ شيئًا كهذا، سمعتُ أن ليثًا صار عرفانيًا.

- أقسم أنه هو، كل المواصفات التي ذكرتها تنطبقُ عليه لا يُمكنني نسيان شخص مثله أبدًا.

- وأين هو؟؟ أين يُمكنني إيجاده؟!

- لقد قُتل!

جثمت على قسماتي الصدمة وخابت آمالي بينما أكمل الرجل سرده:

- ولم يُدفن هُنا، بالكاد عرفت موضع قبره؛ لأني بحثتُ كثيرًا، أستطيع أخذك لقبرة، دائمًا كُنت أرى امرأة هناك عِند قبره أظنها زوجته.

فز قلبي فتبعته أنا وهارون وكنت أسأله طوال الطريق؛ لأصدق وأطمئن أن تلك المرأة هي أختي، قال:

- إن أردت مقابلتها فراقب القبر من بعيد، وتوارى عن الأنظار وستأتي بالتأكيد لكن لو انتظرتها قرب القبر فلن تظهر أبدًا.

......

وقفت من مكان بعيد أنا وهارون نُراقب القبر وننتظر وطال الانتظار، قال هارون متذمرًا:

- لن تأتي صدقني.

- ستأتي.

- لو كانت ستأتي لأتت منذ حين، إننا على هذه الحال مُنذ ثلاث ساعات، أصبحنا كالشجرة هُنا.

- تستطيع الذهاب إن أردت فأنت شيخٌ كبير، اعذرنا على ما سببنا لك من متاعب.

- أنا شيخٌ كبير! وماذا عنكَ؟

قُلتُ بينما عيناي على الطريق تترقب عاتكة:

- أنا لم أشتَك.

التفتُّ إليه مُستأنفًا:

- كما أنني لستُ مِن عمرك، أنت فِعلًا بحاجة للاستراحة.

أطلق تنهيدةً تنمُّ عن عدم الصبر، ما إن التفتُّ ناحية القبر عقدتُ حواجبي فقد خُيِّل إليَّ شيء أسود يتحرك عنده دققت النظر وإذا بامرأة مجللة بالسواد هزيلةٍ للغاية وطاغيةِ الحزن تجلس هُناك تساءلتُ بتوجس:

- أهذهِ هي عاتكة؟!

هُنا فزّ هارون الذي كان آيسًا من قدومها والتفت ينظر معي:

- أهذه أختك؟!

- أنا أيضًا لا أعلم، سأذهب إليها.

تقدمت وقلبي يخفق بشدة، كأنه يقرع أضلعي، حتى هبات الرياح اللطيفة كانت تهبط عليَّ كالسهام، لم تنتبه لي وقفتُ وانحنيتُ أمامها:

- عاتكة؟!

رفعت رأسها وبملامح مُروعة ارتبكت وصارت تتحسّس الأرض بحثًا عن عصاها الملقاة جنبًا...

قد بلغت الغصة حلقي فهي عمياء تغطي عينيها الجميلتين غشاوةٌ بيضاء قد اقشعر لها بدني!

أخذت عصاها ونهضت بارتباك، وكأنها أرادت مهاجتي بتلك العصا إلا أنها وقعت من يديها وكادت تقع هي أيضًا لو لا أنني قدمت

إليها ذراعي؛ للمساعدة، لكنها نفرَت للوراء بغضب شديد وصارت تضرب ذراعي وهي تبعدهما:

- ابتعد عني، إياك والاقتراب.

حاولتُ تدارك الأمر والاقتراب بهدوء:

- عاتكة هذا أنا.

لا زالت تبتعد خائفة وتهاجم بشراسة حين أنوي لمسها:

- ابتعد عني أنا لا أعرفك من أنت؟!

هجمت عليَّ الأحزان وبان عليَّ الانكسار قُلت ببَحّة والدهشة تعلو ملامحي:

- هذا أنا، عِمران.

عقدت حاجبيها وكأنها تتذكر شيئًا بعيدًا وسكنت روعتها وهدأت جلبتها وانقطعت هجماتها ولفَّنا صمتٌ رهيب وهبّت ريحٌ خفيفة، هطلت دموعي ومدت هي كفها تتحسّس قسمات وجهي وتهمس:

- عِمران!.

أجهشتُ في بكائي وأخذتها لأحضاني، أخذتها لداخلي الذي أبعدتها عنه سنينًا طويلة عبثت بها بل أخذتها ولم ترجعها أبدًا، كُنت ألفُّها بِذراعي بينما تُسبِلُ هي ذراعيها، أرخت أكتافها وأراحت رأسها على صدري ثم عانقتني بهدوءٍ بارد.

* * *

(11)

ماريا

سألني أبي ومحمد:

- ماذا فعلتِ؟

- كيف استطعتِ الخروج مِن هناك؟ وماذا قُلتِ؟

قلتُ وأنا ألهثُ وألتقط أنفاسي:

- سألني وعيناه تقدحان شررًا: "مَن هو؟!". رفعتُ يدي أحاول تشتيت ارتباكي بتثبيت حجابي إلا أن ارتجاف يديَّ بدا جليًا حيث إنه لفت انتباهه، نظرتُ إليه وكدتُ أبكي من شدة الخوف والورطة، قُلت بتلعثم: "إننا نظنُّ أنه شخص يسكن المدينة التي أتى منها عِمران لكننا نحتاج المساعدة للتثبت من ذلك".

قال أبي على عجل:

- حسنًا حسنًا، هذا جيد عودي لبيتك الآن كي لا يفتقدكِ زوجكِ.

والتفتَ إلى محمد وقال بخشونة:

- وأنت اغرُب مِن هنا قبل أن يراك أحد معنا فيقوم ذاك اللعين بقطع رأس ابنتي حينها؛ هيا اغرُب!

......

ليلًا، هاجمتني الكوابيس، تصبّب جبيني عرقًا، وهذيتُ باسم محمد، فأيقظتني يد مروان الخشنة التي انقضّت على عُنقي وأفقدتني النفس!

فزعت ولم أستطع النهوض؛ فقد كُنتُ أنظر إليه بحدقتين متسعتين تكادان تخرجان من محجريهما وهو ينظر إليَّ بعينين غاضبتين تقدحان شررًا.

مددت يدي أحاول إبعاد يده التي تقتلني في فِراشي لكنه صفعني باليد الأخرى صفعة قوية أدمت شفتيَّ وانهال عليَّ بالضرب في جميع أنحاء جسدي كان يقتص مِني فقط؛ لأني رأيتُ محمدًا في منامي لم يتركني إلا بعدما بقي لي رمق واحد فقط من الحياة، وبقيت مكاني كجثةٍ هامدة بينما ألقى هو بثقله على الجانب الآخر من السرير وهو يلهث كالثور ويحاول التقاط أنفاسه.

......

خرجتُ بعد يومين وآثار الضرب تملأ بدني، نادتني زوجتهُ الأولى "زهرة" إليها وهي تجلس واضعةً قدمًا فوق أخرى:

- يا فتاة، تعالي إلى هُنا.

تقدمت نحوها فأمسكت ذقني وصارت تُقلب النظر في وجهي وتقول بجمود وبرود:

- هل ضربكِ مروان؟!

- أجل لتُشلّ يديه اللعينتين.

اتسعت أحداقها ورمت بوجهي وهي تنهض وتقول:

- الله أعلم ما الذي فعلتِه وأغضبتِ الرجل حتى أوصلك لهذه الحالة.

استدرتُ ناحيتها:

- ماذا؟! أنتِ لا تعرفين زوجكِ غالبًا، إنهُ قاتل مجرم لعين، يقتل العُلماء والصالحين ويمشي في جنازتهم ويأخذ أحبة الآخرين، ويحاول تملكهم بالباطل والقسوة! أأصبحنا نحن المذنبون في حقه الآن؟!

لم تُجبني وإنما وجهت إليّ نظرة استحقار ودخلت للدار، حينها أتتني أم عمرو، وهي تلطمُ خدها وتقول:

- أنتِ ما الذي فعلتِه؟! لماذا قلتِ لها هذا؟ كم مرةً نبّهتك ألا تتكلمي عن مروان أمامها فهي غير مأمونة!

- لكنها تحدثت معي! ألم تقولي إنها خرساء؟!

- أيتها البلهاء أعني أنها خرساء معنا فقط! إنها لا تتكلم أبدًا إلا معه، لا أسمع إلا همهمتها في أنصاف الليالي.

- غريب!

أسرت إليّ بهمس بعدما تلفتت حولها:

- وقد سمِعتُ مرةً أنه هو الذي ربّاها مُذ كانت طفلةً صغيرة، ووقع في غرامها بعد ذلك وتزوجها.

- مروان يحب؟! هه أكان يمتلكُ قلبًا؟!

- كان متزوجًا بها قبلي بـ 15 عامًا.

- ولماذا تزوجِك ما دام يحبها؟

- لأنها لم تنجب له، ههه تزوجني من أجل الأولاد وتزوجك من أجل جمالك! أما هي! فحُب القلب والروح.

***

مروان

حين تعاركت مع عِصابتي وانفصل عنا طارق إثر مهاجمتي له كان قد ترك شيئًا، لم أنتبه له إلا حينما رجعتُ إلى الكوخ وهو يخلو من الجميع، حيث سمعْتُ صوت طِفلة رضيعة تبكي!

قُمت أتَبَعُ الصوت حتى وقفتُ عِند عتبة الباب أنظر إليها مشدوهًا عندها تمتمتُ: "طارق أيها اللعين".

لم أعرف ما أفعل، كُنت قد عهدت بها إلى طارق اللعين ها قد تركها لي، كان الغضب وقتها قد استحكم عليَّ، رميتها على قارعة الطريق وأنا أتمتم بغضب: "أتعتقد أنك بهذا ستعاقبني يا طارق!! أسهل ما قد أفعله، هو رميها والمضي قدمًا، أكنت تحسب أنك برعايتها تصنع شيئًا!!! ستظلُّ تافهًا عديم النفع والفائدة".

امتطيت فرسي تلك الليلة قاصدًا العودة إلى القرية، وبينما كُنت ألكز فرسي وأسابق الريح التي تداعب شعري المتطاير أصابني شيءٌ ما، جعلني أُديرُ الفرس وأعود، ومُجدَّدًا أقف مُحتارًا أمامها، كانت قد حلت

قِماطها من فرط البكاء، حملتها بين ذِراعيَّ فهدأت وهُنا رقَّ قلبي، لم أستطع تركها ولا أستطيع مواجهة أبي بالأمر، اضطررت للبقاء معها أيَّامًا في الكوخ، اعتنيتُ بها رغم أني لا أفقهُ في رعاية الرُّضَّع شيئًا، بعد ما طال غيابي وتوجّبت عليَّ العودة ذهبتُ لمكان بعيد، بعيد جِدًّا وهُناك وجدتُ امرأة وحيدة عهدت إليها برعاية الطفلة وأعطيتها ما معي من مال وعُدت أدراجي لكن بعد أسابيع انتابني الفضول حيالها فرجعتُ أطمئن عليها، وهكذا الحال حتى كبرت وصارت تعرفني وتأنسُ بي وتنتظر قدومي وكانت تُناديني بأبي:

- كلَّا، أنا لستُ أباكِ، أنا مروان.

- أبي مروان.

- أنا لست أباك! اسمي مروان فقط.

سحرتْ عيني تلك الطفلة ببراءتها، وصِرتُ أتأمل عينيها الواسعتين اللتين ترنوان بعيدًا، وهي تفكر بيا شرحته، صارت تضحك وتنظر في عيني وتسأل بحماسة:

- ومن أنا؟ وما هو اسمي؟!

احترتُ قليلًا ثم قُلتُ:

- أنتِ، زهرةُ حياتي.

احتضنتني وهي تقول:

- أنا زهرةُ حياتك!

ضحكت وأنا أضمها إليَّ وأجيب:

- أجل أنتِ كذلك وما عداكِ شوك يا عزيزتي.

نظرت إليَّ:

- نحن لا نريد الشوك.

ضحكت منها وأنا أسايرها وأقول:

- أجل لا نريدهم.

قطّبت حاجبيها وقالت:

- لا نُحبه.

- لا نحبهم..

- نحنُ نُحِب بعضنا فقط!

......

كانت صغيرةً جِدًّا، وكنتُ أعهد بها لتلك المرأة تعتني بها ريثما أعود طيلة سبع سنوات، وعندما بلغت الثامنة علَّمتُها كيف تعتني بنفسها في فترات غيابي دون الحاجة لأحد، ومنذ ذلك ولا بشر أبدًا في حياتها سواي!

أخفيتُها عن الجميع طيلة سنوات لم يُكتشف أمرها إلا بعد أن تعقبني أبي وعرف المكان وحين اقتحمه لم يجد سواها...

كانت قد كبرت واشتد عودها وأصبحت حسناء جميلة ذات أربعة عشر ربيعًا، تقدَّم مستغربًا وصاح في وجهها بعد أن أدار ناظريه في المكان بحثًا عني:

- مَن أنتِ؟! أين مروان؟!

انكمشتْ على نفسها وردَّتْ بتردد وخوف:

- لا أدري.

صاح بقوة:

- سألتُ مَن أنتِ؟ ألا تدرين مَن أنتِ أيضًا؟

بتلعثم:

- أ، أنا زهرةُ حياته!

صرخ صرخة جعلها تُطبق حاجبيها على أجفانها:

- مَن؟!

- مروان، مروان! أنا زهرةُ حياةِ مروان.

في الوقت الذي كنت قد وصلت فيه ورأيت الباب مفتوحًا تقدمت ورأيته يهم بضربها فصحت بأعلى صوتي:

- لا تلمسها وإلا قتلتك!

التفتا ناحيتي فيما شهقت زهرة حياتي وركضت مُتشبِّثة بأحضاني

فيما لا أزال أرمق أبي بنظرة حادة، انحنيتُ إليها وهمست بعطف:

- لا تخافي.

رفعت عينيها وسألتني بهمس:

- مَن هذا الرجل؟!

- إنهُ أبي!

عادت تنظر إليه وهُنا تقدم أبي وقال موبخًا:

- أتترك أعمالنا ومشاغلنا المهمة وتختلي هُنا لِتمارس طقوس الغرام يا ولد؟! أغبيٌّ أنت؟! مَن هذه؟ أين أهلها؟!

همست لها:

- اذهبي لغرفتك الآن.

ولَّت مسرعة وحينما بقينا أنا وأبي كرر قائلًا:

- أجل أنا أنتظر توضيحًا، مَن هذه؟!

تقدَّمتُ وجلستُ على الكرسي وقلتُ:

- أظنها أخبرتك بأنها زهرةُ حياتي.

أدار وجهه محوقلًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

اقترب مني وأحنى وجهه لمستوى وجهي:

- بُنيَّ! حسنًا لقد فهمنا أنها عشيقتك، لكن أين أهلها!؟

- أنا أهلها.

- أصابك الجنون أم ماذا؟

- أنا حقًّا أهلها، إنها لا تعرف سواي في هذه الدُّنيا.

- وما دام كذلك لِمَ أخفيتها؟! كنت أتيت بها وأعلناها زوجةً لك وانتهى الأمر، وعندها تقوم بأعمالك نهارًا وتعود لها ليلًا دون الانشغال عن كل شيء بالانقطاع إليها هُنا، فوق الجبل.

نهضت وتقدمت نحوه:

- حقًّا! حقًّا أستطيع يا أبي؟

- ولِمَ لا؟! ما دامت وحيدة لا أهل لها؛ لم أكن أعرف ما الذي قيدك حتى الآن أساسًا.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

وهكذا أصبحت زهرة حياتي زوجةً لي، حتى الآن!

***

محمد

كان تَرْكِي للزبير دون مفاهمة أمرًا غير ممكن بعد الأحداث الأخيرة.

- هلا أخبرتني لِمَ التزمت الصمت رغم معرفتك بكل شيء؟؟ إنك ترانا نتخبط أمامك ذهابًا وإيابًا، وكنت على دراية بكل شيء، ولم تفتح فمك وكِدت تودي بحياة ابنتك.

صاح بغضب:

- مَن منَّا كان سيودي بحياتها...؟!

قاطعته بإيماءة مِن كفّي:

- هذا ليس وقت جِدال، أنا أريد سببًا حقيقيًا للصمت، هلا أجبتني؟!

قال وهو يهرِّب عينيه من عيني:

- ها قد علمتم بكل شيء لا يوجد ما أعرفه الآن أكثر مما تعرفون.

عاد ينظر في عيني بقوة وثبات وقال:

- وفي الواقع أنا لم أظنكم بهذا الغباء، بالله عليك! عبد الرحمن؟؟ كيف فكرتم في طلب مساعدته، بأي عقل؟! كيف سيتضامن معكم؟

- وما أدرانا؟ طالما كان صديقًا وفيًا وشيخًا مُلازمًا للشيخ هادي، كان من أعز أصحابه!! بعد كل تلك السنين أجل كانت له مواقف لا تعجبني في القرية كصمته المستمر على ما يجري من فِسق وفُجور أو فتاويه المريبة ولكن، لم أتصور أن تكون له يدٌ في تِلك الجرائم.

- وماذا عن الحريق؟! أولم يكن هو من أعطى الإذن بإحراق دارهم فور وفاة والدهم؟!

- نحن نعرف أن مروان من فعل هذا.

رد بانفعال:

- لكن ما الذي قد يدفع بصبي في عمر مروان آنذاك لهذا، لهذا العداء والقتل! لا بُد أن أحدًا وراءه، القاتل ليس مروان لكنه كان طريقكم الوحيد إليه، وبجنونكم خرَّبتم كل شيء.

- لا تتحدث وكأنك معنا!

- لكني لستُ ضدكم!

- بلى، أنت كذلك.

بلع زُبير ريقه وتبدلت ألوانه أظنه قد شعر كم أن الخوف من الظالمين يورثُ المذلّة!

قلتُ:

- إن لم تكن كذلك فساعدنا على الأقل لنُثبت للناس إدانة عبد الرحمن.

- كيف؟

- هذا ما يجب أن تعلمه أنت!

هامَ في ضباب الذاكرة ثم قال:

- لا أعلم إن كان هذا سينفع أم لا، ولكن جرِّبْ!

- قل...

- عندما كُنا في المغتسل نستعد لتشييع الشيخ هادي لم يكن عبد الرحمن قد حضر ولا أحد من الوجهاء حضر أيضًا! وكُنا سنُشيعه على أية حال لكنهم استمهلونا، أعني عامةَ الناس فقد أثار غياب أصحاب الشيخ هادي عن جنازته استنكارهم وكان هناك من ركض؛ ليخبرهم ويأتي بهم لكنه عادَ وحيدًا ولم يأتِ أحد..

- لو استطعنا إيجادهُ وعرفنا منه سبب عودته وحيدًا.

- قد يكون ذلك دليلًا إضافيًا.

- علينا البحث عنه.

......

ولأن الزبير يعرفه فلم نجد صعوبة في الوصول إلى بيته لكن المفاجأة كانت جواب من فتح لنا الباب:

- إن أبي مُتوفٍّ منذ سنوات.

وعِندما لاحظ اليأس الذي خيّم على رؤوسنا قال:

- لكن أخي الأكبر موجود! أنا لا أعلم ماذا تريدان من أبي لكن أخي قد ينفعكما.

انتظرنا أخاه في الدار حتى هبط الليل غدرًا، كل منا يغرق فيما يفكر به وعندما جاء الأخ المُنتظر أخيرًا نظر إلينا باستغراب وعدم ترحيب لكنه تقدم نحونا بابتسامة:

- مرحبًا، هل بوسعي أن أساعدكما؟

مد الزبير يده مصافحًا فنظر الآخرُ إلى يده للحظة قبل أن يصافحه بفتور.

وكان كل ذلك كافيًا لنفهم أنه من الجُبناء لكننا ومع ذلك سألناه فما كان غير الطرد لنا جوابًا.

قال وهو يصفع الباب بعد خروجنا:

- لا أنقصُ غربلةً في حياتي.

تمتمتُ: "يا لك من ملعون". فيما التفت إليَّ الزبير مُتأثرًا:

- من الصعب أن نجد من يؤثر انتصار الحق على نفسه وحياته.

- أجل فكل الناس مثلك تمامًا؛ إلا القليل ممن وفى لرِعاية الحق.

- كُفّ عن هذا.

قلت وأنا أمضي في ظلمة الليل مُبتعدًا عن باب البيت الذي طُردنا منه:

- أولستُ على حق؟!

لحظات قليلة وإذا بي أسمع صرير الباب فالتفتُّ وظهر وجه الابن الذي فتح لنا أول مرة يُنيرهُ ضوء المصباح الذي في يده، قال وقد علا وجهه الخجل من فعلةِ أخيه:

- أنا أستطيعُ المساعدة؛ أعرف هذه القصة، سمعتها من أبي ولو أنكما أخبرتماني منذ البداية لأجبتكما دون الاضطرار إلى أخي.

تقدم وتبعناه إلى مكانٍ بعيد وجلسنا حول المصباح في سكون الليل:

- ("اللّهم صديقًا يقرأ القرآن عِند قبري حين يُغادِر الجميع". كانت هذه دعوةُ أبي الشهيرة وكان يقول إنّ الموت هو النسيانُ ليس إلا! إذا ملكتَ من يذكرك؛ لن تموت أبدًا.

إنهُ متأثرٌ من حادِثةِ موت شَهِدها وقصَّها علينا، قال إنَّ هذا الرجل الوجيه غاب أصدقاؤه عن جنازته فذهب ليخبرهم علَّهم لا يعلمون بأن التشييع سيبدأ!

كان العُمدة يجتمعُ في مجلِسه بِكبراء القرية وبعضٍ مِن شيوخ المدرسة من بينهم عبد الرحمن، وكان هذا الحديث يدور في ذلك المجلس:

- لقد رحل الشيخ هادي وترك أمامنا مسؤولياتٍ كبيرة يجب علينا تنظيم سير الأمور مِن بعده ومُنذ هذه اللحظة وإلا فسد كل شيء، عبد الرحمن ستتولى أنتَ صلاة الجماعةِ وأمور المدرسة كاملة فأنت مُلمٌّ بها كونك تلميذًا مُجتهدًا.

- أجل يا حضرةَ العمدة، كما أنني بدأتُ بإلقاء دروسي الخاصة أيضًا بفضل الشيخ هادي...

قاطع اجتماعهم دخول أبي لاهِثًا:

- لقد بدأ تشييع الشيخ هادي يا سادة.

التفتوا إليه بعدم اكتراث، أجابه أحدهم:

- نحنُ هُنا نتحدث في أمور مهمة جِدًّا وقد قاطعتنا.

أكد عبد الرحمن:

- إننا نضعُ قوانين جديدة لِحفظ المدينة مِن التفكك والانهيار فهي أمانةُ الشيخ هادي في أعناقنا بعد الآن.

بعد أن تراجعت خطوات أبي إلى الوراء خجلًا حتى اختفى أكمل الجماعة توزيعهم لمهام الشيخ هادي ونقاشاتهم في بعض الأمور...

حسنًا أنتم تؤمِّنون على القرية لكن ماذا عن صاحِبكم! ألا يستحقُّ وقفة وداعٍ أخيرة!

تقلّص وفاءُ الكونِ واضمحلَّ في عين أبي مُنذ ذلك اليوم وكان يقول: "دنيا لم تفِ لعالمٍ جليل أَوَتفي لنا نحن المساكين!!).

***

لم تنطلي على عبد الرحمن خدَع ماريا للخلاص منه فزرع الجواسيس في كل مكان وكثفهم في بيت مروان دون علمه حتى!

ماريا

ما زلتُ أعاني التعب والأعياء رغم مُضي أيام ليست بالقليلة بعد تلك الحادثة وفي مساء كان يخلو به البيت من أي أحدٍ سوى زهرة زوجة مروان فقدتُ السيطرة على أطرافي وصرت أتكئ على الجدران محاولة الوصول لغرفتي لكنني لم أشعر بعدها بشيء.

حينما استيقظت وجدت نفسي في فِراشي وزهرة عند رأسي تقلب كفيها على جبيني بشيء لم أعهده مِن اللطف فيها، ما إن انتبهت لعودتي حتى قلبت ملامحها للحدة ونهضت من السرير تُغادرُ الدار بمشيتها تِلك، دائما تمشي بغرور، ناديتُ بصوت ضعيف غالبه الإرهاق:

- توقفي.

أدارت نصف وجهها وبنظرة مُتعالية قالت:

- أرسلتُ في طلب القابلة ستأتي لِمُعاينتك بعد قليل.

بعد لحظات من خروجها لحقت بها لصحن الدار وكانت تجلس عند نافورة الماء تُداعب الماء بيديها الرقيقتين التي لم تمَسس العمل يومًا على ما يبدو.

تقدَّمتُ أجرُّ خطاي بصعوبة وجلستُ بقربها أنظر إليها بينما تتشاغل عني برمق الأفق.

- لستِ كشخصٍ يُحب مروان.

التفت إليَّ التفافة سريعةً غاضبة مستنكرة فوضحتُ:

- لا يبدو عليكِ ذلك، ما تُخبئينه من الطيبة بادٍ عليكِ.

صاحت بنبرة هازئة يغلب عليها الغضب:

- أكل هذا لأني لم أدعك تموتين على الأرض في صحن الدار منذ قليل؟!

- أحقًا تُحبّينه؟!

نظرت إليَّ لثوانٍ ثم ضحكت بسخرية وهي تهز رأسها:

- وماذا تفهمين من الحُبِّ أنتِ؟!

- الجميع يعرف الحب.

- إن كُنتِ ستحبين بطلًا نبيلًا كامل الأوصاف فهذا ما يعرفه الجميع ويمارسونه بسهولة!

ارتفع حاجبي:

- هذا يعني أنك تُدركين جيدًا أن مروان عكس هذا، بل هو إقرارٌ بأنه مجرمٌ لعين ويصعب على مَن يمتلك فطرةً إنسانية سليمة محبته!

- تحدثي بحقه جيدًا وإلا قطعتُ لسانك واغربي عن وجهي.

في هذه الأثناء دخلت القابلة برفقة الجارية التي ذهبت تصطحبها.

* * *

مروان

عُدت لبيتي مُتأخرًا ولم أرغب في رؤية أحد سوى زهرة؛ فالكثير من الأمور كانت تتزاحم في داخلي وتشغلني وهي فقط راحتي مِن هذه الدُنيا، في دارها كانت تجلس ملتزمة الصمت، ولم تبتسم لي! على غير العادة، اقتربتُ ناحيتها بعدما غيرت لِباسي جلستُ على الأرض أمامها فيما كانت تجلس هي على الفرش، أملت رأسي وسألت:

- لِمَ أنتِ مُطرقة بحزن؟!

ابتسمت وهي تهز رأسها وتعبَث بشيء بين كفيها:

- لستُ حزينة.

نظرت في عيني أخيرًا وهي تقول:

- يبدو أنه وقع على عاتقي أن أزفَّ لك البشرى هذه المرة أيضًا.

- ماذا؟

- إنها حُبلى.

فتحت فاهي:

- مَن؟

- ماريا.

تغير وجهي وصددت به عنها.

- ما بك؟ لماذا نحَّيتَ بصرك عني؟ أَخِفْتَ أن أقرأ في عينيك شيئًا تُخفيه؟

قُلتُ بتلكُّؤ:

- إنها حاملٌ بِطفلٍ لكنها تُحِبُّ ذلك الزنديق وتهذي بِهِ ليلًا.

الأحاديث التي تدور في دار زهرة مُختلفة تمامًا فأنا أمامها ومعها لا أُشبه ما أنا عليه في الخارج، دسستُ رأسي بين ركبتيها باكيًا ثم رفعتُ رأسي ونظرتُ في عينيها:

- لقد جربتُ معها كل الأساليب ولا شيء ينفع، لن تُحِبني مهما فعلت، وقد رمت بالزهور التي أعطيتها إياها أرضًا كما لو كانت قمامة!

احتضـنـت وجهي بكفيها وصـارت تمسـح على لحيتي التي خالطها الشيب وتسأل:

- أتُحِبُّها؟

سكتُّ.

- تُحِبّها يا مروان؟!

- ليس كما أحببتكِ.

- دعكَ مِنها إذن فأنا أُحِبُّك.

- لم تفعلي بإرادتكِ، كُنت مجبرة عليَّ ولم تري غيري، كلما أتخيل لو أنك عِشْتِ حياة سوية بين البشر وقابلت الكثير وفضلتِ رجلًا آخر عليَّ وددت أن أقتلك وأدسّ خنجري في صدرك وأستخرج قلبكِ، لكني، لا أستطيع إيذاءك أبدًا.

مددت يدي أمرر منها خصلة من شعرها البندقي الطويل وأقول:

- يداي لا تطاوعني حتى بمسّ شعرة منكِ بسوء.

أحنيتُ رأسي وأغمضتُ عيني أشم الخصلة بين يدي وأُقبلها.

رفعتْ وجهي إليها بلمسة حانية من كفها وقالت بإشفاق وخوف متدفقين من عينيها:

- تِلك الفتاة ستتسببُ لك بِنهايةٍ فظيعة، اتركها.

- لا عليكِ، هي تحت سيطرتي.

هزت رأسها:

- أنت لا تعلمُ شيئًا.

قبلتُ راحة يدها وقلتُ:

- لا تخافي سأقلبُ كل شيء عليها هي ومن معها.

***

ماريا

في حُضن زهرة يهنأُ مروان بنومٍ عميق بينما تبتلعها دوامة الأفكار طويلًا وتقطع كل سبل النوم عنها، وبعد تفكير مَلِيّ أبعدتهُ قليلًا لتنظر بنفسها وتتأكد من أنه نام نادتْ بخفوت: "مروان!". وعندما لم يستجب اطمأنت وتسحّبت من الفراش بهدوء، تسلّلت داخل البيت كاللصوص وتأكدت من أن الجميع قد خلد للنوم، حتى وصلت لداري كُنتُ وسط نشيجي متمددة في فراشي عندما دخلت وهي بثياب نومها جاءت ناحية الفراش مُسرعة وهي تقول:

- أنتِ تبكين هُنا...؟

- كيف لا أبكي وأنا أحمل بذرة الشيطان في داخلي.

نزعت عني الغطاء على عجالة وقالت:

- قومي واهربي وتخلصي من هذا الطفل أو افعلي ما تشائين.

قمت واستويت في جلوسي على الفراش حاولتُ تهدئة نشيجي وأنا أقول مستغربة:

- ماذا تقولين، ما الذي تعنينَه؟

- مروان نائم والبيتُ آمن والطرق سالِكة هيا اهربي.

- لكن إلى أين أذهب؟

- أغبيةٌ أنتِ؟! أنا أعرض عليك الهرب اذهبي إلى الجحيم. اهربي مع حبيبك أو اذهبي حيث تشائين، اغربي فقط من حياتنا.

أطرقتُ برأسي:

- تعلمين جيدًا أنني لا أفعلُ هذا، لا يُمكنني الهربُ مع محمد.

أشاحت بوجهها مُتململة وهزت رأسها في تذمر، سألتها وأنا أرى توتُّرها:

- لم أنت مصرةٌ على مساعدتي؟

ردت وهي تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا في عدم استقرار:

- أنا لا أفعلُ هذا من أجلك بل من أجل مروان أريد مساعدته هو، أريد إنقاذه من خطر مُحدق.

كنت أنظر إليها فاغرةً فاهي وأقول بدهشة:

- تحبينه إلى هذه الدرجة!

- فوق ما تتصورين.

نهضت واقتربتُ منها وأمسكتُ بكفيها محاولة التخفيف من حدَّة توترها:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- حسنًا اهدئي، أنا حقًّا أود الهرب والرحيل عن هذا البيت بعيدًا لكن أين عسايَ أن أهرب من مروان؟ كلتانا تعرفه سيجدني! أنا لا أحد لي غير أبي وأبي...

أدرتُ ظهري وأنا أُكمل:

- رجلٌ عجوز ضعيف يخشى التورُّط مع أمثال مروان.

لحقت بي:

- خذيه معك، اهربوا جميعًا، وأنا أعطيكم المال الكافي.

هززتُ رأسي وعُدت أمسك كفيها:

- ما دُمتِ تحبينه وتخافين عليه، لِمَ لا تساعدينه بطريق آخر يُنقذه من أخطار الدنيا والآخرة؟ رَجُلكِ متورّط بجرائم حتى وإن نجا منها في الدنيا فلن ينجو في الآخرة!

كانت تهز رأسها والألم يقلب عينيها حتى هربت من بين أجفانها دمعتين وهي تقول:

- ماذا أفعل؟!

- دعيه يعترف، فَلْيعترف ولْيَتُبْ وليصلح كل ما أفسد...

- أنا لا حُكم لي عليه! لا حُكم لي حتى على قلبه!

أطرقت بحزن وأكملت وهي تبتلع الكلمات لداخلها:

- اليوم أدركتُ هذا.

اقتربتُ منها ومسحتُ على وجهها بحنو أمسح دمعها:

- زهرة! تملكين حُبًّا عظيمًا وقلبًا طيبًا لا يليق بمروان.

استسلمت واكتفت بابتسامة باهتة، وبملامح شاحبة أرهقها الخوف استطردت في ذِكرياتها القديمة:

- كان يعودُ إليَّ مُتعبًا، مُثقلًا، يرمي برأسه في أحضاني وينام طويلًا وبعد ليلة طويلة كنا نعيش أسعد أيامنا، لقد كُنت وحيدة وهو البشري الوحيد الذي أراه وأعرفه وأترقّبه وأشتاق إليه، كانت حياتي تبدأ فقط حينما يأتيني، أما هو فقد كان مليئًا بالحياة لكنه لسبب ما كان مثلي، يرى الوجود دوني وكل شيء عدم وحينما يأتي إليَّ، كان يُضحِكني ويلاعِبني ويشارِكني صنع الطعام والأكل والحديث والأنس، وفي ليلةٍ مِن تِلك الليالي حين وضعت رأسي الصغير على ذراعه لأنام بدأ كعادته بسرد القصة قائلًا:

- كان يا ما كان في قديم الزمان.

قاطعتهُ:

- بعد القصة ستذهب؟

- سأذهبُ غدًا صباحًا.

- ألا يُمكن ألا تذهب أبدًا؟!

أحنى رأسه نظر إليَّ:

- لكني بقيت معكِ يومًا كاملًا بلَيلتِه.

- لا تذهب.

- لكن الخالة تشتاقُ إليكِ.

- أنا لا أشتاق لها.

- لماذا؟ أتعامِلكِ بقسوة؟؟

سكتُّ فقال:

- أخبريني لألقِّنَها درسًا إن أساءتِ معاملتك.

- كلا، لكنها لا تضحكني ولا تعانقني هكذا إن أردتُ النوم ولا تحكي لي القصص.

لم يُجب وإنما أكمل حكايته...

سكتت زهرة وخرجت من الدار مُسرعة ثم عادت وبيدها لعبة قديمة مصنوعة ببساطة متناهية من قماش أبيض وخيوط سوداء وأكملت حديثها قائلة:

- وفي المرة التي جاء بعدها كان يُخبئ لي وراء ظهره مُفاجأة، كانت هذه الدمية، كنتُ أقفز فرحًا وأظن فرحته لفرحتي كانت أكبر، حملني عاليًا وهو يضحك ملء السماء ويُقبلِني، جلس وأجلسني في حجره وقدم لي هذه اللعبة وقال:

- هذه كي تُعانيقها أثناء نومِك في غِيابي وتحكي لها أنتِ الحكايات.

هززت رأسي بحماس طفولي وتناولتُ اللعبة وها أنا أحتفظ بها إلى الآن بينما كُنتُ في السابعة آنذاك.

بعد هُنيهَةٍ من الصمت أخفضت عينيها بابتسامة ومسحت على خصلة من شعرها البندقي الطويل جدًّا وقالت:

- كان يُمشط شعري ويُحبه كثيرًا، لم يسمح لي بقصة طيلة حياتي، مروان كان كل دُنيتي.

- باختياره يا زهرة، كان كذلك، أما أنتِ فلم تكوني مخيّرة بل مُجبرة، أنتِ لم تري سواه ولم يظهر لك سوى وجهٍ واحدٍ بما يتلاءم معك وبما يُريده منك، لم تري وجههُ الآخر.

- بلى! رأيت.

***

محمد

في وقتٍ كانت فيه القرية غافية وكنتُ آنسُ بالقربِ المُقدس أصلّي الليل وأقرأ القرآن وأدعو وأُرسِلُ تراتيلَ ملء السماء وقد ملأتني دموعٌ لو نفدَ البحر لما نفدَت،

بعد طقوس العشق الإلهي الخاص بي تهيأت وتلثّمت وخرجت بعد أن تأكدت كعادتي أن الطريق يخلو من المارة، التقيتُ بقيس الذي عاد من سفره لنكمل ما بدأناهُ معًا وكان معه وهب أحد رجال الشيخ هارون.

في ظلمة الليل كنا نمشي متوجّسين متلثّمين نتلفّت في كل مكان قبل أن نتقدم خطوة، كان يجب علينا أن نبلغ الجسر قبل طلوع الشمس، حينما ابتعدنا عن القرية سألتهُ:

- ماذا فعلت؟ أهناك أخبار عن عِمران وهارون؟

- التقيتهما في الطريق وأخبرتهما بأمر عبد الرحمن وعدت فورًا لا أعلم إن كانت رحلتهما قد أثمرت أم لا.

- آمل أن يكون قد وجدهم.

- إن شاء الله.

......

بعد مسيرة ساعتين بدا على رفيقيَّ الإرهاق وصارا يلهثان؛ قد كُنا راجلين وأخذ منا التعب مأخذه قلتُ مواسيًا:

- هوّنا عليكما بقي القيل.

- القليل هذا بقي على مبلغ الجسر.

- أجل.

توقف قيس قائلًا:

- بالله عليك فلنجلس لنستريح.

بينما كُنا كذلك رمى أحدهم سهمًا باتجاهنا مما أصابنا بالذُّعر وصرنا نتلفت، بعد ذلك أصبحت السهام تأتينا كرشق المطر، بحركة عاجلة

وضع كل منا سهمه في كبد قوسه وصار يرمي، توقف التَّراشُق بعدما أسفر عن إصابتين في ذراعي اليُمنى وإصابة طفيفة جدًا في ساق وهب، لم نعلم حتى الآن مَن كان المُهاجم.. ثواني قليلة سمعنا أصواتَ حَوافرَ تقترب نحونا كان الفارس مُلثمًا ترجَّل واقترب، دقّقنا النظر قال قيس بتوجّس:

- مَن!؟

فكَ لِثامه وقال بهمس وهو يقترب:

- هذا أنا زُبير.

سألت وأنا أمد عنقي؛ لأتأكد من الطريق وراءه:

- ما الذي أتى بك؟ أهناك خطب؟؟ الجميع بخير؟! عِمران...

كَم كُنت أود السؤال عن ماريا والاطمئنان عليها لكن لم أستطع وانتظرت أن يوضح بنفسه فقال:

- إلى أين أنتم ذاهبون هكذا!! لقد تم اكتشافُ أمركم وإنكم مُتَّبَعون.

- ماذا؟ كيف؟

- لقد هوجمنا قبل قليل.

- كلا كلا، ليسوا هُنا إنهم بانتظاركم عند الجسر.

قيس: من هاجمنا إذن؟

زُبير: لا شك أنهم قُطاع طرق.

سألت باهتمام بعد أن ربطت جرح ذراعي:

- وكيف علِمت أنت، بأننا مُتبعون؟!

- ماريا أرسلت إليَّ خبرًا.

بدهشة تعلو وجهي كنت أنظر إليه وأقول:

- وأنتَ أتيت!

بنفادِ صبر أجاب وهو يشق له طريقًا من بيننا ويتقدمنا:

- كُفَّ عن هذا الآن، لا يجب أن تسلكوا ذاك الطريق.

قُلتُ منفعلًا:

- لكن لا طريق آخر يأخذنا سواه.

- لم تقولوا حتى الآن أين تقصدون؟!

قُلتُ:

- أمُتأكدٌ مِن أنكَ لستَ جاسوسًا؟

أجاب بذهول:

- ما الذي تقوله؟!

- لِمَ عسايَ أن أثقَ بِك؟ فلربما هددك مروان بابنتك أيضًا كي تصبح جاسوسًا له علينا.

- سأرافقكم وتأكد بنفسك.

- وإن أسلمتنا عِند الوثبَة؟!

- لا حول ولا قوَّةَ إلا بالله، ما الحل برأيك؟ هيا تفضّل أنتَ قل.

ذهب واتخذ له مقعدًا وهو يقول:

- وهذه جلسةٌ حتى يحكم أحد بيننا.

ما كان مِني إلا أن تقدمت وجلستُ أيضًا وأنا أنظر إليه شزرًا وأتمتم: "لا يُمكِنُني المُغامرة بِهذا".

أما عن وهب وقيس فقد وجداها فرصة ذهبية لأخذ قسطٍ من الراحة!

بعد فترةٍ قصيرة من الصمت حركت شفتيَّ، والتفتُ إليه أهمُّ بالسؤال عن ماريا لكن شيئًا ما منعني فاكتفيتُ بتنهيدة مِسكينة أشحتُ معها بوجهي للناحية الأخرى.

......

بعد ساعة استسلمتُ ونويت إكمال الطريق فنهض زُبير يتبعني فجمدت مكاني وأغمضتُ عيني؛ لأتمالك نفسي والتفتُّ إليه بهدوء:

- سأسمحُ بمرافقتك لنا أو سأُذعِن بالأحرى لكن أقسمُ عليكِ بليث ألا تخدعنا.

- فلتطمئن يا محمد لستُ جاسوسًا، واعلَم أنك قد أقسمت عليَّ بغالٍ لا نظير له في قلبي.

- لنضعَ خطةً إذن قبل كل شيء؛ لتفاديهم والمرور من فوق الجسر بسلام، ماذا قالت ابنتك بالضبط يا زبير، هل أخبرتكَ بعددهم؟! ومَن هم؟!

- عددهم أربعة، ثابت غلام مروان فقط هو مَن استطاعت معرفته، أمّا الثلاثة الآخرون فهم عن طريق عبد الرحمن، ولم تعرفهم.

سأل قيس:

- الأسلحة التي بحوزتهم؟

- مجهّزون بالكامل.

سألتُ:

- وما هي خطتهم؟ ما الذي سيفعلونه عندما يظفرونَ بنا عند الجسر؟!

- تصفيتكم، هذه هي الأوامر، لكنهم يعتقدون أنك أنت وقيَس فقط على هذا الطريق.

هززت رأسي وأنا أسرح مُتمتمًا:

- إنها معركة.

استَقمتُ في جلوسي وقلت:

- مِن الجيد جدًّا عدم معرفتهم بعدّتنا الحقيقيّة، نحن الآن يجب أن نتخلص منهم قبل أن يفعلوا هم ذلك، خُطتنا هي تصفيتهم!

- لكن كيف؟

- سنَنقسِم إلى ثلاثة، وهب سيتقدمنُا مُتنكرًا؛ ليحدد أماكنهم بالضبط، وبعدها يَتبوأ له مكانًا يستطيع الرمي منه، وأنت يا زُبير ستكون في مكانٍ يُمكِّنك من الرمي في الخلف، وستبدأ أنت وبعده وهب، وفي أثناء انشغالهم بالسهام التي تفاجئُهم سنعبر أنا وقيس الطريق وبعدها سنفترق؛ لنرمي من أربع جهات متفرقة مجهولة بالنسبة إليهم، مفهوم!؟

- مفهوم.

- هذه هي الخطة (أ)، إليكم الخطة (ب)..

......

أخذنا نُجدُّ السير وعِندما علِمَ زُبير عن وجهتنا تسمَّر مكانه، نظرتُ إليه من وراء كتفي وهو يصيح:

- أجُنِنت...؟؟

نظر لوهب وقيس:

- إن كان مجنونًا، فماذا عنكما!! إنكم تقصِدون ساحرةً مُشعوذة وتنوون الدخول لأراضيها المليئة بالجن، أي قلوب تملكون في صدوركم؟!

رد عليه وهب بغرور:

- نحن رِجالٌ لا يعرف الخوف لنا طريقًا.

أكمل قيَس:

- ولو أشـــار لنا الشـيخ هارون بإصـبعه فقط لاقتلعنا عين تلك الساحرة وألفًا من أمثالها.

قال زُبير وعلامات الذهول تعلو وجهه:

- دعكما من هذا الآن، ماذا ستجنون بمقابلتها؟؟ ما الفائدة من سلكِ هذا الطريق المليء بالأخطار...؟! أنا حقًّا لا أفهم!

أجبتهُ بهدوء بينما أكمل طريقي ممسكًا بعصاي الخشبية:

- هُناك معارِفُ لا سبيل لاكتسابها وحقائقُ لا طريق لإدراكها إلا بالاتصال بها والالتقاء بها. أنا عازِمٌ على الذهاب، وإن كُنت خائفًا يُمكنك العودة، فابنتُكَ وحيدةٌ في القرية الآن، لا نحن ولا عِمران، إنها تحت هيمنة مروان المباشرة.

قلت ذلك وكلانا يعلم أن ماريا قوية بقدر نفسها، قال:

- ليس خوفًا ولكن! أنت تعرف ما معنى اضطرارِنا لِسلكِ طريقٍ نواجهُ فيه شياطين الإنس والجن معًا؟!

أجبته بصرامةٍ وأنا أجد السير بثقة عالية:

- أعرفُ هذا جيدًا، وعازم على المضي قدمًا.

فما كان منه إلا أن تبعِني، وعندما اقتربنا من الجسر وصرنا نراهُ على بعد أذرع قصيرة فقط تقدم وهب حسب الخطة وهو يرتدي جُبَّة ثقيلة

ويلفُّ حول رأسه قماشة يُخفي أغلب ملامحه، ويمسك عصا يهشُّ بها على أغنام أمامه، وتَبوّأ زُبير مكانًا عاليًا ورمى منه فأصاب ولحقة سهم وهب فاضطرب الجماعة وقاموا يردون بسهام عشوائية حيثُ لم يحددوا الهدف بعد، وأثناء اضطرابهم وانشغالهم مضينا أنا وقيس بعدما حاولنا التنكر قدر الإمكان، وهذا أيضًا مرَّ بسلام وكما خططنا له، وكلٌّ منّا أخذ يرمي من جهة، لكن المفاجأة الكبيرة والصدمة الساحقة كانت أنهم يزدادون فكلما أصبنا واحدًا رمُينا بعشرة! ومن بين الأشجار والنخيل التي نختبئ خلفها ظهروا لنا فرمينا الأقواس والسهام وأشهرنا السيوف وبدأ النِزالُ يحتدم وهُنا كان واضحًا أنهم لم يكونوا أربعة أبدًا فنحن الآن وبعدما صرعنا عددًا منهم نُقاتل ما يُقارب العشرة!

* * *

مروان

كُلما تخيلت وجوههم المصدومة من هول المفاجأة ارتفعت قهقهتي أكثر، لم أكن أستطيع السيطرة على ضحكي ولا التوقف، بينما يذرعُ أبي المكان مُتوترًا شابكًا يديه خلف ظهره ويتوقف ليسألني في كل دقيقة:

– أمتأكدٌ أنت من أنها سمِعتَ ذلك!؟

– أجل يا أبي أقسم لك، لقد تعمدتُ اختيار هذا الوقت؛ لأنني أعلم أنها ستقف؛ لتسترق السمع، كما أن خيالها تراءى لي من خلف الستار، وكما أنني كُنت أُطلّ عليها من زاوية النافذة وهي مستغرقة في كتابة الخبر

لوالدها وأنا بنفسي أمّنت وصول المخطوط إليه، يا لغبائها! تحسب أنها أحسنت صنعًا بينما كانت جزءًا من خطتي.

- حسنًا دعك من هذا الآن، هل لحق بهم الزُبير؟!

- أجل أرسلتُ مَن يُراقبه وأخبرني أنه خرج فجرًا.

بقدر ما كُنتُ مُرتاحًا كان أبي قلِقًا، ومن هنا أدركت أنهُ يُخفي عني شيئًا، لقد كان يُتمتم طوال الوقت: "يجب ألا يعود أحدٌ مِنهم حيًّا".

* * *

عاتكة

طوال الطريق الذي أسلكه مع أخي الآن كُنتُ أهيم في ذكريات طريق سفري مع ليث.

بعدما عرض عليَّ الزواج كان قد بقي أمامنا مسيرة ثلاثة أشهر ونصف لنصل إلى عِمران، وفي أول مدينة نزلنا فيها رتب كل شيء ووجد من يعقدُ قِراننا في نهارِ يومٍ كان أجمل أيام الكون مُنذ بدء الخلق وحتى الآن...

في الغُرفة الصغيرة التي استأجرناها في محطة استراحة القوافل وعندما خرج الجميع "الشيخ والشهود" من تلك الغرفة عاد ليث ليراني فقمتُ يسبِقني شوقي إليه، إلى الآن أتذكر خطواتي المرتبكة وأصابِعي التائهة وحدقتيَّ المتراقصتين في مقلتيَّ؛ إنهُ رجلٌ يُربِكُ في حضرتِهِ حتى أثقل الأشياء وأكثرها ثباتًا...

نظر إليَّ ولأوّل مرةٍ كشيءٍ عائدٍ له وابتسم وضمّني بقوةٍ إليه وأراحَ قلبهُ في صدري كمن يأخذ تنهيدةً طويلة بعد حياةٍ مريرة.

كان عِناقًا حارًا أذابني فيه؛ لَعمري كيف أصِفُ هذا؟ ما هذا الذي دبّ في عِظامي؟

أسَكرةٌ هذهِ؟ أم دغدغةٌ لِكل ذرةٍ في وجودي! أتُراهُ عروج الروح الذي يحكون عنه؟

إن ما انتابَني خلخَلَ جاذبية الأرض من تحتي!

طبع قُبلة على وجنتيّ وقال:

– سأذهبُ الآنَ وأعودُ ليلًا، اعتني بنور وبنفسكِ ريثما أعود.

قضيت وقتي مع نور، ولم أكن أعلم أنهُ في ذلك الوقت كان يعمل؛ لأنه لم يكن بحَوزته ما يجلب به الخبز، وبعد نهار طويل من العمل عاد وفي يده جبنٌ وخُبزٌ ساخن، وكان أفضل عشاء أكلته في حياتي، شبعنا وحمدنا الله وبدأ ليث طقوسه السماوية برفقة نور، وبعدما انتهى ونام نور أطفأ القنديل ودخل إليَّ، جلس قبالتي تمامًا يتأملني بابتسامة حانية مد يده يلمس وجنتيَّ ويُداعِبُ خصلة من شعري انسدلت عليها ثم بدأ يفك ضفيرتي ويفتلها حتى تهدّل شعري الطويل في مُويجاتٍ جميلة..

كانت ليلةً مُقمرةَ ملأ ضوؤها أركان الأرض.

......

بعد شهرين في أحد صباحات الربيع كان الهواء يعبق برائحة المطر ممزوجة برائحة جميلة تهبُّ من البساتين البعيدة، وكُنا نطوف نحن الثلاثة في شوارع المدينة التي نزلنا بها، ورحنا نجوب أزقّة السوق حيث تناهت إلينا صيحات الباعة الذين يروّجون لبضائعهم وغمغماتُ الزبائن من مختلف الأجناس والأعمار، وحيث يكدح حرفيون بصمت في بعض الدكاكين الصغيرة، كانت الشمس قد نشرت خطوطها؛ لتجعل كل ما تسقط عليه يبدو أكثر جِدةً وحيوية، ومن بين كل هذا كانت هُناك امرأة قد حطت أنظارها عليَّ من بعيد كانت تمشي بين زِحام المارين وتقصدني، توقفتْ أمامنا مُبتسمة ونقلتْ بصرها مني إلى ليث ومنه إليَّ وقالت:

- ما شاء الله، زوجكِ صحيح؟

أجبتُ وعيني تُخفي تساؤلًا:

- صحيح هو زوجي.

عندئذ وجهت حديثها لليث:

- كم تعطيني إن قدّمت لك البُشرى؟

سأل مُستغربًا:

- أيُّ بُشرى؟

أشارت إليَّ بعينيها مُبتسمة:

- زوجتك حُبلى.

تهلل وجهه فيما نظر إلى وجهي الذي تعلوه ملامح الخوف والعُبوس تجاهل ذلك وعاد يسألها مُبتسمًا في انشراح:

- كيف عرفتِ؟

- هذا بيننا نحن النساء.

واستطردت وهي تمسك بي من ذراعي وتجرّني نحوها:

- وإن أردت التأكد فلتأتي معي وأفحصها.

- هل أنتِ قابلة؟

- أجل.

......

خرجتُ من الغرفة التي فحصتني فيها بوجهٍ مُكفهرّ مُوشكٍ على البكاء، أمشي ببطء ثقيل نحو ليث الذي ينتظرني بحماس وفرحة لم أعهدها مُنذ موت أخيه، كانت القابلة تقف بجانبه وقد زفت إليه البشرى بعد أن وقفتُ في صفه بصمت التفتَ ناحية القابلة:

- أشكركِ يا أختاه وأسألُ الله أن يرزقكِ فرحة كما رزقني!

ادخل يده في جيبه مضطربًا وأخرج قطعًا نقدية نظر لها للحظات قبل أن يضعها في يد القابلة وهو يقول بحياء:

- هذا كل ما لديَّ.

تغيرت ملامحها بما ينم عن عدم رضاها بالمبلغ لكنها تصنعت الابتسامة، وهي تمسك درفة بابها كأنها تستعجل خروجنا وتقول:

- لا بأس، ليبارك الله لكما، في أمان الله.

خرجنا وكم كُنتُ أنانيةً حين لم أمهل ليث ليعبر عن فرحته بل قُلتُ مباشرةً:

- لم أعد أريد إكمال الطريق إلى عِمرانَ، فلنَستقرّ في مكانٍ ما من هذه الأرض ونُكمل حياتنا.

ردّ بِحدَّة:

- لقد تحدّثنا بهذا مليًّا، يجب أن يعلم أخوكِ بزواجنا، هذا زواج ولا يصحّ بَقاؤه سرًّا بيننا.

قُلتُ والدموع تجتمع في عيني:

- لكن الأمر يزدادُ سوءًا.

قطّب حاجبيه بغضب:

- ما هو السوء؟؟ أهو حملك؟ طِفلُنا أصبحَ سوءًا! أكثر شيءٍ يُريدهُ شخصٌ فقدَ عائلتهُ هو أن يستردها بطريقةٍ أو بِأُخرى، أكثر شيءٍ يُسعدهُ هو أن يكون لهُ عائلة مجددًا، بينما أنتِ، أنتِ مُنزعجة من الأمر.

- لستُ كذلك ولكن...

- لكن ماذا؟

- نحنُ لم نصل بعدُ إلى أخي ماذا لو فهم وأدرك؟ سوق يقتلني..

- لا تتحدثي كما لو أننا ارتكبنا جُرمًا محرمًا.

- لا تغضب وتزيد توتري، أنا لم أقصد ذلك لكن، حدث كل شيء بسرعة.

- يا هذه لقد تزوجنا! ما الذي كُنتِ تُريدين فعله غير هذا!

وأضافَ مُنفعلًا:

- ما كان باستطاعتي المَجيء بِك كُل هذا الطريق وأنتِ مُحرمةٌ عليَّ!

من فرط انفعاله لم يسمعني حين همستُ والدموع تملأ عيني: "اهدأ قليلًا".

بل أكمل حديثه الغاضب وهو يقول:

- وهذا ما يجب على عمران معرفته تمامًا..

هنا شهقت بعدما قُلتُ بضعفٍ:

- كلا أرجوك.

وعلى صخرة كبيرة في المكان الخالي من المارة خارت قواي وجعلتُ أغطي وجهي بكفي وأُشرِعُ في البكاء...

أشاحَ بوجهه وتنهد رافعًا بصرهُ إلى السماء فيما يضع كفيه على خاصرتيه

لحظات قليلة ولم يحتمل قلبه المُفرط بالحنان وأتى يجلس قربي على الصخرة ويُحيطني بِذراعه ويحني وجهه إليَّ:

- حسنًا هذا يكفي، لا تبكي يا حُلوتي.

أبعد كفي عن وجهي ومسح دموعي وهو يقول:

- لم أشأ أن أصرُخ عليكِ.

نظرتُ في عينيه بترجٍّ:

- لا تُخبر عمران بزواجنا أرجوك.

- عزيزتي، أنا رجلٌ وأفهم بحال الرجال، دعيني أخبره هذا أفضل.

وأنا أظن أني أفهم بحال أخي وأجد أنه سيقتلني فِي كِلتا الحالتين ولكن!

- لا تكرّري هذا؛ فلن يجرؤ أحدٌ على لمسكِ وأنتِ في حِمايتي، انسي الخوف من أي شيءٍ ما دُمتُ موجودًا.

ابتسمتُ بينما عيناي متورمتان وأنفي مُحمرٌّ فقرصَ ليث أنفي مازحًا فأطلقتُ ضحكة خفيفة، نهضَ ومدّ لي يده لأمسكها وهو يقول:

- هيا دعكِ من هذا الآن فقد وعدتُ نورًا أني سأسبحُ معه في البُحيرة قومي كي لا نتأخر.

***

محمد

فقدنا وهب في معركة دامية وما زلنا نُقاتل رغم أن اليأس قد أخذ مِنا مأخذه؛ فعدتهم تفوقنا بها لا تستطيع شجاعتنا هزيمته، لم يكن الموت هو ما يُقلقني، بل الرحيل دون لقاءِ نور مرةً أخرى ودون أن أشهد الانتصار العظيم للحق والسقوط الساحق للباطل!

في سبيل هذا قررتُ أن أخرج من حكم الموت في هذه المعركة المنكوبة، صددتُ في هذه اللحظة ضربة سيفٍ كانت ستكون القاضية وغرزتُ سيفي في كبد صاحبها فأرديتهُ قتيلًا وسحبته على ذِراع آخر فقطعتها وانقلبت الموازين في لحظة إرادة إلهية قتلنا منهم ما جعل البقية يفِرون...

أخذنا نستند على أجذاع النخل لاهثين نُعالج جِراحاتنا، نظرت إلى ذراعي التي أُثخِنت وازدادت جراحاتها عمقًا وأرجعت رأسي للوراء أُسنده بتوجع في عدم مقدرة مني على فعل شيء، التفتَ إليَّ قيس الذي قطع نفسه بالبكاء عند جسد وهب:

- هل أنت بخير!

هززت رأسي بملامح مقبوضة وأنا أتأوّه من الألم فمد الزبير عنقه مضيفًا:

- لا تبدو كذلك، يجب أن يراك حكيم.

- ذراعي فقط الآن أشدّها مجددًا ويزول هذا الوجع.

اقترب مني قيس وبدأ يشدها لي ويسقيني الماء قلتُ مُمتنًا:

- رحِمكَ الله يا أخي وسقاك من نهر الكوثر!

دفنَا وهبًا، وصلينا عليه، وأكملنا الطريق وسط محاولات الزبير في إقناعنا بالعدول عن ذلك وتبِعنا على مَضَض متأخرًا عنا في المشي، وجاوزنا الجسر وعند مفترق طرق وقفت أتأكد فقلت:

- من هنا، أمّا أنت فابق في الخلف يا زُبير حتى إذا أصـابنا شيءٌ يُمكنك الفرار.

سمعته يُطلق اللعنات بصوت منخفض ويتبعنا بوجهه عابس.

......

هبط الليل واستباح الظلام الطرقات وصارت تتناهى إلينا أصوات الحيوانات الليلية وعواؤها الطويل، وازداد هلع الزُبير عِندما وصلنا أخيرًا، ووقفنا على أطراف غابة كثيفة يفصلنا عنها منحدر شديد لم يجرؤ أحد منا على التقدم.

وبعد تأملات طويلة تقدمتُ قائلًا:

- بسم الله الرحمن الرحيم، هيا بِنا.

تقدم قيس فالتفتُّ أنظر للزبير من خلف كتفي:

- ألن تأتي؟!

- كلا اذهبا أنتما وأنا سأراقب لكما الطريق من هنا.

هززت رأسي:

- لا بأس.

ما إن نزلت وتقدمت خطوة واحدة حتى جذبتني يدٌ خشنة واستطاعت أخذي دون جهد إلى مكان آخر تمامًا، لحظات وإذا برفيقي يُلقى على مَقربة مني، انبثق من الظُلمات صوتٌ أجش يأتي من خلفي:

- ما الذي تنوون فعله؟!

التفتُّ إليه هلِعًا على حين غرّة، ولم أكن أرى غير الظلام، كُنت أتنفس بسرعة، فجأة ظهر من العتمة الحالكة وجهُ عجوز تقدم نحونا وهو يكمل كلامه:

- أكنتم تحسبُون الدخول لأراضي هذه المشعوذة أمرًا مُمكنًا! إن خطوتم خطوة واحدة داخل تِلك الغابة فلن ترحمكم وإن حدث ونجحتم بالدخول فلن تخرجوا أحياء.

نجح قيس بالنهوض بعدما تعثر عدة مرات وقال بتلعثم:

- مَن أنت؟!

تجاهل سؤال صاحبي وتقدم حتى وقف أمامي مُباشرة، نظرتُ إلى داخِل عينيه، شعرتُ بأني أعرفه، قد رأيتهُ سلفًا في مكانٍ غير هذا وزمانٍ بعيد يبدو وكأنه عالمٌ آخر...

أخذني صوتهُ لأعمق نقطة في ذاكِرتي أحاول تحديد العالم الذي قابلتُه فيه والغريب أنه في تلك الحالة لم تزدني شدة الغوص إلا أُنسًا وطربًا، كلما

تكلّم أكثر وكلّما نظرتُ في عمق عينيه استوقد الوجدُ ضلوعي وغدوت صريعًا قد اخترقتْ سِهامُ الذكريات المُبهمة صدري ولذعتْ شِغافَ قلبي، وفي حضرة هذا الشعور لم أقوَ على نطق حرف واحد، وفي لحظة تحول بصر العجوز إلى ذراعي وقال مُشفِقًا:

- ذراعك تنزف!

......

في كوخه البعيد وعلى ضوءٍ باهت لقنديلٍ قديم كان يُداوي جرحي وأحاول كتم صرخات الألم وأنا أتصببُ عرقًا وأُسند رأسي وظهري لمتكأ قد أعده لي، فيما يجلس قيس في زاوية قريبة، كنتُ أجتذبُ أنفاسي، عندما انتهى أخيرًا وربط الجرح التفتُّ إليه:

- هل أنت حكيم؟

- كلا، ولكن كثرة الجِراح علمتني المُداواة، المرءَ لا يخرج مهزومًا من كل المعارك، حتى ولو لم ينتصر فهُناك انتصاراتٌ خفيّة وألطافُ إلهية تُحيطُ بكل شيء..

سألتُ فيما لا أزالُ مُسندًا رأسي ومُعلقًا بصري به:

- مَن أنتَ إذن؟

تبسّمت عيناهُ وقال:

- ألم تعرفني حقًّا؟!

كان حديثنا يجري وسط سكون رهيب، لم تجرؤ حتى صراصير الليل على إفساده، لكن لوهلة سمعنا صوتًا من عند باب الكوخ الخشبي سرق انتباهنا جميعًا ومد أبصارنا ناحيته، فيما قام العجوز مهرولًا يُحكم إغلاق الباب، ويضعُ أقفالًا فوق أُخرى، تلاقت عيناي بعيني قيس وقد دبّ الرعب في قلوبنا، قفز قيس قربي وهمس في أذني:

- لماذا نثق به؟ وما بك تسمّرت هكذا أمامه عندما سحبنا إليه في الخارج.

همستُ:

- أنا رأيت هذا الرجل من قبل بدا لي مألوفًا جِدًّا، أكاد أجزم أنني عُدتُ بذاكرتي لأول يوم في حياتي من أجل إخراجه لكن، لا شيء.

همسَ بقلّة صبر:

- وماذا يعني؟!

- الأرواحُ جُندٌ مُجندة يأتلفُ مِنها ما تعارف، أظن أننا في المكان الصحيح.

لطم وجهه بحركة خفيفة محاولًا عدم إخراج صـوت وهو يقول مُتورِّطًا:

- يا الله! ماذا إن كان من الجن؟!

تراجع قيس بسرعة للوراء والجلوس مكانه عندما أحسّ بعودة العجوز ناحيتنا، كان يحاول أن يطمئننا:

- ستكونان بأمانٍ إن شاء الله.

صبّ قدحَين من اللبن وقدمه لنا، وجلس متربعًا وهو يقول:

- أخبراني الآن عن قصتكما وسبب مجيئكما.

......

أجهش العجوز بالبكاء بعد أن أنهينا سرد الحكاية، لاحت علامات الذهول علينا، ولم يتمالك قيس نفسه فسأل:

- ما بك يا هذا؟ لِمَ تبكي؟!

قال وهو يجذب شهَقاته:

- إنني أنا المُذنب، أنا المُلام في موت الشيخ هادي وأنا من قتلته أنا الذي أوديتُ بحياته.

اتسعت أحداقنا لهول الصدمة صحتُ:

- ماذا تقول؟

- لقد أظهرتُ نفسي له فعرفَ قاتلهُ الذي يُريد قتلي.

قال قيس:

- تحدّث بِلُغةٍ نفهمُها.

بعد أن هدأت شهقاته واستعاد رباطةَ جأشِه أطرق برأسه وقال فِي حُزنٍ مرير:

- لقد كُنتُ أنا مِن سُكّانِ قرية التلة أيضًا.

اختطفتنا الدهشة لكننا تابعنا الإصغاء:

- كُنت شابًا وسيمًا قوي البُنية، وقد مررتُ من هنا عن طريق الصدفة وشَهِدتُ حادثة سقوط مريعة لفتاة شابة لم ألبث إلا ركضت للمساعدة كانت متمسكةً بصخرة لكن أصابعها سرعان ما انزلقَت وهوت في مكان سحيق...

نظرتُ وإذا إنه نهرٌ وقد وقعت به فقفزتُ خلفها وأنقذتها، مددتها على رمال الشاطئ وقلبت كفي على وجنتيها كانت فاقدة للوعي ولم أتركها حتى أمّنتُ وصول الهواء لرئتيها مجددًا، بعد ذلك أخذتها لبيتها وأردت المغادرة لبيتي وعائلتي، تعلقت الفتاة بي ولم تشأ أن أغادر، دَعتني والدتها للدخول فرفضتُ وعرضتْ عليَّ المال فلم أقبل، غادرتُ المكان ولم أكن أعلم أني بقيتُ حبيسًا فيه!

سلكت طريق العودة ولم أكن أعلم أني أتوه وأمشي في طرقات ضياعي الأبدي، لم أكن أعلم أن إنقاذي لتلك الفتاة سيقتل زوجتي ويُضيّع طفليّ ويُهلِكُني!

سألت:

- لماذا؟ ماذا فعلت لك تِلك الفتاة؟

- وقعتُ في حُبي! صدّق يا ولدي أن الحُب مُهلك في أغلب الأحيان، لاحقتني في كل مكان ورفضتها وكانت أمها ساحرةٌ ملعونة، دمرت عائلتي.

ما سأقوله هو أن من أنقذ ابنة تلك المشعوذة لم يكن عبد الرحمن بل أنا! والقصة التي سمعتموها عن هذا الأمر كانت مُحرّفة!

قال قيس:

- لكننا لم نعرفك إلى الآن قُلت إنك من قريتنا ولم تعرفنا نفسك، ما الذي قد يجعلنا نصدق روايتك أنت حول هذه القضية؟!

أما أنا فقد تملكني حديث هذا العجوز وحملني بعيدًا، سألته:

- لم تقل ماذا جرى لعائلتك؟

أخفض عينيه بحزن وقال:

- ذات صباح اقتحمت عِصابةٌ عليَّ منزلي وضربوني أمام زوجتي الحامل وأحدثوا ضجّة وصياحًا لاقتيادي قسرًا، وقد أصحبوا جرّهم لي بركلاتٍ وضربات على رأسي وأهانوني وأبكوا زوجتي وروّعوا طِفلي الذي يبلغُ السادسة.

هطلَت دموعي مُذ بدأ حديثه وما وصل بالحديث إلى هُنا إلا وقد أغرقتني، وأخرستني الغصَص التي تجمعت في حلقي وكادت أن تخنقني وضاقت أنفاسي لكني لم أشأ أن أقطع حديثه.

- تعلق ولدي بثوبي باكيًا لكن ذاك اللعين ركلَه وأبعده وخرج بي في وسط صرخاتي.

رفع عينيه الممتلئتين دمعًا وسألني ببَحّة:

- هل عرفتني الآن؟!

اعتلى من صدري شهيقٌ يتبعه شهيق وقمت واحتضنتهُ باكيًا وأنا أقول:

- بئس الولد العاق الذي لم يعرف والده.

احتضنني وبكى فيما ينظر إلينا قيس مُستغربًا عاقدًا حاجبيه، ابتعدتُ عن حضن والدي لأنظر في عينيه وأخبره باكيًا:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- أنا لا أعرفُ شيئًا عن أختي.

أسندت جبيني إليه ومسح على رأسي وهو يقول:

- آمل أن يسمح القدر لكما بلقاءٍ كما قرّ عيني بلقائك بعد يأسي.

- لنا؟ ماذا عنك؟

- أنا لن أستطيع الخروج من هُنا أبدًا.

- كلا، سوف تخرج معي الآن ونذهب...

قال قيس:

- لا أريد أن أقطع عليكما لحظاتكما الحميمة ولكن! ألم يبقَ لحكايتك تتِمّة يا عم!

وزع نظراته بيني وبين أبي وهو يُبرر:

- فنحن إلى الآن لم نعرف ما علاقة هادي.

استأنف أبي حديثه وهو يغوص في نفق ذاكرته:

- حبسوني في مكان مُظلم لأيام طويلة وفي ليلةٍ حالكة استطاعت تلك الفتاةُ ذاتها التسلّل إليَّ ووقفت أمامي مذعورة تتلفّت وراءها، قالت بهمس بعدما قربت وجهها مِن وجهي:

- أريدُ إخراجك من هذا المكان.

صحتُ غاضبًا:

- افعلي إذن ماذا تنتظرين؟!

- لكني لن أُعيدك إلى بيتك.

- أهذا هو جزاء الإحسان؟ أهذا ما أستحقهُ فِعلًا؟

قالت وقد لاحت علامات الخجل على وجهها أتبعها الانكسار:

- أعني لا أستطيعُ، لستُ أنا من فعلَ بِكَ هذا بل أمي، لم تحتمل الحُزن الذي باتَ سرمديًا في عيني بعد ذهابك.

يجب أن آخذك الآن إلى مكانٍ تستطيع أن تأمن فيه على نفسك؛ لأوضح لك كل شيء.

وعِندها جاءت بي إلى هذا الكوخ وأسَرّت إليَّ:

- قررت أمي قتلك لكني لم أسمح بذلك واستطعتُ منعها، لكنّها عازِمةٌ على جعلكَ وحيدًا؛ عازِمةٌ على التخلص من عائلتك وذلك لا يعنيني..

لم أحتمل ما سمعتُ وهجمت منقضًا وحملتها من عنقها بيدٍ واحدة حتى ألصقتها بالجدار:

- جِدي لذلك حلًا وإلا قتلتك أقسم أنِي سأرميك من ذات الهاوية التي أنقذتكِ منها.

بدأت تختنق وصار قلبها يدقّ في يدي واقتحم أحدٌ خفيّ هذا الكوخ، وجذبني من روائي بقوةٍ هائلة جعلتني أرتطم بالجدار، وخلصها مِني، بدأت تسعل وفرّت لاهثة لاحقتها لكنها توقفت بحركة مستقيمة جدًا ورفعت كفها قائلة:

- لا تعبر هذه الغابة وإلا لن أستطيع المساعدة، سآتِي إليكَ لا تلحق بي الآن.

في المرةِ الثانية التي أتت فيها طلبت مني أن أتزوجها فجاريتُها لحاجةٍ في نفسي...

قاطعه قيس الذي يسمع معي بتركيز:

- ما هي هذه الحاجة؟

- طلبتُ منها أن تؤمن لقائي بالشيخ هادي أو أن توصل له رِسالتي على الأقل...

واستطاعت الوصول إليه بعد محاولات عديدة ولكن، ذلك لم يمهله ليفعل شيئًا فقد قُتل بعدها على الفور.

***

ماريا

يجتمع أفراد عائلة مروان على المائدة العامرة بأشهى وأطيب الأكلات؛ زهرة والتي تجلس عن يمينه وأبناؤه عمرو ومصعب وبسطام ووالدتهم "أم عمرو"، ويؤسفني أن أكون أنا أيضًا من عائلته وأجلس عن يساره في مائدته...

لقد بدا مروان سعيدًا اليوم ويعتريه مرحٌ غريب، تناهى إلينا من خارج الدار صوت عجلات عربة بائع البطيخ الذي توقف قرب البيت وصار ينادي ويصيح بأعلى صوته:

- بطيخ، بطيخ حلو كالعسل.

قال مروان:

- عمرو! اذهب واشترِ بطيخًا.

قام عمرو من على المائدة وعاد وهو يحمل على ذراعَيه بطّيختين كبيرتين.

قال مروان وهو ينظرُ إليَّ وقد برقت على شفتيه ابتسامةٌ شرسة:

- مُر الجواري فليقطّعنـه ويحضـرنه من أجل زوجةِ أبيـك، أتشتهينَ البطيخ يا ماريا؟!

نظرت زهرة بحنق شديد فيما ترفعتُ أنا عن النظر إلى وجهه وقُلت بحدةٍ دون الالتفات إليه:

- لا أشتهي شيئًا مِن عندك.

تَصفّق وجه أم عمرو ومضغَت ريقَها بحذر واشتعلت عينا مروان أيضًا لكنه كان سعيدًا لدرجة لم يشأ أن يعكّر بها أي شيء مزاجه فأكمل طعامه وحين جيء بالبطيخ وضعه أمامي وقال بلهجة حادة:

- ستأكلينه.

وجهت له نظرة كارهة فأطرد مؤكِدًا:

- وأنتِ تشتهينه.

......

بعد الغداء وضع له كرسيًا في صحن الدار، وأتى بمن يُحسِّن شعره ولحيته، وأمر بعزف المزامير، وكُنت أراقبه من نافذة غرفتي، بمَ يحتفل يا تُرى؟

وكان أولاده الثلاثة يتراقصون حوله ويضحكون معه، وهذا هو الطابع الوحيد الذي أدهشني فِي مروان، فيما عدا علاقته بزهرة طبعًا، فإنه

أبٌ مُهتم بأولاده، طُرق الباب وتحدث الطارق مع مروان عند الباب فهاجت شياطينهُ مُجددًا وعلا صراخه أظن أنه خبرٌ يخصّ ملاحقتهم لمحمد وهُنا انفرجت أساريري بعدما كان فرحه يُثير لي القلق فجنونه الآن يدل على نجاة محمد، دخل وركلَ برجله الكرسي الذي كان يجلس عليه وطرد الحلاق فيما رحت أنا أشكر الله وأحمده مُستبشرة وإذا به يقتحم عليَّ الغرفة بوجهٍ عبوس، تقدم ناحيتي فتراجعت للوراء بخطوات بطيئة قال بهمس غاضبًا:

- إن تحدثتِ إليَّ أمام أولادي وخدمي مرة أخرى بطريقة تُشبه ما فعلتِه اليوم على المائدة فلا تلومين إلا نفسكِ.

أجبتُ بتَهكُّم:

- جيد؛ هذا يعني أنهُ يمُكِنني التصرف كما يحلو لي في غياب أولادك وخدمك، سأعتبر هذا صكّ أمانٍ من عندك.

بينما تشتعلُ عيناه غيظًا كانت لهجةُ المرح والشماتة تعوم على صوتي، وكأننا قد تبادلنا ما كُنَّا عليه قبل دقائق فقط من الآن:

- أتسخرين مِني؟!

- ما الذي تُريدهُ الآن؟

- أن تكوني مُنصاعة مُذعنة.

- هذا في أحلامك فقط.

- أمتأكدةٌ أنتِ؟

اقتربتُ مِنه رفعت عيني أنظر في عيني هذا الرجل الضّخم بشجاعة وأقول:

- ما الذي ستفعلهُ، هل ستقتلني؟ لا أستبعد هذا من قاتل مجرم وأُبشِرُك: إنني كُنتُ أُفضّل الموت على أن أكون قرينةَ شيطان مثلك، وأصبحتُ الآن أتمناهُ أكثر وأُفضّله على أن ألد لكَ شيطانًا يُشبِهك.

* * *

مروان

تزاحمت في صدري مشاعر الغضب والدهشة معًا فأنا لم أشعرُ من قبل بهذا الكم الهائل من الكُره والنُّفور، ولم يرفضني أحدٌ لهذا الحد، قُلتُ:

- بل القتلة المجرمون هم أنتم!

ضحكت بسخرية وهي تُشيح بوجهها ثم تعود تثبّت عينيها في عيني وتقول:

- إن كُنت سأقتلُ أحدًا في حياتي هذه فسيكون أنت!

لم أنبس ببنت شفة وبقيتُ أنظر لعينيها الحاقدتين لثوانٍ قبل أن أنسحب من الغرفة صامتًا بشكل تركها في وضع مريب.

......

استيقظتُ في منتصف الليل في فراش زهرة فلم أجدها، استغربتُ الأمر فهو ليس من عاداتها أبدًا أعني النهوض ليلًا وترك الفراش، خرجت إلى صحن الدار أبحث عنها وأفتش في ممرات البيت وجدتُ باب غرفة ماريا مواربًا فتقدمت مُستطلعًا ودفعته بهدوء لأجد زهره تقف فوق رأس ماريا وترفعُ خنجرًا تريد أن تهوي به على صدرها لتقتلها اتّسعت عيناي، وركضتُ دون أن أشعر بنفسي وقبضت على زهرة من الخلف وأنا أضم يديها إلى صدرها وآخذ الخنجر وأحملها بحركة سريعة إلى خارج الغرفة، همستُ مذهولًا:

- ما الذي تفعلينه هل جُننتِ؟

- اتركني أُريدُ قتلها، لا أريدها في هذا البيت.

كانت تتخبط بجنون تحاول الإفلات مِني حيث ما أزال أحتضنها وأشدّ بيدي عليها، قالت وهي تلتف بجسمها نحوي وترخي أكتافها في حضني كاستسلامٍ باكية:

- لا أحتمل وجودها، لا يجب أن تكون بيننا، لا يجب أن تكون هُنا، اقتلها فلتمُت.

جذبتُ رأسها إلى صدري وأغمضتُ عيني وضممتها وهززتها في حضني كما لو كانت طفلة صغيرة:

- اششِ، حسنًا اهدئي الآن يا زهرةَ حياتي.

......

فِي غرفتنــا كُنت أجلسُ على الســرير فيما تحــوم زهرة حول نفسها وتقول:

– دائمًا ما كُنت تُندِّد بها وبمن معها وتتوعدهم بالقتل، ها هي عندك الآن تحت هيمنتك في بيتك، اقتلها لِمَ لا تفعل؟!

– لم أنتهِ منها بعد، ما زِلتُ بِحاجةٍ إليها.

– أووه، تشعرنِي بكلامك دومًا أنك تزوجتها من أجل خُطةٍ أو ثأرٍ ما.

قاطعتها:

- وهو كذلك!

- كيف أبقيتها حُبلى إذًا! إن أفعالك لا توافق ما تقول يا مروان.

- لا شيء يتناقض مع شيء؛ أنتِ فقط لا تفهمين.

- بل أنت لا تفهمني.

استطاعت نبرتها الأخيرة إيصال صوت الانكسار في قلبها المُتيم، قُمتُ إليها وفي كل خطوة نحوها كانت تتجسد الذكريات...

تِلك الطفلةُ التي كُنت أصفّق لها فترقص تتحول لتِلك الحسناء التي ملأها المرح رغم سكنها الجبال وحيدة فقط؛ لأني أمسِك يدها تحت المطر وأرقصُ معها بحركاتٍ مُتمائلة على ضوء القمر، وتتبدل الأرض من تحتنا لألفها حول نفسها في كوخنا الصغير على ضوء قنديلٍ مُعلق وتنقشع الصورة ليحل مكانها ركضها نحوي فاتحة باعها بابتسامة جميلة وتتعلق

بعنقي حين أتيت حاملًا إليها الورود في يدي، ولقاء آخر بعد غيابي الطويل كان كل منا يركض بقوة ناحية الآخر فالتقينا في عِناق يعقبه دوراني بها في الهواء والدنيا لا تسع سعادتي، وذكرى أخرى حين غطيتها بجُبّتي في صقيع الشتاء فاستندت إلى كتفي وأخرى حين تشابكت أصابعنا في أول مرةٍ نكون فيها معًا، هكذا تعاقبت عليَّ ذكرياتُ أربعين سنة وتتابعت في دقيقة واحدة.

وقفتُ أمامها، أبعدت خصلة قد انسدلت على وجهها وجعلتها خلف أذنها وقلتُ:

- لا يساورك شكٌّ بأنكِ حبيبتي الوحيدة.

نظرتُ في عينيها جيدًا وأنا أقول:

- ألم تُدركي بعدُ بأنني لعنةٌ أبدية في حياتكِ؟

أخذتها إليَّ مع تنهيدة طويلة أغمضت فيها عيني...

***

ماريا

لقد مضى على خروج أبي من القرية يومين، وإلى الآن لا أثر ولا حسيس، ساورني القلق كما أن التضجر قد تسلّل إلي، عندما فتحت زهرة قلبها لي تلك الليلة ظننتُ أنه ستنشأ بيننا علاقة لطيفة لكنها تكرهني كما أنها تثير استفزازي أيضًا، كان هذا كل شيء لكن عندما خلدت إلى النوم ليلًا رأيتها تقف على رأسي مُمسكةً بيدها وسادة انتزعني الذهول وسرعان

ما غطّت بتلك الوسادة وجهي وأشرعت في قتلي، في وسط محاولات مني للخلاص من هذا الاختناق ضاقت أنفاسي وكِدتُ أودع الحياة، وفي لحظة ضعف منها أدركتني الألطافُ الإلهية واستطعتُ النجاة بنفسي فوكزتها وأنا أصرخ وأهرول إلى خارج الغرفة وأصيح وأبكي بصوتٍ أيقظ كل من في البيت، تعثرتُ عِند عتبة الباب فالتَقفتْني يدين كبيرتين تشبثتُ بهما قبل أن أرفع رأسي وأنظر في وجهه وأعرف أنه مروان، والذي سأل مصدومًا وهو ينحني إليَّ ليمسكني:

- ما بكِ؟ ماذًا جرى؟

جاوبته من بين شهقاتي:

- لقد رأيتُ الموت، كانت تقتلني.

نظر سريعًا ناحية الغرفة بدهشة أتبعها بغضب مُلتهب وهو يجد زهرة تقف في الزاوية مرتبكة.

قُلت وأنا أضع يدي على رقبتي بأنفاس متقطعة:

- اللعنة عليكم من أهل بيتٍ مُجرمين، لا يُمكن للمرء أن يأمن على نفسه هنا.

دخل إليها وجذبها من ذراعها وهزها بغيظ يُحاول كتمه:

- ما الذي جرى لكِ؟

وهمس كي لا أسمع لكني سمعته وهو يقول:

- ما الذي تكلّمناه البارحة!!! ألم أنبّهك بألا تتعرّضي لها بسوء؟ هل سأبقى أُراقِبكما؟

يا إلهي لم تكن محاولتها الأولى إذن، إلى أين أذهبُ الآن، ومن سيُهدِّئ مِن روعي! فقد بتُّ وحيدةً في القرية، بعدما عاد الجميع لغرفته عدتُ أنا أيضًا لقبري وجلست على السرير أضمّ رُكبتيّ إلى صدري وقد فقد النوم سبيلهُ إليّ، إنني بمفردي، وحيدةٌ تمامًا لا أجد من يهتم لموتي ولا من أخبره حتى بما أشعر، طوقني الهمُّ فيها مر شريط حياتي أمام عينيَّ حتى اللحظات التي كُنتُ فيها سعيدةً باتت تؤلمني كثيرًا الآن، إن حياتي أكبرُ مِثال على الخيبات!

فُتح الباب ففزعت من مكاني وشخص بصري ناحيته، أرخيت جسدي بنوعٍ من الارتياح حين رأيت أن القادم هو مروان رُبما لأنني كُنت أعلم أنه لن يؤذيني الآن، دخل وتقدم ناحيتي ورفع طرف الغطاء ودخل إلى الفراش في صمتٍ مطبق وأدار لي ظهره وأغمض عينيه لينام، أدركت أنه قرر البقاء هُنا ليمنع حصول أي تصرُّف أرعَن من زهرة.

***

محمد

في كوخ أبي الخشبي الصغير الواقع بعيدًا جِدًّا عن القرية ومن فيها، بين كل تلك المسافات وددتُ أن أكتب لها لأحذرها مما فهمته وأدركته من وقائع هذا السفر، بعد أن نام أبي وقيس جلستُ خلف منضدة خشبية، وعلى ضوء شمعة تتراقص شعلتها الباهتة عن يميني أمسكت بريشتي وبقيت أنظر للورق حتى بدأ حبرها يقطر عليه؛ فلم أعرف ما أكتب، أأشرحُ كم ضاق صدري من كثرة الغياب؟

هل أكتبُ حُبًا أم شوقًا أم عِتابًا؟!

فلقد فهمتُ من المشاعر ما لا أستطيع الاعتراف به حتى لنفسي.

أفتقدها إلى جانبي، غير مصدق بأنها أصبحت عِند عدونا الذي حاولنا دومًا كشفه وسعينا للانتقام منه.

كم وددتُ خنق هذا القلب؛ لإسكاته لكنه لا يسكت!

وكم دعوت أن يأخذ بكِ الذي لم يجعلكِ من نصيبي بعيدًا عن قلبي.

دعوتُ كثيرًا وتناسيتُ أمركِ لكن قلبي تمرد وما ارعوى! فَلْيُعِني الله في مواجهة هذا الفراق!

أسندت جبيني لراحة يدي وأسرعتُ بتمزيق الورقة فأنا لا أريدُ أن يحجبني شيء عن نور الله، لا أريد الخوض في هذا! لا يجب أن أكتب أنا لها يجب أن أجعل الزبير يفعل، لوهلة تذكرّته وقمت منتبهًا لأوقظَ قيس، همستُ:

- قيس! استيقظ يا قيس لقد نسينا الزبير!

استيقظ قيس وعيناه كالجمر من النعاس قال:

- تجده قد مات الآن من وحشة هذا الليل.

وعاد يُسند رأسه ليكمل نومه فقلت:

- يجب أن نلحقهُ قم ورافقني.

......

تلفّت قيس في المكان الذي افترقنا فيه:

- قال إنه سيُراقبُ لنا الطريق، أين هو؟

- وهل صدقته!

- بصراحة ساورني الشك ولكن أين يكون قد ذهب؟

- لا أعلم لكني متأكد من أن لا طاقة له على الرجوع وحيدًا في ظلمات هذا البر.

- فلنبحث عنه.

- هيا بنا.

استغرق بحثنا عنه الليل كُله، وحين صبغ السماء لونٌ أرجواني قال قيس وهو يمد بصره بعيدًا:

- هُناك خيمة!

- أجل إنني أراها، مَن هذا؟! كأنهُ عِمران؟

- أي وربي إنه هو والزبير معه أيضًا.

......

عانقتُ الشيخ عِمران:

- أهلًا ومرحبًا، حمدًا لله على سلامتك.

ثم مددت يدي أصافح الشيخ هارون كما جاء دور قيس ليسلم على عمران بعدما انتهى من تقبيل أيدي هارون!

ثم وبعد ذلك التفتنا إلى زبير:

- أين مَن سيراقب لنا الطريق؟!

ردَّ مُتهكمًا:

- لا تؤاخذاني والله ظننتُ أن مكوثكما سيطول إلى يوم القيامة!

ثم أضاف غاضبًا:

- كيف تتركاني وحيدًا هناك هاه؟! أنا أحمد العناية الإلهية التي جعلت قافلة الشيخ عمران تستريح هُنا من وعثاء سفرها وإلا ما كنت أظن أنني سأخرج من تِلك الأجواء حيًّا.

قال الشيخ عمران مبتسمًا:

- لقد التقيناه صدفة هنا وانضمَّ إلينا وأخبرنا بكل شيء، أخبراني الآن ماذا فعلتما؟

قُلتُ:

- لم نستطع الدخول للغابة، ولم نقابل الساحرة.

هتف قيس مُتذكرًا:

- لكن كان عليكم أن تشهدوا لقاء محمد بوالده.

في وسط دهشةِ الجميع قال عمران عاقدًا حاجبيه:

- والده؟! كيف؟!

قبل أن أنبِس ببنتِ شفة أزاحت يدُ امرأة طرف الخيمة وخرجت لتنتزعَني حينها دهشتي من بين الجميع:

- أنتِ؟؟

عمران بتعجب:

- هل تعرِفها؟

- بل أنت متى عرفتها؟!

بلعتُ ريقي وقلتُ بتَلكُّؤ:

- إنها المرأة ذاتها التي قطعت عليَّ الطريق ومنعتني من اجتيازه عند سفح الجبل، لقد أفزعتني وهددتني بالقتل.

- إنها أختي عاتكة.

- ما الذي تقوله!؟ أوجدتهم؟!! لكن...

دخلت إلى الخيمة أفتّش بهَمجيّة:

- لكن أين ليث...؟ أين نور؟؟؟

خرجتُ بعدما رميت كل ما في الخيمة أصرخ:

- أين هُما؟؟

وضع عمران يده على كتفي متأثرًا:

- محمد! اهدأ أرجوك.

رميتُ بكفه من فوق كتفي وتولّيتُ عنهم وأنا أصيح وأصرخ في البراري:

- أين أنت يا نور؟ يا نور عيني أما آن لغيابك أن ينتهي؟

للحظة توقفتُ مستدركًا، وعدت أهرولِ إليهم وتوقفت أمام عاتكة:

- أنتِ تعرفين مكانه لذلك قطعتِ عليَّ الطريق، كُنتِ تحمينهُ أليس كذلك؟؟؟ بالله عليكِ أخبريني وأريحي قلبي.

صرت أحوم حول نفسي وأنا ممسك برأسي وأدعو:

- الويل لي، الويلُ لي إن لم ألتقيه بعد هذا.

اقترب مِني عمران وهمس عند أذني بلهجة جادة:

- هذا ليس الوقت المُناسب لجنونك المُعتاد، توقف عن الدعاء بالويل والثبور وأعِرني انتباهك.

صدّ بي عن الجميع وهمَس:

- لستُ متثبتًا من هارون.

التفتُّ إليه بسرعة فأكمل:

- لقد بدا لي غريبَ الأطوار، في الطريق وقفنا لنصلي ثم تخلّف عني متذرّعًا بتجديد وضوئه لكنه لم يعد ليصلي فيما كنتُ أرى وأشعر بظله من خلفي...

- أتقصد أنه...؟

- حاول قتلي عِدة مرات وقد بات حضوره يسبب لي القلق ولم أعد أغفو إلا وسيفي تحتي.

- لكن لماذا؟!

تنهد قائلًا:

- ذلك أمرٌ أجهله أنا أيضًا

أتى صوت هارون مِن خلفنا:

- شيخ عِمران!

التفتنا إليه بثقة كما لو أننا لم نكن نتحدث عنه، قال:

- بقي القليل جِدًا لوصولنا إلى القرية، سأُكمل الطريق مِن الآن مع قيس.

عانق هارون عمران قائلًا:

- أستودعك الله.

فيما عانقتُ أنا قيس:

- انْتَبِهْ لنفسك جيدًا.

ربت على ذراعي وهو يتخطاني:

- وأنتَ أيضًا.

بقينا ننظر إليهما وهما يبتعدان في ذلك البر الذي لا نهاية له، وحين بدأ طيفهما يتلاشى في ظلٍ عميق تمتم عِمران:

- من المحتمل أنه عاد الآن ليفضحنا.

أتى الزبير وسأل:

- أهما عائدان إلى القرية؟

- أجل.

- أُفضل أن أعود أنا أيضًا، سألحقُ بهما، وأنسحب من هِنا قبل أن يحل الظلام.

أدار ظهرهُ ليلحق بِهما لكن عِمران نادى عليه:

- زُبير!

التفت فأطرد عِمران:

- لا تكن رفيقَ مُنتصفِ الطريق؛ ابق معنا!

نظر لهُ الزبير مُتأثرا وقرر البقاء...

......

في كوخ أبي الخشبي

وقف عِمران أمام أبي:

- أبا محمد هذا أنتَ فِعلًا!

عانقَه:

- أين كُنت؟

- القصة طويلة جِدًّا، تفضَّلْ لنخبرك بكل شيء.

أومأتُ بيدي في مُقاطعةٍ مؤدبة:

- قبل أن تخبره بأي شيء. زُبير! اكتب لابنتك ألا تقع في الفخ فإن مروان يستعملها! يستعملها كي تنقل إلينا أخبارًا مَغلوطة إنه يلعبُ لعبته عن طريقها...

تمتم أبي وهو يهز رأسه وقد غاصت عيناهُ في ذِكريات بعيدة:

- إنه أخطر مما تتصورون.

* * *

عاتكة

قال الزبير وعيناه تدمعان بإشفاق:

- يا زوجةَ أخي! حدثيني عن أخباره وكيف عاش؟ أحقًا لم ينفَد الحزن من قلبه أبدًا؟

هززتُ رأسي في ابتسامةٍ باهتة:

- في كُل ليلةٍ كان يتذكر ما جرى على عائلته ويبكي في حضني ويقول: "لا أستطيعُ نسيانهم يا عاتكة؛ إن لِقتلهم في فؤادي لجمرةٌ لن تبردُ أبدًا. لقد استضعفوني ولم أستطع مُجابهتهم وحدي".

لكنه رغم حُزنهُ كان راضيًا! لم يعترض على حكمة الله أبدًا بل كان اعتراضه على جُرأة المجرمين على الله ورسوله بفعلهم هذا..

استطردتُ بعد تنهيدة:

- مُنذُ زمنٍ بعيد وعِندما كان ليث سعيدًا يمرح في أرجاء القرية كانت تُخالِجُني فِكرةٌ ويُقلِقني أمر!

ماذا لو مرَّ الحزن على قلب الشخص الذي زيّن الدُّنيا بابتسامته؟!

لم يكن قلبي الصغير ذاك يحتمل تِلك الفكرة فبِتُّ أمشي وأسأل عما إذا كان بإمكاني حمل حزن أحدهم في قلبي لتبقى السعادة في نصيبة فقط!

دعوت الله أن يجعل من تِلك الأمنية أمرًا مُمكنًا لو كانت مستحيلة!

ها قد ابتلع الحُزن قلبه وغيَّب ابتسامته ولم يكتفِ بالمرور وحسب! وكم أرهق ذلك روحي؛ فبت أدعو الله في كل ليلة أن يجعل أحزانه وتعبه من نصيبي ويجعل كل السعادة والراحة من نصيبه؛ لأنها تليقُ به كثيرًا...

إنني الآن وبما أنا عليه من حالي أعلمُ بما أصابني، أعلمُ بتفاصيل بلائي الأليم وأدعيتي تِلك أعلم أنها قد أُجيبت!

......

عمران

- لم أستطع التفوّه بحرف طيلةِ سفرنا في وجود هارون، أخبرينا الآن ما دُمنا جميعًا ما الذي حلّ بِكم؟ وماذا جرى عليكم بعدما خرجتم من عِندي مُغادرين؟

تنهدتُ وموج الحُزن يغمرنِي وبدأت حينها سرد الحِكاية:

- بعد رحيلنا عن المدينة التي كان فيها أخي عِمران، استأجرنا بيتًا صغيرًا واستقررنا في بلدة بعيدة اختارها ليث من أجل مدرسة العلوم الدينية التي فيها، كان يُريد مواصلة تحصيله العلمي.

وفي أول مرة يدخل فيها ليث للدرس وقف عِند الباب قليلًا، تأمل منظر الأستاذ فتذكر أخاه هادي، وتأمل منظر الطلبة المجتمعين فتذكر أولئك الغادِرين، بلع ريقه وأخفض عينيه ألقى السلام وتقدم ليجلس بهدوء ويفتح كتابه ويدوّن ما يقوله الأستاذ، في اندماجٍ وتركيز، وبعد انتهاء الدرس وانصراف الأستاذ بقي سارحًا ينظرُ أمامه في شرودٍ مُرٍّ بعيد، كانت غَمغمات الطلبة فيما يخص مناقشات الدرس تملأ المكان بينما يعجُ في رأس ليث صمتٌ رهيب يمزقهُ طنينٌ مزعج، فالصمت هو آخر

محطة تستقِرُّ فيها النفسُ الجريحة مخلفةً وراءها محطات من الانهيارات وصرعات الصراخ والبكاء، انتشر الجميعُ في أطراف الأرض بينما هو متصلِّبٌ مكانه على نفس جلسته ممسك بكتابه فقط، حزنه ثابت؛ تتحرك الأقدام من حوله فقط بين ذاهبٍ وآتٍ دون أن تسترق كل هذه الحركة من حوله عينيه أو حتى انتباهه أو أنه لم يعد يهتم! هو لم يكن هنا غالبًا؛ جسدهُ فقط انحصر في هذا المكان وهذا الزمان! أما هو فقد كان في قرية التلة في المدرسة التي أنشأها مع أخيه...

هناك كان يتكلم ويُناقش بين هذا وذاك يُحيِّي هذا ويردُ سلام هذا ويُشيرُ لآخر بابتسامة جميلة بحجم الكون، وهكذا كان مُشتتًا بين العلم والعمل وحب الناس والحياة في وجود الأخ، الصاحب والمُربي كان كل شيء تلمسه الحياة، أما الآن فقد أثرى الموتُ كل شيء وشتّته ووزعه في مظهرٍ ثابت وقد بقي كذلك حتى خلَت القاعة من كل أحدٍ سواهُ، وأصبحت مقفرة بالحزن تشبه قلبهُ، والأرضُ كان سؤالها في حينِها عن حاله! هل ماتَ ليثٌ يا تُرى أم أنها خارت قواه؟ أم أن هادي عاد يُلقي درسهُ؟ وهو الذي لم يستطع فضّ الحنين وشوقهُ وبقي يُقابِلهُ ويسمعُ درسهُ والوجد مِلءُ الخافقين!.

......

- أكمل تحصيله العلمي، وقد تمكن من استعادة مهنته وأكمل رسالته في التعليم كما أنه واصل عمله كحكيم أيضًا، لكنه كما تعلمون لم يكن يتقاضى أجرًا جراء معالجة مرضاه بل يفعل ذلك ابتغاء وجه الله.

وبعد أن كان ثريًا أضحى فقيرًا مُعدمًا جراء الظلم والنهب الذي تعرض له في تلك القرية الظالمة...

مع ذلك لم يمنعه فقره المُدقع من السؤال عن أحوال الفقراء ومساعدتهم، كان يهوى ذلك من الطفولة أعني تفضيل الفقراء وإيثارهم على نفسه، قاسينا الفقر كثيرًا أحيانًا يطرقُ الدائن باب الدار ولا نملك شيئًا لنعطيه كنا نعيش ضغوطًا كثيرة، وحدث ذات مساءٍ حين كُنَّا عائدين إلى بيتنا من نهار متعب طويل وجدنا أن جميع أغراضنا وأثاثنا قد تم طرحهم خارج الدار وأُخرِجنا منها لعدم استطاعتنا دفع الأجرة، اضطررنا لمغادرة المدينة حتى عثرنا على موضع فوق مسجدٍ في المدينة المُجاورة مخصص للغرباء مكثنا فيه، وقد تكبد ليث عناء الذهاب والعودة من المدرسة وإليها مشيًا على الأقدام لكن بعد أن تحرر أصبحت الأرض تطوى له!

سأل محمد بتعجب:

- كيف؟

وسأل الزُبير:

- ممَ تحرر؟

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

أكملتُ سردي:

- تحرر ليث من شهواته الحيوانية وصار موجودًا ملكوتيًا يُعاينُ عالمَ الملكوت وتنكشف له حقائق الوقائع والأحداث ويرى حقيقةَ الأشخاص...

كانت المسافة طويلة للوصول إلى هذا المستوى طبعًا من السير والسلوك، تركَ أمورًا كثيرة في بداية سلوكه هذا الطريق، كان شابًا وأراد أن يلجم لسانه ويمتنع عن الكلام والحديث الفارغ فوضع في فمه حصاةً حتى إن غدت زرقاء ظهرت في باطن فمه من آثارها، لقد وصل إثر المجاهدات والرياضات التَعبُديَّة إلى درجة الفناء في الله عزّ وجل، لم يعد يحسّ ويهتم بما يجري حوله مهما كان عظيمًا وخطيرًا في نظر الناس.

طالما كان لطيفًا رقيقًا لكنه في النهاية أصبح أكثر رِقةَ ولُطفًا، أصبح شفافًا!

أكمل محمد وهو يهيمُ بما أصف:

- كأن نورَ اللهِ يعبُر مِن خِلاله!

- أجل هو تمامًا كما وصفت؛ كانت لدي مفاهيم مغلوطة قبل ارتباطي به كُنت أقول إنه من الصعب على فتاة أن تغرم برجل متديّن غيور مثله، لكني أدركتُ لاحِقًا أنهُ بِزواجي من رجل فانٍ في الله إلى هذا الحد كان لي من الدُّنيا والآخرةِ الحظ الأوفر...

طوّقتني هالةُ الأسى مُجددًا وأنا أُكمل:

- بعد سنةٍ ونصف تقريبًا، وفي ليلةٍ ظلماء حالكة، كان ليث مُنكبًّا في مُختبره يُجري تجارب على بعض المحاليل لصناعة الأدوية وبينما كان مُنشغلًا باغته رجلٌ قد تسلّل بالخفاء وقف وراءه وباغته بطعنة في ظهره فالتفت ليث إليه وضربه على جبينه بزُجاجة المحلول التي كانت في يده فأحرق ما تساقط منه وجه الرجل وفي ذات اللحظة كان قد غرز الرجل خنجره في قلب ليث فأرداهُ صريعًا يخور في دمه، وذلك كله كان أمام أنظار نور الذي يختبئ في الداخل، فرّ القاتل يصرخ من ألم احتراق وجهه ولولا ذلك لقتل نور أيضًا!

وسط أصوات البكاء التي ارتفعت من الجميع أكملتُ ودموعي تجري:

- هرول نور إلى عمه باكيًا فضمهُ إلى صدره الذي يفورُ بالدماء مودِّعًا، كانت نبرةُ ذلك الصغير مكسورة ضعيفة حين قال من بين محيطات دموعه:

- عمي! ستتركني أيضًا؟

ابتسم بعينين غائرتين من الآلام والأوجاع وقال له بأنفاس مُتقطعة:

- يجبُ أن تبقى، وتعودَ يومًا، يجب أن تُنقذ القرية؛ لا تتركهم أسرى دِمائنا.

قربهُ منه والطفل في نشيج يقطع القلوب، قرأ في أُذنه اليمنى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. [القصص:85] وقرأ في اليُسرى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [القصص:13].

ابتسم في وجهه للمرة الأخيرة، مسح على رأسه للمرة الأخيرة وأغمض عينيه، وهُنا أتيتُ أنا أركض من السلالم وجمدتُ لوهلة حين رأيته مرمى وسط دمائه كُنتُ أنظر في ذهول.

كان مُتوقعًا أن هذا ما سيحدثُ مُنذ الليلة الأولى التي خرجنا بها من القرية، إنه الآن في حالة لا يُمكنني أن أقول له فيها توقف، إنه حقًّا يحتضر!

لكن، ماذا عن كلماته، عينيه، يديه، ليالينا وأيامنا القصيرة اليتيمة...

اقتربت ببطء وخرّ جسدي عِنده، ببَحّة حاربت كلماتي:

- هل أنتَ راحل؟! لكن أحلامي كانت لك فقط...!

- هل أنتَ مُغادِر؟! خُذني إليك مُجددًا أو عُد إليَّ، أرجوك عُد يا حبيبي..

استندتُ إلى صدره وضمّني إليه:

- لم يبق لي أحدٌ أوصيهِ سواكِ، سامحيني، وانصريني بِحفظِ هذا الطفل يا حبيبتي، أخفيه عن عيونهم. أُحِبكُ يا امرأتي، الوداع...

بقيتُ أبكي في حضنه ميتًا:

- خُذْني معك أرجوك، هذه هي المرة الثالثة التي تُغادِرُ فيها آخِذًا روحي، أرجوك لا تتركني دون روح هذه المرة أيضًا، لا تتركني هُنا مَن لي أنا؟! مَن لي سِواك؟ أين سأذهبُ كيف سأنظر في وجه هذه الدُّنيا الخالية مِنك ما الذي أريدهُ منها، ليث، عُد إليَّ يا رَجُلي عُد إليَّ يا حبيبي أو خُذْني إليك.

ابتعدتُ أنظر إلى وجهه، وأجتذب شهقاتي، أغمضتُ عينيه وجررتُ نور من يده، ووليتُ هاربة حين سمعتُ جلبةً قادمة، تركتُ روحي وقلبي وعينيّ هُناك؛ أنا الآن لا شيء من عاتكة لا شيء، كُلها ذهب معه،

أنا آخِرُ أمنية لليث؛ الملاك الحارس لنور فقط!

......

في سفرنا الطويل توقّفنا بأماكن عِدة من هذه الأرض، قد شَهِدت حضورنا صحاري قاحلة، غابات مُظلمة وكانت تتناهى إلينا أصواتُ السِّباع أحيانًا وأحيانًا يُخيم الصمت الرهيب حين يغلبنا سكون الليالي، وكان ذلك يسلبُني الانشراح ويُقلِقُني بعض الشيء إلا أن أيًّا منها لم يكُن موحِشًا؛ لأن فيها ليث! ومن يجرؤ على الخوف في حضرته؟! ثمةَ أمانٌ مبثوثٌ فيه يمكن إدراكه وراء عينيه الغائرتين حُزنًا، وجسده الذي لم يذق طعم الراحة أبدًا، وابتسامتهُ الكسيرة المخصصة لنور ولي...

تسلّلت الوحشة وغاب الأمانُ في تِلك الليلةِ التي عُدتُ فيها وحيدةً بعد مقتله، حين غطيتُ نور نائمًا وانزويت على نفسي بعينين مصدومتين لم تستوعب بعدُ ما جرى فقد بِتُّ وحيدة مقطوعة من كل مكان وتحولت هذه الدُّنيا لعالم أجهلهُ وأخشاه، ضممتُ ركبتيَّ إلى صدري في حيرةٍ من أمري، ماذا أفعل؟ وإلى أين أذهب؟ فقد تركتُ ليث هُناك صريعًا وبالكاد استطعتُ الحصول على مكانٍ نقضي فيه سواد هذه الليلة إذ توسلت أحد العلماء أن يفتح لنا المسجد لكنه أبى وقال: "كيف وكل هذه الدماء تغطيكما! ادخلا لبيتي واستريحا".

كُنتُ مجبرة على تركه من أجل الحفاظ على نور وحفظ وصيّته، في فجر اليوم التالي هربتُ من المدينة بأسرها وغُصتُ في المجهول...

قال أبو محمد:

- كان من المستحيل العودة إلى القرية؛ لأنهم سيقتلونه البتّة، لكن لماذا لم تذهبي إلى عِمرانَ فهو لم يكن فيها أساسًا؟!

نظرتُ إلى أخي نظرة مِلؤها الانكسار والعتب وأنا أتذكر آخر مرة، آخر موقف بيننا...

كُنا ننوي المكوث والاستقرار بجانب أخي عمران، وكان ليث ينوي مواصلة تعليمه معه في ذات المدرسة لكنه قرر المغادرة والرحيل بسبب تعامل عمران الجاف وسخطه الطويل.

ذهبت أودّعه مددتُ يدي وأحنيتُ رأسي لأقبل يده فلم يسمح لي وأشاح بوجهه وصد عني بحنق بينما ينتظرني ليث في الخارج راكبًا العربة ويرى مِن بعيدٍ هذا المنظر المؤلم، أحسّ بانكساري فتجمعت الغُصص في حلقه إذ يرى نفسه السبب لهذا البعد وهذه الغربة وهذا الانكسار الذي حل بي، خرجتُ ودموعي على خدي، ركبتُ العربة وضرب ليث الحصان بالسوط وتحرك فانطلقنا وكل منا مطرق في صمت وحزن مرير.

وبعد أن ابتعدنا خرج عِمران يُراقبُ ابتعادنا مُتألمًا.

التزمتُ الصمت ولم أجب سؤال أبي محمد، لكن يمكنني رؤية الألم والحسرة في عيني أخي الذي يتذكر بالضبط ما أتذكّره أنا الآن.

***

(12)

اليوم الموعود

محمد

بعد أسبوع،

قبل وصولنا للقرية التفتُّ إلى جماعتي:

– يا رِفاق! سيُثيرُ دخولنا كجماعةٍ هكذا الانتباه، لا تدخلوا في زمنٍ واحد، ولندخل مُتسللينَ في أوقاتٍ مُتفرقة، إنهم إن يظهروا عليكم يقتلوكم أو يأسروكم ولن تفلحوا إذن أبدًا.

سبقنا الزبير بدخوله، وانتظر عمران منتصف الليل ليدخل برفقة أخته وهي تُغطي وجهها بالكامل بحجاب أسود.

كانت القرية آنذاك في أوج طربها تتناهى ناحيتهما أصوات المزامير والطبول وصيحاتُ المستمتعين بالخمر والنساء، توقفت عاتكة في دهشة واستغراب:

– ما بال هذه القرية؟! وكيف آل بها الحال إلى المجاهرة بالفِسق والفجور، هذه حربٌ على الله أمام الملأ؟

– كما حارَبوا الله بإحراق الدار جهرةً أمام الملأ!

– تِلكَ كانت مؤامرة! فقد أقنعوا العامةَ بأن ليثًا مُحارِبٌ للعِلمِ مانعٌ للصدقة والخير كاسرٌ مُنتقم قد يقلب القرية عليهم في أي لحظة.

- وهذه أيضًا مؤامرة، فقد أقنعوا العامة أيضًا أن ما هم عليهم من ضلال وانحراف جاء نتيجة التقدم والتطور، ومن يقول غير ذلك فهو مجنونٌ رجعي دون المستوى!

- لقد زُينت لهم أعمالهم فهم يعمهون!

......

أما أنا فانتظرت شروق الشمس حتى دخلت القرية، ولم آوِ لبيتي بعد عناء سفرٍ طويل بل آثرتُ على نفسي صاحبي قيس ورُحت أُنذِره...

أخبرته بما أخبرني به عِمران عن هارون فكان جوابه:

- كلا! لا بد أنكم واهِمون، أنتم لا تعرفون الشيخ هارون حق معرفته فنحن الذين عشنا معه سنينا طويلة، كل شيء قاسيناه من الظلم والجوع والفاقة ومواجهة الكفر هنا في القرية كان معه وبرفقته، لقد كان هو الأستاذ والموجه والأخ والصاحب، دائمًا كان يدافع عن الحق ويطالب بالإصلاح كما أنه لا أحد ينتظر يوم الخلاص للقرية ويتوق له حقًّا أكثر منه!

- كلامك هذا نابعٌ من تأثرك الشديد به ومحبتك له، يجب عليك التمسك بالمبدأ لا بالأشخاص؛ لأن الأشخاص قد يَحيدون عن المبدأ، وعندها ستخسره أنت أيضًا، المواقف التي وقف فيها هارون لا تنطبق مع وصفك أبدًا يجب عليك تقييم الناس حسب مواقفهم لا حسب ما يظهرونه أو ما يُشاع عنهم فقط!

- وهذا أنا أقيِّمه حسب مواقفه التي عشتها أنا معه لا التي توهم بها صاحبك.

- إنني أثقُ بِعمران وأعرفه جيِّدًا.

- أنا أيضًا أثق بهارون وأعرفه جيِّدًا.

هززت رأسي واستدرتُ ذاهبًا؛ لأنه فعلًا لم يكن لديَّ دليل آخر سِوى شكوك عِمران لكن صوته الذي جاء من خلفي استوقفني:

- كما أنه أحرصُ مِنكم جميعًا على إيجاد نور ونصرته وهو الأقرب إليه.

التفتُّ أنظر إليه من خلف كتفي وأقول بهدوء:

- سنرى هذا! حينما يأتي نور سيحكم هو في الأمر.

رفعت كفي ملوِّحًا دون أن ألتفت وأنا خارجٌ من بيته وأقول: "أستودعك الله".

ماريا

فور سماعي بوصول أبي ذهبتُ لاستقباله، احتضنته وقبلت يده وجلستُ معه:

- هل أنت بخير؟! آلجميع بخير؟ ما الذي جرى عليكم هناك أخبرني، أنا أتوق لمعرفة الأخبار.

- وجد عمران عاتكة وأتى بها معه، هي الآن هُنا في بيته، ما الأخبار عندكِ أنتِ هل كل شيء على ما يُرام؟!

- حمدًا لله ما زِلتُ أتنفس ولم أمت، لم تنجح أي من محاولات القتل التي تعرضتُ لها.

ردّ مذعورًا:

- ماذا؟! إن كان سيقتلك في كل الأحوال لِمَ هددني وأجبرني؟!

- الذنبُ ذنب من صدَّق الكاذب، وائتمن الخائن، وأودع القاتل مُهجتَه!

- أجئتِ كي توبّخينني؟

- لم يحاول هو قتلي بل على العكس فقد سعى لِحمايتي

- مَن حاول إذن؟ مَن؟؟

- زوجته، حَبيبتُه أفقدتها الغيرة صوابها.

- أهو جيدٌ مع أهل بيته؟!

- معها فقط؛ فهي حُب حياته، لهما قِصةٌ مثيرة تسترعي الانتباه، كان يحتفِظ بها طِفلةً ويُخبِئها عن أعين البشر في مكانٍ بعيد، رباها وعِندما كبرت أغرما وتزوَّجا، لم تُعاشر بشرًا في حياتها سِواه ولا أحد لها غيره، والغريب أنها راضية ومكتفية ولا يُثيرها الفضول حيال المكان الذي أتت منه أو مَن يكونون أهلها، تخيل أنا أثارني الفضول على النقيض منها!

- غريب! كل ذلك الشر أكان يستطيعُ أن يعطف على طفل ويُحبه؟!

- غريب جِدًّا، ما كان في مروان ناحيةٌ للعاطفة أبدًا، لم يكن يُشفق حتى على الحيوان. لكنه أشفق عليها.

- كم عمرها؟

- لا أعلم، أكبر مني أكيد لكنها تصغره بكثير.

- إن كان ما أظنهُ صحيحًا فيجب أن يكون عمرها إحدى وأربعين..

- ما الذي تظنه؟!

انتبه إليَّ وإلى تركيزي واهتمامي بالأمر فصاح غاضبًا مُتهربًا:

- لا شيء، لا تسألي عن أي شيء.

***

وقف شخصٌ مجهول يظهر من قفاهُ فقط أمام عبد الرحمن فنظر في عينيه بحدَّة:

- هذا أنت؟!

- كيف عرفتني أيها اللعين؟!

- عيبٌ عليك، لستُ أنا من ينسى أعداءه أم هل أقول شُركاءه؟!

- لستُ شريكك أنت قمت بكل شيء وحدك، لا تورّطني.

- كلانا يعرف ما قمُتَ بهِ من تضحياتٍ لأجلي.

- إن كان كذلك فتضحياتي وفضلي كان على الجميع لكنكم جاحِدون، رغم هذا أنا أقف أمامك الآن؛ لإنقاذك مُجددًا

تصبب جبين عبد الرحمن عرقًا:

- ممَ؟

- يجب أن تقتل أولئك الخمسة.

- ولم لا تفعل أنت ذلك؟!

-أنت ستفعل هذا من أجل إنقاذ نفوذك، مكانتك، مُلكك وسيادتك على القرية فكما تعلم أنا لا شيء عندي لأخسره، بالأصح لم يبق شيء!

- ماذا عن روحك؟ ثم إنهم يسعون خلفك أنتَ هو هدفهم ولست أنا، كِلانا يعلمُ أني لستُ القاتِل.

- قتلتهُ بيديك وتقولُ لستَ القاتل؟

- أنت من جهَّز ذلك السُّمَّ وأجبرني.

- لم أجبرك، كانت منافع مشتركة.

أطلق تنهيدة حارة واستدار حول نفسه؛ ليجلس على كرسيه بعدها ويقول:

- على كل حال، إنني أُراقب أشخاصًا وأتحيّن فرصة مناسبة للقضاء عليهم فأنا أتوَق لذلك منك.

- هذا جيد.

- لكن من أريد البدء بهم في بيت ولدي رغم أني زرعتُ الجواسيس هناك أيضًا لكنني لا أعلم كيف أباغته وأنا أدرى بالذي صنعتُه لقد ربّيته على الشر للحد الذي يجعلني الآن أرتعد أمامه، ذلك الوحش الصغير كبر لدرجة أنه قد يدعسني ولا يراني.

* * *

ماريا

لقد كان قلبي يهفو لرؤية عاتكة، وكُنتُ وكأنني سأُقابِل الماضي بأسره، في طريقي إليها التقيتُ بعينيه صدفةً فنزعت مِني قلبي، توقفتُ فاغرةٍ فاهي أتأملُ مظهرهُ الجديد المرتب جِدًا، لقد أضحى شخصًا آخر مُختلفًا تمامًا عن محمد المجنون الذي كانت الصبية تحوم حوله وترميه بالحجارة، على وقع نظراتي اكفهرّت معالم وجهه فأسرع في المشي تاركًا المكان ليغادِرني فقط، ليتخلص من رؤيتي.

لاحقتهُ عيناي والتفتُّ بكل جسدي أراقب ابتعاده، مضى ولم يلتفت وراءه، أخفضتُ أنظاري بألم وأخذتُ أطرق باب عِمران بحزن وخيبات العالم كلها فوق أكتافي.

سِرتُ بهدوء إلى عاتكة توقفتُ أمامها وقد ملأتني الرهبة:

- السَّلامُ عليكِ.

- وعليكِ السَّلام ورحمة الله، يا مرحبًا.

قُلتُ وأنا أتقدم لأجلس بقربها:

- كان والدي الزبير صديق ليث المقرب، كثيرًا ما كان يحدثه عنكِ.

ابتسمت بلطف:

- نعم لقد عرفتك ماريا، حدثوني عنكِ كثيرًا.

ضحِكتُ بحياء وقُلتُ متمتمة:

- حقًا! أنا أيضًا سمعت الكثير عنكِ حتى أحببتك ووددتُ رؤيتك.

- حياك الله يا حبيبتي.

- فكرت أن الحديث معك في هذه الفترة العصيبة التي أمر بها سيكون أمرًا رائعًا، يُثيرني الفضول جِدًّا للتعرف عليكِ، كما أنك أجمل بكثيرٍ مما تصورت!

لوهلة شعرت بأنني سكبت كل ما لدي من الكلام دفعة واحدة ودون تفكير أو تنسيق وذلك لارتباكي الشديد لكنها لطيفةٌ جدًّا وقد خفّفت من وقع إحراجي بتفهمها وابتسامتها الدائمة، قالت:

- أشكركِ.

- أنا مُعجبةٌ بشجاعتك ولا يمكنك تصور فرحتي حين علمتُ أنك ما تركتِ ليثًا، كما أنني منبهرة بوقوفك أمام الدُّنيا للّحاقِ بقلبكِ، تعلمين ليس كلٌّ منّا لديه القدرة ولا النَّفَس الكافي للركض وراء قلبه، الأغلب

يجد الموت في التخلي أسهل بكثير من الحياة التي يقف فيها ضد الجميع، البعض قد يدفنه والآخر قد يودعه إلى الأبد.

- ماذا فعلتِ أنت؟

قُلتُ وأنا أتذكرُ مغادرته من أمامي قبل قليل:

- أظن أنني غرزتُ فيه سكينًا.

- في نظركِ أنا لحقتُ بقلبي واحتفظتُ به...!

- كان أمرًا مَهولًا.

- لكنّ ما فعلتهُ في أعين العُقلاءِ كان خطأً فادحًا.

- أعرف! لكن لا مجال للعقل. لكن! موتُ ليث أمام عينيكِ، ضياعُكِ بعده، وغربتك ووحدتك، ألم تشعري بالندم ولو لوهلة؟!

- كلا أبدًا، أنا الآن راضيةٌ مطمئنة؛ لأن ليث بانتظاري، نحن لم نفترق فالموت ليس فناءً أبديًّا، إنه انتقال وهو سبقني فقط، إنهُ لي إلى الأبد، ولو لم أفعل لما اجتمعتُ به لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، لو لم أفعل لكُنتُ الآن نادِمةً أشد الندم على خطأ لم أرتكبه، وستمضي حياتي بالندم؛ لأنني لم أملك جَسارة التفكير بنفسي دون الجميع ولا شيء سيعوضني، أنا سعيدة؛ لأني استطعتُ أن أكون زوجة له في حياته القصيرة هُنا، واستطعتُ الحصول على ضمان يجعلني زوجته في الجنة.

- أمّا أنا فسأبقى أعيش الحياةَ التي لا تمت إليَّ بصلة، وأظن أنني سأموتُ كما لم أحلُم يومًا وسيكون عالمي الآخر مليئًا بالندم أيضًا.

- إن اختيار الدُّنيا الصحيحة يُعين على آخِرةٍ صحيحة، وبعض الأخطاء رُبما ستعطيكِ حياةً جديرةً بالحياة وبعض القرارات الصائبة قد تكون نهايتك الأليمة، نهاية دُنياك وآخرتك، قد تخرجين من حياةٍ كان سلككِ فيها صحيحًا وتندمين أشد الندم على خطأ لم ترتكبيه؛ لأنه كان بإمكانه تصحيحُ كل شيء.

......

عُدتُ إلى البيت دخلتُ غرفتي وجلستُ على السرير بِوجوم قد تزاحمت في رأسي كل الخيبات والآلام ونظرةُ محمد تلك أكثر ما تردد أمامي، ضاق نفَسي فبدأت آخذُ شهيقًا يعقبه شهيق دون فائدة تُرجى حتى ارتميت على الفراش أبكي بنشيجٍ أحزَنَ كل مَن في البيت، فقد كانت زهرة تراقبني من خلف النافذة بينما تقف أم عمرو خلفها بملامح متأثرة تضم يديها إلى صدرها، التفتت زهرة بوجه موشك على البكاء وسألت أم عمرو:

- ألا تعلمين ما بها؟

هزت رأسها نفيًا فدخلت زهرة الغرفة جلست على السرير قربي مسحَت على شعري بتردد فانتبهتُ وألقيت بنفسي في حضنها من فرط الوحدة والحيرة، جمدَت زهرة وسط دهشتها فما كان منها إلا أن طوقتني بيديها واحتضنتني في حُنوّ:

– ما بكِ...؟ ما بكِ يا ماريا؟! لِمَ تبكين هكذا قطّعتِ قلوبنا؟ كم ضربكِ مروان، وكم حاولت قتلك، لم نسمع يومًا شهقاتٍ كهذه ولم نرَ الدموع تحفر خديك كما تفعلُ الآن.

صرختُ باكية:

– لقد عبسَ في وجهي وغادر المكان لئلا يراني، نظر إليَّ لوهلةٍ كما لو كُنتُ شيطانًا رجيمًا، أنا لا حيلةَ لي، كم رقّ قلبي عِند رؤيته وكم قسى قلبه، ما أقساهُ! يا زهرة ما أقساه!

– الحُب يفعل ما لا يفعله حدّ السيف، وما أخطَر النظرةَ الغريبة في عينِ من كان يومًا حبيبًا.

– ما أُحِسّهُ الآن أقسى من ضرب مروان وتجريحه لجسدي بالخناجر، وإن الهواء ليَنفَد من رئتي وأختنق بقدر لم أحسّه حينما حاولت قتلي خنقًا بالوسادة، أنا لا يُمكِنني العيش بينما هو قريبٌ وبعيدٌ هكذا.

مسحت عليّ:

– اهدئي الآن أرجوكِ.

صاحت بصوتها لخارج الغرفة:

– اجلبي قدحًا من الماء يا أم عمرو.

* * *

محمد

رُبما يرتدي الحنينُ جلباب القساوة وتفرض على القلب الظروف؛ ليستعير غير نبضاته حينها يختلفُ الظاهر عن الباطن فترى الناس القسوة والكراهية ويُدفن الحُب خلف جدار مجهول، وما يكتبهُ الله لا يغيرهُ الإنسان...

هبط الليل وكان كل شيء في المدينة هادئًا، إلا قلبي....

* * *

ماريا

هدّأتني بحديثها الناعم واستنطقتْني؛ لأحكي لها عن محمد، وبعد حديث طويل قالت:

- شوّقتني لرؤيته كثيرًا.

أغمضت عيني وأنا أسند رأسي إلى ركبتها:

- أريد النسيان، هل سأنسى يا زهرة!

- يؤسِفُني أن جوابي لن يزيدكِ إلا ألمًا.

- كم سنةً احتفظتِ بِتلك الدمية؟

- مدة أربع وثلاثين سنة.

كان سؤالًا عاديًّا ولوهلةٍ كان الجواب أيضًا عاديًا لولا أن عقلي بدأ بالعمل، واتسعت عيناي إدراكًا بأنه عندما أعطى مروان الدمية لزهرة

كان عمرها سبع سنوات، أربع وثلاثون سنة إلى الآن زائدًا تِلك السَّبعة يساوي إحدى وأربعين،

نهضتُ فَزِعةً أنظر لعينيها، قالت:

- ما بكِ؟ ما الأمر..

انتبهتُ على نفسي فأغمضت عيني؛ لأبعد نظرات الفزع عنها، وأنا أقول:

- لا شيء.

لم أترك أبي تلك الليلة إلا بعدما أخبرني بأنها قد تكون أخت محمد التي بحث عنها الشيخ هادي، أردتُ التريُّث قبل البَوح لها لكن شيئًا ما حال دون ذلك فخانتني الكلمات وفرّت من شفتي:

- ألا يُثيركِ الفضول حيال أهلك!

- لِمَ تسألينني هذا الآن؟

- إن جئتكِ بخبر عن أحدهم أتصدُّقين؟!

- أتعرفين شيئًا؟

- ...

- قولي!

- كيف أقول لكِ بأنكِ قد تكونين أخت محمد!

نزَّتْ من مكانها:

- ماذا؟ محمد نفســه؟! محمد الذي تحدَّثتِ عنهُ وبكيتِ عليه منذ ساعاتٍ هُنا؟!

ضَحِكتْ هازئة...

* * *

أحسَّ عبد الرحمن بأن العالم يتداعى فوق رأسه عِندما أتاهُ غلامه بخبرٍ من بيت مروان...

هوى على عَتبة داره واضعًا يديه على رأسه، هَمهمَ وقد جحظت عيناه المصدومتان: "ما الذي فعلتهَ أيها اللعين؟ أيُّ مصيبة قد جلبتَ على رأسي؟ لقد ربيتَ في حُضنك فضيحتي وكبّرتها ثم وضعتها في وسط حياتنا، بالرغم من كل تِلك القسوة والتحكم لم أستطع السيطرةَ عليك حتى أنني كُنت أنسف عقلك وشخصيتك فقط لتكون نسخة مني تخدمني بما يخدم مصالحي، لقد استطعتُ السيطرة على كل شيء في حياته إلا قلبه؛ في منفذٍ ما سيفرّ القلب اللعين دائمًا ويَحيد عن الطريق. ما العمل الآن؟ يجب ألا تكون موجودة في حياتنا، يجب ألا تكون موجودة في الحياة أصلًا، لكن كيف؟ كيف سأتخلص منها، دون أن يُزهق مروان روحي؟ يجب أن أتخلص منها بعيدًا عنه!".

......

اتفق عبد الرحمن مع أحد المجهولين ورمى له صرّة من المال وقال:

– الباقي بعد إكمال المهمة، المهمة صعبة جدًّا، فهي لا تخرج من البيت أبدًا، أنا أريد منك مراقبة البيت ليل نهار حتى تخرج وإن لم تخرج فاخْتَلِقْ أنت الفرصة وأخرجها بأي ثمن؛ لتقتلها في أي مكان بعيد عن مروان، فإن أحسّ بك لن يبقيك حيًّا.

نهض الرجل واتجه لمهمّته ورابط في ناحية يستطيع فيها مراقبة منزل مروان.

* * *

ماريا

قُلتُ وأنا أضمّ يدي بترجٍّ:

– أرجوك يجب أن أؤمّن لك لقاء به؛ إنه أخوك.

– يجب أن أسأل مروان.

– كلا لا تتهوّري فلو أراد لأخبرك، لكنه أخفاكِ وأخفى الأمر عنكِ، كما أن محمدًا ألدّ أعدائه.

سألت وعيناها في حيرة:

– ماذا أفعل!؟

– ثقي بي!

- حسنًا، أريدُ رؤيته من بعيدٍ فقط.

- نخرجُ معًا غدًا صباحًا فهو وقت نوم مروان ووقت استيقاظ محمد.

* * *

خرجنا صباحًا، لم نشعر بمن يتعقبنا، وفي زاوية ما وقفت برفقة زهرة؛ لتشاهد محمدًا عن كثَب...

كانت تراقبه بعينين دامعتين، وكان صوت أنفاسها المرتبكة يغمر مسامعي فجأة وكأنها لم تحتمل البقاء أكثر استدارت قائلة:

- هذا يكفي فلنعد أدراجنا.

وفي أحد الأزقّة وحيث تخلو القرية من الناس في مثل هذا الوقت من الصباح، أفزعنا أحدهم بقطعه علينا الطريق، رفع خنجره في وجهنا كتهديد، كانت خطواتنا تتراجع للوراء، قالت زهرة وهي تتلفت:

- ماذا يجري؟ مَن أنتم؟!

قام الرجل بالتصفير لأصحابه الذين لم يتوانوا عن الإمساك بنا على حين غرّة ومحاولة اختطافنا وفي وسط صراخنا ومحاولاتنا للإفلات حضر محمد مسرعًا وأبعد الرجل عني بعنف ولكمه لكمةً أسقطتهُ أرضًا وأبعد الرجل الذي يمسك زهرة ورماه بعيدًا فما كان من الرجال إلا التّسحّب من المكان والفرار بذلّ.

نظر محمد في عيني ثم في عيني زهرة بنظرة أربكتها قال وهو يجذب أنفاسه:

- هل أنتما بخير؟!

هزّت زهرة رأسها فيما كانت تحاول التقاط أنفاسها قائلة قبل أن تمسك يدي وتهرول عائدة للبيت:

- شكرًا لك.

......

كانت زهرة تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا بتوتر وخوف:

- ماذا نفعل الآن؟ أحدهم يحاول قتلنا.

ببرودٍ استفزّها قُلتُ:

- ههههه هذا الأمر جديد عليك فقط.

- يجب أن أخبر مروان؛ ليحميني.

- هل ستخبرينه بالأمر الذي دفعك للخروج أيضًا!

- هذا صحيح لن أستطيع يا إلهي في أي ورطة وقعت يجب أن نفعل حيال هذا الهجوم شيئًا.

* * *

في ليلةٍ كان أهل الباطل يتوافدون لإقامة مجالسهم كما هي العادة، حين ذهب أول فاسقٍ منهم ليرتب الأوضاع وجد أن كل شيء مُحطمًا، الطبول والدفوف وأكشاك البيع والبضائع.

أما الساحة التي يقام فيها الرقص وتُعزف فيها المزاميرُ وتُدق فيها الطبول والدفوف فإنها تحترق بالكامل...

فرّ مذهولًا مما رأى، صار يجري في أزقة القرية ويصرخ:

- الساحة تحترق، أرزاقكم تحترق، كل شيء يحترق.

بدأت الأبواب في الأزقّة تفتح حين يمرّ بها صوته إلى أن اجتمع الناس كلهم في الساحة يشهدون الحريق المهول.

تداخلت أصوات الجميع بين مَن يتذمر ساخطًا ومَن يدعو بالويل والثبور مرعوبًا والبعض الآخر كان يتساءل غاضبًا عمن فعل هذا وهرب!

قال قائل:

- لِماذا تتعجبون!؟ طالما هدّد محمد بهذا.

- مَن هو محمد؟

- أجل هذا صحيح، هناك رجل يدعى محمدًا كان يقول إنه سينال منا ويفعل هذا!؟

كانت ابتسامة خبيثة قد برقَت على شفتي مروان وعيناه تقدحان شررًا، تمتم قائلًا: "الآن جنيت على نفسك يا محمد".

صاح بأعلى صوته:

– اذهبوا وأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، اسحبوه من ثيابه إن لزم الأمر.

* * *

صاح عمران غاضبًا في وجه محمد:

– لكن ما الذي فعلته؟ لماذا؟ ألم نتّفق على السير وفق الخطة؟؟؟ ها قد دمرت كل شيء! وعطلت أمورنا وعلّقتها بفعلتك هذه.

– لكن! أنا لم أفعل شيئًا أقسم لك لم أحرق ولم أكسر.

هدأت ملامح الغضب في وجه عِمران لتخيم عليه الدهشة والحيرة، عقد حاجبيه مُتسائلًا بتمتمة:

– م، من الفاعلُ إذا...؟

في هذه الأثناء رجفَ باب البيت بقوة وسرعان ما هجم اثنان واقتادوا محمدًا دون إمهاله.

دفعوا به أمام الجميع مكبل اليدين فتطاير شعره للأمام، والتفت ينظر بحدَّة وغيظ لِمَن دفعوه، أدار ناظره في المكان الذي أضحى رمادًا فعلت وجهه تباشيرُ الفرح ثم انفجرَ ضاحكًا ومحاولًا نطق الكلمات بصعوبة جراء الضحك.

تخطى مروان الجموع حتى وصل لمحمد وصفعه صفعة قوية على وجهه:

- تضحكُ أيها المجرم؟!

تبدلت ملامح محمد إلى الغيظ الشديد فصاح مستنكرًا:

- أنا مجرم؟!

رد مروان بغضب:

- أجل، أنت مجرم تهدد أمن الجميع هُنا يجب الاقتصاص منك بإعدامك على فعلتك هذه.

التفت ليواجه الناس ويطلق أمره وملامح الانتعاش تتسلّل لوجهه:

- عَلِّقوه! وأَحْرِقوه!

بدؤوا بتنفيذ الأمر بينما يلطم عمران على رأسه من هول الموقف.

ماريا

وفي مكان بعيد كُنت أنا وزهرة مكبّلتين وعلى فمنا لثامٌ يمنعنا من الصراخ أو الحديث دخل عندها عبد الرحمن وهو يضحك بشكل مرعب:

- إنه اليوم الموعود يا زوجتا ولدي...

تلفت حوله فاتحًا باعه وهو يصيح بسعادة عارمة في الفضاء الفارغ:

- إنه اليوم الموعود أيها السادة جميعًا، اليوم سأقضي عليكما للأبد بينما يقضي ولدي على محمد أمام الملأ الآن.

اقترب مني وأحنى وجهه إليَّ وقال:

- سيُحرقُ أمام المسجد كما أحرق أرزاق الجميع وحاول قتلهم.

كُنت أحاول الصراخ لكن اللثام قد كتم صوتي، وكنت أحاول الإفلات لكن الحبال قيدتني، كنت أعترك مع نفسي ودموعي تُغرقني، ولم يبق لي غيرُ الدعاء فقد رفعت مُقلتيّ المحمرّتين المملوءتين دمعًا نحو السماء: "إلهي، إن كان نور هذا حيًّا، وكان هو وجدّهُ على حقّ فأخرجهُ الآن وأنقِذ محمدًا".

فيما كانت زهرة أيضًا تعتفر بقربي وتحاول الإفلات والصراخ دون جدوى، لقد كانت محقة ما كان علينا الصمت وتجاهل محاولة اختطافنا الأولى.

* * *

فوق خشبة رفيعة تمّ تعليق محمد، وصار يُرجم بالحجارة من الجميع، وقد جُمِعَ الحطب تحت رجليه، وحين همُّوا بإشعال النار فيها جاء صوتُ من المسجد يصيح فيهم بغضب:

- حسبُكم أيها الظالمون!.

خرج رجلٌ من داخل المسجد ذو هيبةٍ ووقار وحضور قوي جعل الكل مشدوهًا أمامه وهو يُشبه إلى حدٍّ كبير الشيخ هادي، انتزعهم الذّهول من فتنة صدمتهم، وقد اختلفت آراؤهم حوله فمنهم مَن يقول إنه هادي، قد عاد، ومنهم مَن يتساءل عن هويته بلهفة، ومنهم مَن أدرك وفَهِم أنه نور، وقد جاء لينقذ محمدًا أخيرًا، زأر كالأسد يُخاطب الجميع:

- ما أنتم فاعلون بأخي وصديقي؟ ها؟!

ولأول مرة تلكّأ مروان وارتبكَ وكاد يتعثّر بينما تتراجع خطواته للوراء وهو يسأل:

- م، م، مـ مَن أنت؟!

رمقهُ بنظرةٍ كانت كفيلة بقتله:

- أونسيتني؟

التفتَ وأدار ناظريه في الجميع متجاهلًا مروان، وقال بفصاحة وصوت خطف القلوب:

- إنني أنا نور حفيدُ الشيخ هادي الذي قتلوهُ ظُلمًا وعدونًا.

اشرأبّت أعناق الجميع نحوه، وقد ارتعدت فرائصهم، ودخل الرعب قلوبهم، وطارت ألبابُ عقولهم، فيما بدأ محمد يصرخ ويصيح في أوساطهم:

- أرأيتم؟! لستُ مجنونًا، كل ما رويته كان حقيقة، وكل ما انتظرتهُ كان آتيًا، كل ما قلته حقيقة لم يكن جنونًا أو محض ألم وحزن.

وفي نظرةٍ تأمل بعيد لمعت ابتسامةٌ تُشبهُ الانتصار على شفتي نور وأمال رأسه ناحية محمد الذي يقف بجانبه فأسرَّ إليه قائلًا: "تأكد يا مُحمد؟ يومًا ما سيقفُ العالم موقف أهل هذه القرية ولو لم يبقَ من الدُّنيا إلا يومٌ واحد".

ومن بعيد وحيث لم يكن هناك صوت في حضور نور سوى زفيف الريح وحفيف الأشجار تناهت إلى الجميع أصوات أقدام تركض، تركض ناحيتهم وحين توقف الغُلام متكئًا على ركبتيه يلهث التفت إليه الجميع وقد خاطب مروان قائلا:

- لقد قُتلت زوجتاك يا مروان، زهرة وماريا قتلهما أبوك.

(13)

القاتـــل

قبل أسبوع

محمد

كنا مجتمعين في كوخ أبي، أخبرتنا عاتكة أنهُ في طريقه إلينا، جلسنا في انتظار وصوله، كان الجميع هادئًا متماسكًا، إلا أنا...

أحومُ مُتوترًا في الصحراء، ومهما طلب مني عمران الجلوس لم أستطع:

- أقسم عليك بأن تقعد فقد أرهقتني بكثرة ذهابك وإيابك.

تقدمتُ وجلستُ بينه وبين الزبير وصرت أهز جسدي وأنزّ مما جعل الزبير يلتفت لعمران قائلًا:

- لو تركته يحوم حول نفسه بعيدًا عنا لكان أفضل.

لحظاتٌ فقط تفصلني عن مقابلة طفولتي وحبها الجميل وعهدها، بعد قليل ستحط أتعاب السنين رِكابها.

كُنتُ أرتعد خوفًا من أن تكون هذه هي المرة الثانية التي أعود فيها وحيدًا دون رؤيته، أخشى أن يستمر القدر في الحول بيننا، أرجوك أن تأتي ولا تكن أنت أيضًا شريكًا للقدر بتلك الجريمة النكراء.

عـدتُ أراقب الطريق بقلة صـبر وأضرب فخذي الأيمن، قال عمران:

- ما بك يا محمد؟

- لقد تأخر.

- لكنهُ في النهايةِ آتٍ، تماسك أرجوك أنا أخشى أن تموت قبل أن يصل إلى هُنا.

- إي والله، أخالُ أنني سألقى حتفي أو سيجنّ جنوني إن لم أرَه.

وفي لحظةٍ خلَّفتُهم والعالم كله ورائي وتقدّمت لأقفَ على قارعة الطريق، وبقيتُ أراقب حتى لاحت لي من بعيد جدًّا نقطة تقترب كي يتضح فيما بعد أنه فارِسٌ قادم!

هرولت نحوه أتعثر وأقوم وأقع، وأقومُ مُترنّحًا وكأن لا أرض ولا موطئَ تستقر عليه قدماي لمجرد لمحي لخياله...

لم أكن أتصور حدوث كل ذلك بي وبقلبي، اختلط كل شيء لحظة اللقاء، وفاض بي دمعٌ، ترجّل من جواده وقد أشعلت إشراقةُ وجهه في نفسي مَجامر العود ونفحتهُ نضحَت قوارير الطيوب، وأظن أنني قد أصبت بما أرجو في دُنيتي...

ركض ناحيتي، هذا الذي ما سكنت نفسي يومًا ولا استقرت في فراقه، هذه نهايةُ الشوق الذي قضَّ مضجعي وسَهّدَ ليلي، تخلَّلتني وصلة من أحر البكاء وأشجاه وأنا أنكبُّ عليه فأعانقه.

نظر إليَّ ووجهه يتألّق ويُزهِرُ لطفًا وقال:

- محمد! لقد اشتقتُ إليك كم طال هذا البُعد!

تراكض الجميع نحونا أحاطوه وعانقوه وقبلوه:

- أين كُنت؟

- أطلت الغياب كثيرًا.

- لقد انتظرتُك طويلًا، قضيتُ عمري في انتظاركِ يا صديقي، لِمَ لم تأت إليَّ؟ ظننتُ أنك نسيتني.

قال وهو يعانقنا ويمرر كفيه على أكتافنا ويقول وعيناه مليئة بدموع الفرح:

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

- أبدًا، إنني غير ناسٍ لذكركم، كُنتُ أنتظركم! كُنت أنتظر أصدقاء وأعوانًا؛ مستعدون لنصرتي ولخوض حرب معي ضد الظالمين، وها قد أتيت والعيال من خلفي عِندما وصلتني رسالتكم.

تخطانا وذهب ليقبل رأس عاتكة فتسأله:

- حللت أهلًا ووطئت سهلًا يا نور عيني، كيف حالكم؟ كيف حال ابنتي وحفيداي؟

اتجهت أنظارنا جميعًا نحوها فقالت:

- ما بكم! لقد تزوج نور بابنتي كوثر التي أعادت ضِحكة الحياةِ لوالدها.

التفت إلينا نور ليُكمل والابتسامة ملء شفتيه:

- ورُزقنا بتوأمين "هادي وليث".

- ما شاء الله، ما شاء الله.

- قُل إن أُسرة الشيخ هادي تعود مُجددًا بأكملها.

- حمدًا لله، الحمد لله.

التفت نور إليَّ مُهتمًا مبتسمًا:

- كيف حالك يا محمد؟ ما لي أراك بهذه الحالة؟

- أيُّ حالةٍ تعني؟

- لِمَ تبدو كالمساكين الضعفاء، لم أعهد صاحبي وأخي كذلك.

- لم يرضَ نور لي إلا أبهى وأجمل حُلَّة؛ فقد قام بإهدائي قفطانًا عنبريًا جميلًا، ورتَّب لي شعري وذقني حتى بدوت شخصًا نبيلًا.

......

- نور! لقد وجدتُ أبي، وجدته بينما كُنتُ أبحث عنك.

- حقًّا! كيف؟

- لم يمت بل إن مشعوذةً ألقت عليه سِحرًا فحبستهُ هُنا، إننا نبقى عنده لكنه لا يستطيع الخروج.

- سنبُطِله، سنبُطِلُ هذا السحر.

- أتعرف؟

- طبعًا، هيا بنا خذني إليه.

في كوخ أبي، جلسنا جميعًا فيما يمسك نور بيد أبي ويقول:

- اكتب على يدك اليمنى بالزعفران متوضئًا لمدة سبعة أيام والْعَقها على الريق، هذه الآية: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. [النساء:100].

قُلتُ:

- سنراهُ في القريةِ بعد أسبوع؟

قال نور:

- بإذن الله.

قال أبي:

- كم اشتقتُ للقرية.

استنكر الزُبير:

- اشتقت لها!

قُلتُ:

- أمّا أنا فأود إحراقها فوق رؤوس الجميع فلتحيا الثورة أخيرًا.

قال نور:

- كلَّا، كلَّا لا يجوز أن تكون عدوانيًّا؛ لكي تكون ثائرًا، فالثائرُ الحقيقي يثور لفيضان نبع الحب في قلبه لا لجريان نهر الحقد في دمه. فلنضع خُطةً مُحكمةً الآن بدل هذه الأفكار الطائشة....

......

وفي فجرٍ يخلو من الجميع وقف نور على أسوار القرية حضر أمامه طيف ليث وهو يحتضر وتردد صوته في مسامعه وهو يقرأ في أذنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. [القصص:85].

وقف يتأمل منظرها، الأرض صَلدة مُتشقّقة وللسماء لون أسود قاتم، وبينما نحن كذلك تناهت إلينا أصوات فزعٍ عهدتها القرية كصوت امرأة تصرخ عاليًا وأقدام تتراكض بعيدًا، قال وهو يهيم في ضباب الذاكرة: "هذه القريةُ كانت آمنةً مُطمئنة يأتيها رِزقُها رغدًا فكفرت بأنعم الله".

وحين جلس عند قبر أمه تردد صدى صوت ليث وهو يقرأ في أذنه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. [القصص:13].

* * *

بعد أسبوع، حينما جاء النذير بخبر مقتل زهرة وماريا انتفضتُ وكِدتُ ألحق بمروان لولا أن نور منعني بيده التي حالت بيني بين التقدم شبرًا:

- اهدأ..

- إحداهما أختي والأُخرى..

- أعلم! أخبرني الزُبير بكل شيء كما أخبرك.

- لكن!

قال كي أفهم وأستقرّ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. [النمل:50].

......

بينما كان مروان يركض كان أبوه يركض إليه أيضًا وبمجرد أن التقيا انقضّ مروان على ياقة أبيه ولكمَه فسقط على الأرض بشفاهٍ دامية وصار يزحف للوراء ويقول:

- تريّث يا مروان تريّث، إنهما على قيد الحياة لم أقتلهما لقد افتعلتُ هذه الخطة كي ألتقيك.

صرخ بغضب:

- أين هما؟!

- في مكانٍ آمن صدقني.

- مَن سمح لك بدخول بيتي وأخذهما؟! ماذا أردت منهما؟

- ماريا يجب أن تموت؛ لأنها اكتشفت حقيقتي، وكُنت أنت ستقتلُ محمدًا والدور قادم على عمران وزبير.

- اكتشفوا حقيقتك؟ لكن كيف؟ ومتى؟ ولِمَ لم تُخبرني؟

- لأنك مُتقلِبُ الأهواء وقد تغدر بي.

- أنا؟ أنا أغدرُ بك؟؟ لماذا؟

- لماذا لم تخبرني طيلة هذه السنين أنك اعتنيتَ بأخت محمد، وكأن هذا لم يكفِ بل وأخذتها ووضعتها بيننا كزوجة لك، بالله عليك كيف تفعلُ هذا؟ كيف تجرأت؟! ما هذا الذي فعلته؟! تلك الفتاة، تلك الفتاة لو اكتشف أمرها ستكون أكبر دليل ضدنا، أكبر شاهد على جرائمنا.

أشاح مروان بوجهه في صمت ثم التفت وسأل ليتأكد:

- أمتأكدٌ أنت من أنهما بخير؟! ألم تفعل لهما شيئًا؟؟

- اذْهَب وانظُر بنفسك، لكن قبل ذلك أخبرني، أصحيحُ ما وصل إليَّ؟ هل ظهر نور حقًا؟!

قال وهو يحث خطاه ليذهب ويتأكد من سلامتهما:

- أجل أجل، ولم يعد هناك داعٍ ليفضـحك وجود زهرة ويكشـف جرائمك فنور يفعل هذا الآن في الساحة أمام الجميع!

- لقد أخبرني عثمان أنهم وجدوا عاتكة التي كانت متزوجة بليث دون أن يعلم أحد، لكنني لم أتصور أن يخرج بهذه السرعة، اللعنة كيف سنواجهه دون خطة جاهزة!

- كُنا نحتمل قدومه وقد جهزنا عُدة لقتاله لكنهُ باغتَنا! إن كان لديك شيء ففكر به الآن قبل أن نعود إلى الساحة.

التفت مروان غاضبًا إلى أبيه المذهول أمام منظر المكان الخالي من زهرة وماريا، شدَّه من ياقته:

- ما هذا؟ إنني لا أجد أحدًا، أين هما؟ تكلَّمْ!

- صدقني لا أعلم أحدهم دبّر مكيدة.

- لا أحد يتفوق عليك في تدبير المكائد.

- هل ستتعارك الآن هُنا بينما حياتنا تنتهي في القرية؟؟

......

تفرق الجموع ليفسحوا لعبد الرحمن ومروان بالعبور من بينهم نحو نور، توقف عبد الرحمن قُبالة نور وفي حيلة جديدة قال:

- نور! ولدي أهلًا بك بين أهلك وأحبائك.

حين اكتفى نور بنظرة حادة وجَّهها إليه اضطر أن يعقِّب قائلًا:

- يُقال إنك أتيت ثائِرًا لجدك، هيا قُل يا ولدي، قل يا حبيبي مَن الذي قتله؟

أمام أعين الجميع المرتقبين إجابته، تقدَّم نور وأهوى على عبد الرحمن بضربة أسقطته أرضًا، وقال بحدة وهو ينظر بثقة إليه وإلى ابنه مروان:

- رُدّها عليَّ إن استطعت.

ارتفع الضجيجُ بين الناس فقطعه صوت نور الذي قال:

- ادخل يا أبا محمد، وارْوِ لنا الحكاية مُنذ البِداية.

دخل أبو محمد الذي أذهلت عودته الجميع وحين أنهي سرد الجزء الموكل إليه أكمل نور الباقي قائلًا:

- كان من المقرر حبس أبي محمد وقتل عائلته؛ لذلك طارد عبد الرحمن محمدًا وحاول اختطافه إنما لقتله وليس لإضعاف جدي أو تَشويه سُمعته كل ما قاله حينما كان يُرجم أمام الملأ ويُضرب من الناس ما هو إلا ذرائعُ وحجج واهية، لم تكن اعترافاتٌ حقيقيَّة، ولم يكن هُنالك ندم ولا توبة! فعندما كشف جدي ألاعيبَه وتعاونه مع السحرة والمشعوذين لم يجد بُدًّا من التخلص منه.. لكنه ليس القاتل الحقيقي! إن لهُ شريكًا خفيًّا، أتريد أن تخبرهم أيها العمدة عثمان لماذا قتلتَ جدي؟ أم هل أقول يا شيخ هارون!؟

اشْرأبّت أعناق الجميع حوله وعلَت الغمغمات:

- ماذا؟

- الشيخ هارون هل هو العمدة عُثمان نفسه!؟

- لكن كيف؟!

تقدم الشيخ عمران ونظر في وجه هارون مُقطب الحاجبين:

- أهذا أنتَ حقًّا؟؟

وجه نور خِطابه للشيخ عمران:

- أجل هذا هو، تبدو قسمات وجهه مختلفة؛ لأن عمي أحرقَه! ولم يبقَ شيء من تلك الملامح التي عهدتموها، أتريد إخبار الجميع يا شيخ عِمران لماذا قتل العمدة عثمان جدي؟ ولِماذا طاردنا من أقصى الأرضِ وقتل عمي؟

قال في ذهول وغير تصديق:

- ألأنهُ حكم بالعدل؟؟!

هُنا اعتلت صرخة عُثمان:

- لقد كُنت كبيرًا في قومي فصغّرني! دمرني وأنهى حياتي.

تقدمت ووَكزتُه بقوة وأنا أعضّ على نواجذي وأقول:

- اللعنة عليك لكن كيف؟ ما الذي فعله لك الشيخ هادي؟

هامَ الشيخ عِمران في ضباب الذاكرة.

يوم المحاكمة..

جلسنا أمام القاضي (الشيخ هادي) كان يُمعن النظر في الأوراق التي قدمها العمدة كأدلة ضدي، وقد جلستُ أنا بِرفقة الرجل الطيب الذي قَبِل أن يشهد لِصالحي بعد أن قلّب القاضي المخطوطات وقرأها جيدًا التفت إلى العمدة وسأله:

- أهذا ما لديكَ فقط؟

- أجل.

التفتَ إليَّ وسألني بصوتٍ يغمرهُ اللطف:

- وأنت يا ولدي عِمران، ألديك ما تود قوله؟!

أجبته بصوتٍ مخنوق:

- أجل يا سيدي، إنني أرفض اتهام العمدة لي، فقد كانت هذه المخطوطات إثباتات لصالح التجار تُفيد بأنهم دفعوا له ثمن بِضاعته التي أوصلتها أنا، ومِن جهتي فقد كُنتُ على وِفاقٍ تام مع العمدة وعلاقة طيبة فلم أجد حاجة في طلب إثبات منه يدل على تسليمي له هذه الأموال، ما كُنت أعتقد أن أحتاج هذا يومًا، الجميع يعرف أنني أعمل معه وهذا جُزءٌ من عملي إيصال البضائع وقبض ثمنها وتسليمه له كما أن تاريخ هذه المخطوطات قديمٌ جِدًّا، لِماذا لم يتفضل العمدة بالمطالبة بها في وقتها بل فعل هذا الآن؟؟

التفت القاضي إلى العمدة كما لو كان يستفسره فقلتُ مُردفًا:

- لديَّ تخمين سيدي، لعله أراد بي سوءًا حين شهِدتُ ضده لصالح التاجر عادل حين اختلفا على مبلغ كبير مِن المال واضطر لدفعه إلى عادل بسبب شهادتي.

بعد أن سمِع القاضي كلامي وأدلى الرجل بشهادته لِصالحي التفت الشيخ هادي إلى العمدة وقال:

- رُدت الدعوى يا عُثمان، لا يُمكن إدانة عِمران، فكلنا نعلم أن هذا هو عملهُ كما أَسلف قبل قليل واستنادًا إلى ذلك وإلى شهادة الرجل وسُمعة عِمران الطيبة التي نعرفها جميعًا أنا أرد دعواك ولا أقبلها..

تجلت أمامي العناية الإلهية وحمدتُ الله على رحمته ورأفته ولُطفه ونصره، تبسَّمتُ وعيناي همّالتان، وفي تِلك اللحظة لم أكن أرى وأشعر سوى بِقربه ووُجوده، كان شعور القُرب هذا مُستَحَقًا لكل ما عانيت وقاسيت، كم كان قريبًا مِني يسمع شكواي ودعائي وما ردني خائبًا.

التفتُّ إلى العمدة أنظر لوجهه الذي تجهَّم وانتفخ واحمرَّ غيظًا، وكانت عيناه تقدحان شررًا، وكأنني بِه يُريد مُعاتبة الشيخ هادي قائلًا: "إنني صديقك كيف لا تحكم لِصالحي".

خرجتُ بِدرسي الذي علمتني إياهُ الحياة: "أحيانًا تكون غلطتك هي فعل الخير لمن لا يستحقه وثقتك بمن ليس أهلًا للثقة".

وأتت تِلك الليلةُ أخيرًا التي استطعتُ فيها الدخول إلى المسجد في وقت السَّحَر حين كان الشيخ هادي يُصلي ويتهجد ذاك التهجد الذي طالما سِمعتهُ من خلف باب المسجد ولم أجرؤ على مُقاطعته بالدخول، تقدمتُ الآن حتى جلستُ بِجانبه أومأَ لي ففهمت دعوته والتحقتُ به رفعتُ كفِّي واقتديتُ بِدعائه.

لاحَ لي قدوم قيس الآن فتقدمت نحوه مُسرعًا:

- أرأيت؟! إن تخميننا كان صحيحًا، هارون خائن!

- لكنني لا أخون! وقد عاهدته على البقاء معه دائمًا إنني مخلص له، إنني من أصحابه هو! افهم إنني "هاروني".

- أجُنِنتَ؟! لا يوجد مَن يدعى بهارون أساسًا؛ إنه العمدة عثمان أتانا مُتنكرًا.

- إنني مجنون أفخر بجنوني.

- كلا بل إنك ممن طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وإنك لمن الغافلين.

قطع حديثنا صوت عثمان الذي خاطب نور بصوت يسمعه الجميع قائلًا:

- أجل، إنني أنا القاتل، ولو عاد بي الزمان لعُدتُ وقتلتك أيضًا، بعد أن قتلتُ عمك لم أعد للقرية أبدًا بل إنني كُنت أجوب أطراف الأرض لسنواتٍ بحثًا عنك، ثم وبعدما آيستُ عُدتُ لأنني أعلم أن القرية ستكون آخِرَ مطافٍ لك، فاعتزلتُ الناس وانقطعتُ وصِرتُ حِلس داري عسى أن ينسوا العمدة عثمان إلى الأبد، ويتسنى لي بعدها الظهور بشخصية جديدة مناصرة لك كي أكون بها قريبًا منك ومن أخبارك.. كما بحث عنك محمد بحثتُ، وكما انتظرك فعلتُ! لكنهُ انتظرك شوقًا، وبحث عنك حُبًّا فيما انتظرتكُ حقدًا وبحثتُ عنك بغضًا...

أشهر عثمان سيفهُ في وجه نور وصرخ مُتمِمًا حديثه:

- لأظفرَ بك وأقتلك وأُلحِقك بآبائك وأسلافك.

- خسِئت ما كان ذلك لك ولا لأحدٍ مِنهم.

قطعهُ الصوت الذي سرقنا مما كُنا فيه وجعلنا نمدّ الأعناق ناحيته، وأصاب الفزع عثمان وعبد الرحمن حين وقعت أبصارهما على الفارسين القادمين، وقال كل منهما جُملة واحدة من هول الصدمة: "لكنني قتلتُك بيدي!".

قالها عُثمان قاصدًا ليثًا، وقالها عبد الرحمن قاصدًا هاديًا، كان الشابان التوأمان أبناء نور واللذين كانا يحملان ملامح جدّيهما بشكل رهيب، اختلطت الأصوات وعلت الغمغمات:

- لقد عادوا لقد رجعوا، وهذا ما كُنا به مُكذّبين.

* * *

مروان

تركتُ الدُّنيا قائمةً وقاعدةً هناك وأتيتُ أبحث عن زهرة ووجدُتها مع ماريا أخيرًا في سِرداب بعيد خارج القرية، وقد كَثُرَ حُرَّاسه ولأن اجتيازي للحراسة في هذا الوضع مستحيل، رُحتُ أبحث عن مكانٍ أستطيعُ فيه إيصال صوتي لها، وقد كانت هناك نافذة جلستُ عندها وناديتها:

- زهرة...!

- ...

- أريد أن أطمئن عليك أجيبي رجاءً.

لم تُجبني لكني متأكد من أنها تسمعني، أسندتُ ظهري للحائط المشيد من الطين وقُلتُ بأسى:

- أعلمُ أنكِ بخير، لأني أعلم أنّ الذي أخذك نور وليس أبي! وأنها النهاية، أتيتُ لكي أودعكِ! وبينما الجميعُ يُقدم اعترافه هُناك أتيت لأقدم اعترافي هُنا، رُبما لأني لا أستطيع أن أكون كما سأكون الآن إلا معك، وقد ثقلَ صدري...

أرجعتُ رأسي للوراء وأسندته وأنا أتنهّد وأتأوّهُ بمرارة:

- أتى العمدة يومًا لأبي بِسُمٍّ قاتل وتآمر معه على قتل هادي؛ فزاره في مرضه وسقاه أبي السم بالقوة رغم مقاومته، وبعد ذلك ولأنّ ليثًا اكتشف الأمر وجب علينا الوقوف ضده، وجب علينا شنَّ حرب ضده، حرَّضنا الناس وخدعناهم وفرَّقناهم عنه وكانوا كالهمَج، يُخالِفون الأمر رغم أنهم بآذانهم سمِعوه، كان خِداعُهم سهلًا لكن خِداعَ أنفسنا لم يكن كذلك، أنا أتحدث عن نفسي! ترأستُ العِصابة التي أحرقت دارهم وتسبَّبتُ بِموت كوثر بعدما تجرّعت غصّة فِراق أبيها.

وأكادُ أُقسِم أن الجُدرانَ كانت تئِنُ معها، وكُنتُ أخشى أن تُهدم الأسقف فوق رؤوسنا وكُنتُ أنتظرُ السماءَ في كل ليلةٍ أن تُنزل بِنا العذاب الأليم. لكن ذلك العذاب لم ينزل أبدًا، وتِلكَ الأسقفُ لم تُهدم بل إننا بدأنا ننعم بالخيرات والحياة الرغيدة، أصبحنا وجهاء وسادة، وإن نشوة

ذلك كانت تغشاني فتغلب شعوري بالإثم وتأنيب الضمير وكُنتُ قد نسيت...! نسيتُ حديثًا خاطِفًا سمِعتهُ من هادي على منبر المسجِدِ ذات مرة: "إذا رأيت ربك يُتابع عليك نعمه وأنت تَعصيه فاحذَره". لقد جرفتني آثامي وخاتلتني أيامي حتى وصلتُ إلى هُنا، إلى هذا الموقف وهذا المقام، مقامِ المُجرم الحقير...

أطرقتُ برأسي وتمتمتُ:

- المُعترِف... الوداع يا زهرة حياتي.

***

محمد

هذا نور يجوب صفوف مَن التحقَ بنا لمواجهة المجرمين وينظِّمها وهذا عِمران يُعينه وأنا أتولى جانبًا آخر...

بينما اصطفّ هم ومن معهم ممن لا زالوا يصدقونهم!

القوم أبناءُ القوم! هكذا قال نور فمن انخدع بما قالوه عن ليث سلفًا وحاربه يُصدِّق الآن أن نور جاء ليُعذِّبَ ويقتل ويدمر ويتفرد بعدها بكل شيء وحده.

وقفتُ أمام قيس الذي كان في أول صفوف المجرمين ونظرتُ في عينيه بأسى وقُلتُ:

- كُنتُ آملُ أن تهتدي لكن معرفتي بك وبعقلك كانت تخبرني بأنك لن تفعل، طالما تخيلتُ أني أُنقذك من شيء ما، كأن أنصُرك مظلومًا، لكني

أقف الآنَ أمامك ظالمًا لم أكن أتصور أن أراك هُنا في صفوف المجرمين وأن يستمر عنادك حتى النهاية..

......

بدأت المعركة وشَهِدنا بطولات نور أمام أعيننا فما إن برز إليه أحد حتى عاجلهُ بضربة منكرة معجلًا بروحه إلى جهنم وسط دهشة الجميع، كانت الأجسادُ تتساقط عن اليمين وعن الشمال من الفريقين وما زال النِزال محتدمًا وأصوات السيوف المصطكّة قد وصل إلى عنان السماء...

* * *

ماريا

كان رجال نور قد أنقذونا وأخذونا إلى مكانٍ آمن بعيد وهيئوا لنا سُبل الراحة والاستقرار لكنهم بقوا يحرسوننا لأجل الحفاظ على سلامتنا، وبطريقةٍ ما وجدنا مروان وكُنت قد اجتهدت في إقناع زهرة بأنه مجرم يجب عليها التبرّي منه وتركه وبصعوبة بالغة استطعت إقناعها بألا ترد عليه حين أتى مُودعًا، أمَّا الآن ومُنذ أن غادر وهي في حيرة وتوتر تذرع المكان ذهابًا وإيابًا:

- ما كان عليَّ الإصغاءُ إليكِ.

توجهت ناحية الباب فسحبتها من معصمها:

- توقفي، إلى أين؟

- يجب أن أذهب إليه.

- كلا، سيسحبكِ معه إلى الجحيم.

- لن أتركهُ يَرِدها.

- ماذا ستفعلين؟

أفلتت مني وهرولت إلى الخارج ولم أرَ بُدًّا من لحاقي بها وحاول الحرس إيقافنا لكنهم في النهاية مكلّفون بحراستنا وليس حَبسنا، أوقفتها في الطريق ثانية فصفعتني وقالت بِحدَّة:

- اتركيني!

- لن أتركك؛ أنتِ أمانةُ محمد.

وكزتني وهمّت بالذهاب:

- ها قد عرفتِ أنهُ مجرم وتَبرئة قلبك منه باتت إلزاميَّة.

......

ما زالت زهرة تركض وأنا أجري خلفها بصعوبة فقد أثقلني الحمل وبان عليَّ حتى وصلنا ساحة المعركة توقفت زهرة قبلي في مكان قريب تنظر بين الجموع تنقب عن مروان وتبحث عنه، وكان محمد يجول بين الصفوف وفي أطراف الجموع حتى تقابل مع مروان من بعيد وقد أمسك كل منهما برمحه؛ ليرمي به الآخر، وفي اللحظة الحاسمة صاحت زهرة بكل صوتها قبل أن تقتحم المعركة:

- مروااااااان!!

التفتَ إليها في لمح البصر وتوقف مشدوهًا وفي وسط دهشتِه كانت تركض إليه من ناحية فيما يركض إليه رمح محمد من ناحيةٍ أُخرى، ألقت بصدرها فوق صدره واحتضنتهُ وسرعان ما جعلَ الرُّمح عناقهما أبديًّا بأن دخل من ظهر مروان وخرج من ظهر زهرة واستقر بينهما، ابتسم مروان بألم:

- أنا آسف، ذلك الزنديقُ الذي قتلنا هو أخوكِ، ووالدهُ الذي عاد من قبرِهِ أبوكِ.

- أنا لم أعرف أبًا ولا أخًا غيرك.

- آسِفٌ لأننا قد لا نلتقي في الدار الآخرة.

- المرء مع من يُحب! ها قد خرجتُ للدنيا ورأيتها ولم أختر حُبَّ سِواكْ.

جاء محمد يركض بوجهٍ مزّقته الفجيعة فأي حظٍّ هذا الذي جعل أخته تركض ناحية الرمح الذي رماه قبل أن يراها، خرّ عندها وقد مسحته الأحزان وغلبته واستقرت على تقاطيعه وبان عليه الضعف، تمتم:

- كل ذلك الحزن، كل ذلك الشوق والانتظار والتضحيات، أيمكن أن ينسفه ما أصابني بكِ؟! أيمكن للرمح الذي استقر في قلبكِ أن ينتزع من قلبي كل شيء؟ هل سيجعل حزني عليكِ كل ذلك هباءً منثورًا!

قُلتُ بأسى:

- حاولتُ منعها لكنها، لكنها لم تخشَ شيئًا في سبيل أن تودع مَن أحبَّتْ.

- اللعنة على مَن أحبت؛ إن الحُب يا ابنة الزبير مهلك في أغلب الأحيان، بل هذا عشق! وهو حتمًا من الشيطان، لقد أخذها مني إلى الأبد.

انهار باكيًا فأتى عِندها والدهُ وقف بعينين منهمرتين وحاول رفعه من ذِراعه قائلًا:

- كما كانت التضحية في البدايات لا بد من تضحيات أخيرة لنهايةٍ كما نريد، مهما كانت التبعات كبيرة فإن الانتصارات حاسمة ونهائية.

قُلت مؤيدة لكلام أبيه:

- يجب أن تعود وتقاتل الآن بين يدي من انتظرته عُمرًا، يجب أن تتقبل أن تضحيتك هذه في سبيل الإصلاح.

......

لم يزل المقاتلون في كرٍّ وفرٍّ، خرج عبد الرحمن يطلب ثأر ولده فاستقبله نور وبعد صِراعٍ شديد عطف عليه نور بضربة وقعت على رأسه فانجدل صريعًا، ولم يزل ليث بن نور الذي ورث من جدِّه ليث شجاعته يحمل على الميمنة ويعيدها على الميسرة، ويغوص في الأوساط وقد انكفأ عنه الجند وتراجعوا وانحسرت عنه الجموع فاستغاثوا بعثمان فبرز إليه

وثارت غبرةٌ ما انجلَت إلا وعثمان صريعًا ومعه كل أولئك الغادِرون، وانتهت المعركة وقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

* * *

وفجأة في مشهدٍ لم يسبق لي رؤيته في حياتي تغير الكون للحظة وتجمعت سُحب كثيفة وتزاحمت وتراكمت وتعانقت فأمطرت، وصرت أتأمل الأفق وهو يغمرنا بالمطر ويُحيينا ويغسل القرية من تبِعات السنين وصرت أتأمّل بعد ذلك الأرض التي تعانق قطرات المطر المتَراقصة فوقها وتُزيل شوق أربعين سنة من الغياب والهجران، بعد ذلك التفتُّ حولي لأرى الجميع مثلي يدور بسعادة عارمة تحت المطر كما الأطفال، بينما نور يقف فاتحًا باعه ورافعًا رأسه وكفيه للسماء مُبتسمًا مُمتنًا يُردد ويقول:

"الحمدُ لله قاصِم الجبارين، مُبير الظالمين، مدرك الهاربين، الحمد لله رب العالمين".

(14)

ما زِلتُ أنتظره

محمد

عادت أعشاب الريحان تُحيط أسوار البيت الذي أعاد نور بناءه كما لو أنه لم يهدم أبدًا، وعادت رائحتها العبقة تنبعث ممتزجة برائحة التراب المبلل بالمطر، وعادت أوراق العنب المتسلقة تمتد من الجدران في الخارج إلى فوق الباب وحتى الحيطان في الداخل، وعادت أشجارُ الياسمين يزرعها نور معي ومع ولديه وتسقيها زوجته كوثر وأمها عاتكة مع ماريا، عادت المياه تتدفق من نافورة تنتصف الفناء الواسع، لقد أضاءت دار الشيخ هادي مُجدَّدًا بعودة أهلها ودبت فيها الحياة ومُلئت بمكتبات حائط مذهلة رُصَّت بالكتب والمخطوطات...

لقد بدا لي كقصر أثري رائع حقًا.

......

واعتلى صوت الأذان من أعلى المنارة التي تحتضنها الغيوم في سمائنا في مشهدٍ لا مثيل له، وأمّ نور المُصلين، صليتُ خلفه أخيرًا، وبعد انتصاري هذا العظيم نُشِرتُ في مولدٍ جديد.

انقلبت موازين الحياة وأصبح المستضعف المِسكين قويًّا مَكِينًا، رافقتُ نور عِند خروجنا وحين انفك الناس من حوله أكملنا الطريق وحدنا، ولأنه يهتم كثيرًا التفتَ إليَّ يُراقب قسمات وجهي ليتأكد أنه يخلو من أي ألم أو أذى ربت على كتفي وقال:

- كم من همٍّ يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة كم من مصائب طاش عندها لُبّي! لكنها بعين الله! وقد هوّن عليَّ ما نزل بي أنه بعين الله..

- ما يؤلمني هو أنني قتلتها بيدي؛ لقد ماتت برمحي!

بعد آهٍ عميقة أطلقها قال:

- ضمّني عمي في اليوم الذي قُتل فيه وقال: "اسمع يا بُني أنا في السابق وقبل مفارقتي للقرية بأيام لم أكن كما أنا عليه الآن، أصبحتُ كذلك؛ لأنني أدركتُ أن الله اختارني لبلاءٍ عظيم وهو لا يبتلي إلا عباده المحبَّين، أردتُ أن أكون لائقًا بهذا الحُب وهذا الاختيار فأصبحتُ ما أنا عليه الآن، ووددتُ لو أن عمري يطول لأتقرب أكثر وأصل إليه لكنها النهاية على ما يبدو هذه المرة، أتمنى أن يتقبل مني هذا القليل وإن البلاء يا بني من الله خير كثير؛ سيتمنى الناس يوم القيامة لو أنهم ابتلوا والمبتلون سيتمنون لو أنهم زيدوا".

وكانت عيناه ترنوان بنظرةٍ حانية حين توقف وقال:

- أنا لن أتركك يا محمد، وهُناك مَن لن يترك كلينا، بقي علينا الآن أن ننتظره، أم أنك نسيته!؟

- أبدًا، أنا مُنذ ذلك اليوم وحين جلسنا معًا على تِلك التلة وتحادثنا، مُنذ ذلك الفجر الذي أجلسنا فيه جدك في حجره عِند التلة وعرّفنا إياهُ، ما زِلتُ أنتظره.

- وأنا أيضًا، أنا أيضًا ما زِلتُ أنتظره يا محمد.

مرّ عبق الذكريات من زمنٍ جميل.

ذات فجر شتوي وحين صبغ الكونَ لونٌ نيلي كان الشيخ هادي يجلسُ عل تلةٍ ويُجلِسُ على فخذه الأيمن نور وعلى فخذه الأيسر محمد ويُحدثهما:

- فلندعو الآن يا أحبائي لصاحبكما الذي يُحبكما كثيرًا.

- صاحِبُنا؟؟

- مَن هو، مَن هو؟

- تُحبان التعرف إليه؟

- أجل، أجل إننا في شوقٍ لذلك.

- حسنًا، إنه شخصٌ يُحبكما ولا ينساكما، لا ينسانا جميعًا إنه لا ينسى أبدًا مَن يُفكّر به ويذكره. شخصٌ رائِعٌ عطوفُ سيجعل الأرض جميلة، لكنهُ الآن وحيدٌ جِدًّا.

- أين هو؟ فَلْيَأْتِ الآن لقد أحببناه يا جدي؟

- سيأتي البتّة، كونا في انتظاره، عِداني بذلك هيا.

- نعدك، نعدك.

- انهضا الآن وتصافحا وتعاهدا على أن تنتظرانه معًا مهما طالت السنين وبعدت المسافات لا تيأسا من قدومه.

تصافح الطفلان وتعاهدا وتعانقا أمام مبسم هادي.

* * *

ماريا

هذه الدُّنيا مهمة جِدًّا لمصيرنا في الآخرة، لقد اختارت عاتكة قرب ليث ومن هُنا أمّنت لها بقربه مكانًا في الجنة.

أما زهرة!

أدركت أنه يجب علينا تحرير عواطفنا هُنا في الدُّنيا كي لا تبقى حبيسةَ جُرمِ أحدٍ آخر!

أما الآن بعد كل هذا فليس ثمّة سؤالٌ عندي ولا حيرة.

بعد أشهر طويلة،

تحولت قريتنا إلى مروج خضراء يانعةً آمنةً يغمرها الحُبُّ والاطمئنان، تبدو وكأنها قِطعةٌ من الجنَّةِ حقًّا، هكذا إذن يُجمِّلُ حبُ الله وحب الحياة وحُب المخلوقات لأجله كل شيء!

لقد أنقذ نور المساكين المغفلين بينما أفنى المنافقين المعاندين عن بكرة أبيهم، وما زِلتُ أتذكر حديثًا له في خطبةٍ صدح فيها صوته: "الحُبُّ شيءٌ ضروري، ومن أجل هذا قد أتينا، لحُب الله وحب أوليائه، وهل الدين إلا الحب؟! ولكي يتحقق الحب يجب أن يتوافق ما في قلب المرء من شعور تجاه ربه مع ما يصدر من جوارحه، أن تعصي الله وتدَّعي أن محبتهُ في قلبك هذا ليس حُبًّا بل هُراء! أحكامُ الله واضحة، ومَن يُحب الله حقًّا لن يتلاعب بها، وحدوده أيضًا واضحة ومن يُحِبُّه لن يتجاوزها. أما الذي يلهو في الحياة كيف يشاء مُدَّعيًا أن حب الله مقياسهُ القلب لا العمل!

ناهيك عن الحب فهذا قد اتخذ إلههُ هواه! نحن نُحب الله ونعبده عبادةَ الأحرار، نعبده لا طمعًا ولا خوفًا بل حُبًا وإدراكًا أنهُ للعبادة وللحُبِّ أهلًا ومستحِقًا".

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

***

وشاءت الصدف يومًا أن ألتقي بمحمد، الذي لم يعد يجرؤ حتى على نطق اسمي وصار يُناديني بـ "ابنة الزبير".

توقفت بعد تردد أمامه وحين تاهت الأحاديث وشردت قُلتُ:

- كُنتُ في ضلالٍ قبل معرفتي بك، قبل أن أتعقبك في تِلك الليالي، حين أراك تُناجي حزينًا باكيًا كُنت أعلم أن الذي تنتظره وتسترجي لقاءهُ لم يكن مجرد صاحبٍ بل سيد!

كل تِلك الأشواق لم تكن لشخصٍ عاديٍّ فارقته، ولم أكن أشعر أنك وحدك تنتظر؛ بل كأن الكون برمته كان ينتظر ويُناجي معك، وأنا! أحببتُكَ بِدافِعِ فضولي نحو من تنتظره.

لم تكن تبدو وحيدًا عِندما راقبتك تدعو ذات يوم، وكأن كل ما في الكون يدعو بدعائك.

يا لهذا الغائب المُنتظر الذي ترتجيه الدُّنيا بِرمتها،

أنتَ تتوق للقائه بينما أتوق أنا لمعرفته..

فالمعرفةُ أحيانًا خير لقاء، فالرؤية بالعين ليست شرطًا!

أنا لِسببٍ ما أشعرُ بأنه يسمع أنينكَ في تِلك الليالي الحالِكة ويُشاهِدُ حضورك حين تُحدِّثُ الله عنه، أليست هذه هي المُلاقاة؟

ابتسم:

- كم تَحدثتِ بشكلٍ جميل يا ابنة الزُبير...! أوليس ما قُلتِه هو المعرفة؟!

* * *

نور

إنني أقفُ الآن على شاطئ تتلألأ رِمالهُ الذهبية وأتأمل البحر الزاخر ومياهه الزرقاء الصافية وفي داخلي من الحُبّ والشوق ما يسع البحر بمياهه وشواطئه..

لقد تقادمت السنين ولم يبقَ في هذا الزمان غائب بهذا الحجم سواه، بأي أرض؟ تحت أي سماء؟ لا أدري ولا أحد يدري فأرجوه أو أتبع خُطاه..

أعلمُ فقط بوجودهِ خلف آخرِ شاطئٍ سترسو عليه رسائلي، وكُلي أمل أن تحتضن أشواقَ السنين في تِلكَ الرسائل يَداه.

جميع الحقوق محفوظة لقناة رقش

تمّتْ بحمدِ اللهِ..

المحتويات

(1) مُحمد – 660 هـ 7
البلاءُ العظيم 10
(2) البِداية كانت مِن الرّمَقِ الأخير! 36
(3) العهد 63
(4) شيءٌ مِن اللوعة 115
(5) العِشقُ أوحد 161
(6) جزاءُ الإحسان 181
(7) ماريا 205
(8) عاتكة 225
(9) محمد 244
(10) مُهاجِرٌ إلى النور 276
(11) ماريا 335
(12) اليوم الموعود 415
(13) القاتـل 438
(14) ما زِلتُ أنتظره 460